دكتور
عمارة نجيب

الإنسان

الله

في ظل الأديان

المعتقدات والأديان القديمة



الناشر
المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر (سيدنا الحسين)

دكتور
عمارة نجيب

الإنسان في ظل الأديان

المعتقدات والأديان القديمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

الحمد لله العليم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الخالق المحيط المبدع جل شأنه ، وتعالت قدرته ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله بلغ علماً لا يتطرق إليه أدنى شك ، وأوصل بياناً مدعما بالأدلة والبراهين لا ينكر وضوحه ، إلا مجادل بالباطل ، أو جاهل بمنطق العلم ، أو مزيف لحاجة في نفسه ، صلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبع هداه ، وسار على دربه إلى يوم الدين .

أما بعـــــد :

فقد وجدت دراسة الأديان من المهام الأساسية التي تنـــاط بعلماء الأزهر وفقهاء الإسلام ، أو هكذا يجب أن تكون ، خصوصا في هذا العصر الذي تتطاحن فيه الأفكار ، وتذهب مذاهب شتى تعبر عن قلق الفكر الإنساني ، وعن حرج الشباب وعجزهم أمام التساؤلات العديدة التي يطرحها عصر العلم على عقولهم فلا تجد لديها جوابا أو حتى تعليلا ينحي الفكرة أو التساؤلات بشأنها ، ولو إلى حين ، لأن الإلحاد يطل سريعا كبديل مدعم بزيف يلبس ثوب العلم ، كما تعبر عن تحرج الشيوخ إن لم يكن عن عجزهم عن عرض الجواب الشافي ، لأسباب عديدة أكثرها طارىء لم يسبق للشيوخ إدراكها ومعرفة أسرارها .

ولما كنت أحد الذين عاشوا الظرفين معا ، ظرف الشباب القلق بحكم سني وظرف الشيوخ المتحرج أو العاجز بحكم مسؤوليتي كداعية ، ذهبت مذهب الشباب في طرح التساؤلات بلا حرج ، وذهبت مذهب الشيوخ في البحث عن الإجابة

الشافية لكل هذه التساؤلات وساعدنى هذا الإزدواج فى نفسى على الوصول إلى شىء ان أسميه قبل أن أعرضه مفصلا من أجل الشباب والشيوخ معاً . لكنى أوثر عرض منهجى الذى أوصلنى إلى ذلك الشىء خلال تمهيد يسبق دراستى أملا فى أن نلتقى فى طريق واحد وعلى كلمة سواء تجمع الإنسانية على منطق الحق والله هو الحق وهو الهادى إلى صراط مستقيم .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

حاجة الإنسانية إلى دراسة الأديان

وكيفية هـــذه الدراسة

بدهى أن الأديان والمذاهب موضوع يهم الانسانية كلها سواء من يعتقد بدين ومن لا يعتقد .

وحاجة الإنسانية إلى دراسة هذا الموضوع ترتبط بحاجة كل إنسان -- خاصة المثقف -- إلى الإطمئنان ، إلى سلامة تفكيره ، وسلوكه ، أو اعتقاده وتصرفاته . خصوصاً فى هذا العصر بالذات ، ونحن نقترب من نهاية القرن العشرين ، وكل شىء يعلن أو يكاد يعلن ، أننا نعيش عصراً استطاع العلم فيه أن يقتحم المجاهل وأوكار الخوف ، التى فرضتها الطبيعة على الإنسانية أزماناً طويلة . فانتصر العلم عليها أيما انتصـــار ، وقرب المسافات بين القرى والمدن والامصار ، لتتقارب العلوم والافكار والاعمال ، وتتشابه المشكلات الفكرية والمادية ، ويصبح العلم مدعوا إلى كل مائدة تدرس هذه المشكلات ، كأنه الملجأ والملاذ وحده ولا شىء سواه .. وصار العالم المتمدن يستفتيه فى كل صغيرة وكبيرة مدعياً - إن صدقا وإن كذبا - أن العلم قادر على كل شىء ، مهما دق أو استعصى .

بل ذهب بعض هذا العالم إلى الظن بأن مالا يخضع للعلم فيدخل فى إطار تجاربه وأبحاثه أو يقع فى دائرة ملاحظاته وتأملاته ، فهو عدم ولا يصح

القول بوجوده . أو الإيمان به ، أو حتى افتراض وجوده .

وكان طبيعياً أن تتبادر الأسئلة المرتبطة بالعقائد والأديان إلى الأذهان ، وأن يقال : ما هو موقف المؤمنين بالأديان ؟ وهل هم قادرون على إخضاع الأديان والمعتقدات لهذا المنهج العلمى ، وماهى الكيفية التى تدرس بها الأديان دراسة يعرف بها صحيحها من باطلها ، وكاذبها من صادقها ؟ وكان لابد أن نسلم :

أولا : بأن أشد الأسئلة إلحاحاً على الفكر الإنسانى فى هذا العصر ما يتعلق بحاجة الإنسان إلى أن يطمئن إلى سلامة تفكيره وسلوكه واتجاهاته ومذهبه ومصيره .

ثانياً : بأن العلم المنتصر العملاق أصبح مطمح الآمال فى هذا الوقت بالذات كى يجب الإنسان على كل التساؤلات التى تصدر عن العقل الإنسانى ، خصوصاً وقد نجح العلم فى التوصل إلى النتائج الحاسمة ، والقوانين العلمية المسلمة ، أو العامة فى كل ميادين الحياة المادية .

ثالثاً : بأن لابد أن يحدد العلماء المؤمنون بدين أو بأديان موقفهم من الأسئلة المرتبة بالعقائد وخاصة هذا السؤال :

هل يمكن أن تخضع دراسة الأديان للمنهج العلمى ؟

موقف العلماء :

فطن الإنسان منذ عصور سحيقة فى القدم إلى خضوع الكواكب والنجوم فى حركتها العامة لقوانين ثابتة مطردة وسنن كونية لاتتبدل ، هدته إلى ذلك مشاهداته اليومية وملاحظاته لاطراد النظام الذى تسير عليه هذه الأجرام . وعلى هذه المشاهدات أسس علم من أقدم العلوم التى عرفها بنو الإنسان وهو علم الفلك .

ومع ارتقاء الفكر الإنسانى أخذ الاعتقاد بخضوع الظواهر الطبيعية لقوانين

ثابتة يتسع نطاقه شيئاً فشيئاً حتى شمل جميع نواحي الطبيعة والكيمياء والجغرافيا وعلم الحياة (البيولوجيا). وعلم الحيوان وعلم النبات وعلم وظائف الأعضاء (الفزيولوجيا) وما إلى ذلك من البحوث التي لم تغادر ظاهرة من الظواهر الطبيعية ولا ناحيـــة من نواحي النمو إلا كشفت عما يسيطر عليها من قوانين .

وفي أثناء ذلك ، بل من قبل ذلك ، فطن الانسان إلى قوانين الكم ، فانشئت علوم الرياضة .

وهكذا لم يمض على ذلك وقت طويل حتى تمكن العلماء من الوقوف على (ما سموه) القوانين التي تخضع لها الظواهر النفسية الفردية في بني الانسان كظواهر التخيل وتداعي المعاني والتذكر والانفعال . . إلخ على هذا الاساس أنشىء علم النفس (السيكولوجيا) .

أما الظواهر الاجتماعية — أي القواعد والاتجاهات العامة التي يتخذها أفراد مجتمع ما أساساً لتنظيم شؤونهم الجمعية وتنسيق العلاقات التي تربطهم بعضهم مع بعض والتي تربطهم بغيرهم (ومنها القواعد الخلقية والدينية) فقد ذهب إلى القول بخضوعها لقوانين ثابتة مطردة كالقوانين التي تخضع لها ظواهر الطبيعة والرياضة ، بعض العلماء كابن خلدون ، وكنت ، ودركايم ، وغيرهم ممن عنوا بالكشف عن هذه القوانين[1] .

إلا أن الذي يلفت نظر الباحث هو اختلاف علماء النفس بعضهم مع بعض . وكذلك علماء الاجتماع ، وعدم اتفاقهم على قوانين عامة ، تقدم للانسانية إجابة شافية يمكن الاطمئنان إليها وتعميمها والتسليم بها ، كقوانين الطبيعيات ، والرياضيات ، الأمر الذي حدا ببعض العلماء إلى القول بعدم خضوع هذه الميادين

(١) راجع عبد الرحمن بن خلدون الدكتور علي عبد الواحد وافي ص ١٤٦ وما بعدها .

قوانين ، ولا يصح بالتالى خضوعها للمنهج العلمى خاصة ما يتصل بالعقائد والاديان ـ كظواهر اجتماعية ، وكظواهر نفسية عامة .

ومن ثم اتبع الدارسون للظواهر الاجتماعية — بما فيها ظاهرة التدين — قبل ابن خلدون بوجه عام ، وبعض ممن بعده ، منهجاً يختلف تماما عن المنهج العلمى ، اعتقادا بعدم خضوعها لقوانين .

فاكتفوا بالطريقة الوصفية للظواهر ، وبيان ما كانت عليه فى الماضى وما هى عليه فى الحاضر ، كما فعل ابن حزم فى دراسته للملل والنحل ، وكما فعل الفقهاء فى دراساتهم للشرائع إلخ .

أودعوا إلى مبادىء تؤيدها الظواهر الاجتماعية وتقرها معتقدات الامة وذلك ببيان محاسنها وترغيب الناس فيها كابن مسكويه والغزالى والماوردى وغيرهم.

أو ارتأوا ما ينبغى أن تكون عليه هذه الظواهر كافلاطون وأرسطو والفارابى [١] .

وبقى الوجه العلمى : أهم هذه الوجوه وأحقها بالبحث .

وكانت محاولات ابن خلدون ومن سار على دربه بداية هذا الاتجاه ، لكن ما هو المقصود بالمنهج العلمى بالضبط ؟

المنهج العلمى :

يذهب العالم التجريبى إلى معمله ومعه :

أولا : عينات من : المواد والعناصر التى سيجرى عليها تجربته .

ثانياً : معارفه ومعلوماته عن هذه العناصر والمواد .

ثالثاً : افتراضه العلمى بشأن التجربة أو آماله التى يرغب فى وقوعها .

---

(١) د. على عبد الواحد المرجع السابق.

رابعا : دقة الملاحظة : التى لاتتوفر إلا لعالم خبير محيط بموضوع البحث والدراسة .

أما عينات المواد والعناصر فنى أمكان أى أحد أن يستحضرها ، ويبقى بعد ذلك معارف ومعلومات ضرورية ، لا تتوفر إلا لخاصة الناس ولا تصل إليهم إلا إذا سبقهم إليها علماء مجربون أعطوا نتائج تجاربهم لهم أو وضعوها فى إمكانهم، أو على الاقل عرفت لهم ، وكانت صادقة تماما ، وفى هذا الميدان لا يغنيهم عن قديم هذه التجارب ما حصلوه من حديثها ، بل لابد من جميع المعارف المتصلة بموضوع البحث من ألفها إلى يائها ، لتبدأ التجربه من علم وتنتهى الملاحظة الدقيقة إلى عطاء علمى مفيد .

ولذلك يجب أن تكون هذه المعارف والمعلومات السابقة صادقة فى مجملها ، بعكس ما إذا جهل المجرب خصائص عناصر التجربة وموادها ، أو كانت معارفه بشأنها كاذبة ، أو لم يكن دقيقا فى ملاحظاته ، فالنتيجة فى كل حال سواء وهى فشل التجربة نهائياً ، أو إعطاؤها نتيجة مخالفة للافتراض العلمى المسبق بشأن التجربة ، أو كذب الدعوى وبطلان التقنينات .

فماذا يمكن أن يتوفر من ذلك لعالم الاجتماع أو الباحث الدينى ؟

اعتمد المؤمنون بضرورة المنهج العلمى ، كطريق يوصل إلى التعرف على القوانين التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية ، بما فيها ظاهرة الدين وفى مقدمتهم ابن خلدون . اعتمد هؤلاء فى بحوثهم على ملاحظة ظواهر الاجتماع فى عينات من الشعوب والقبائل والأقوام التى تيسر لهم الاتصال بها، والحياة معها فى وقت ما ، إلى جانب دراسة هذه الظواهر فى تاريخ هذه الشعوب نفسها فى العصور التى تسبق وقت الملاحظة ، وكذلك تتبع أشباه ونظائر هذه الظواهر فى تاريخ شعوب أخرى لم يتيسر للدارس الاحتكاك بها، ولا التعرف على أهلها، ليوازن بين الظواهر هنا وهناك ، وليتأمل فى مختلف شئونها، للوصول إلى معرفة الطباع ، والصفات ، والأعراض ، والعلاقات ، وما يمكن أن يؤديه ذلك

كله من وظائفه فى حياة الشعب ترقيا أوتفككا وانحلالا أوتماسكا وعصبية، ليخرج من ذلك بالقوانين التى تخضع لها هذه الظواهر فى جميع أحوالها .

فهم بهذا يحاولون أن يستحضروا مواد البحث وعناصره الأولية ، متمثلة فى تجربتهم وملاحظاتهم ؛ بالإضافة إلى المعارف الضرورية اللازمة عن هذه المواد والعناصر ، سواء من دراسة التاريخ أو من تتبع أشباه ونظائر مواد البحث ليصلوا إلى الكشف عما يحكم هذه الظواهر الاجتماعية من قوانين .

ولا ريب أن الدراسة على هذا النحو هى أقرب الدراسات إلى المنهج العلمى المستقيم ، وعليه فقد اختار علماء الاجتماع عينات تجاربهم شأنهم شأن عالم المادة ووضعوا هذه العينات تحت الملاحظة الدقيقة ، فمنهم من اختار نماذج بشرية تتمثل فى الشعوب والقبائل التى تيسر لهم العيش معها والاطلاع على أخلاقها وتصرفاتها وعقائدها وسلوكها وانفعالاتها وعواطفها إلى آخره .

وكانوا من قبل قد تتبعوا تاريخ هذه الشعوب والقبائل فى سابق العصور . كما تتبعوا أشباهها ومثيلاتها بالدراسة فى تاريخها القديم والمعاصر ، ووازنوا بين الظواهر الاجتماعية المتماثلة والمتباينة جميعها، ملاحظين ذلك كله فى مختلف شئون هذه الظواهر ، ليقفوا على عناصرها ، وصفاتها ، وطبائعها ، الذاتية والعرضية ، وما تؤديه من وظائف فى حياة هذه الشعوب والقبائل ، بل ذهبت بهم دقة الملاحظة ، إلى حد ، إدراك العلاقات التى تربط الظواهر بعضها ، وتجعلها تتأثر وتؤثر فى بعضها البعض ، ليس فقط ، بل إلى حد إدراك العلاقات التى تربط الظواهر الاجتماعية بما عداها من الظواهر الطبيعية والبيئية ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والشعوب ، وباختلاف الأزمان والعصور ، ملاحظين ذلك كله ، محاولين أن يكتشفوا القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية . بما فيها ظواهر النفس والدين .

ومنهم من اختار عينات من الحيوانات التى ادعى أنها أقرب شبها بالإنسان ، كالقردة والنسانيس . واستخدموا معها كل الظروف التى يمكن أن تتشابه مع ظروف الإنسان ، لينتهوا هم أيضا إلى قوانين يرونها كافية لترقية حياة الإنسان أو انحطاطها .

ومع ذلك كله فكل العينات وحقول التجارب والملاحظات الدقيقة ، والعلمية التى أضفيت على هذه المحاولات ، خرجت بالتقنينات الخاطئة ، بل أوجدت خلافات واسعة الشقة بين علماء هذا الميدان ، وكل منهم يدعى أنه الأكثر صدقاً ، وبقى الانسان حائرا بل أصبح أكثر حيرة من ذى قبل .

فأى الاتجاهات يختار ، وأى المذاهب يذهب ؟

المنهج العلمى وهذه المشكلة :

الحق أننا إذا أردنا أن نصل إلى حل ، فلابد لنا من الاعتقاد بخضوع الظواهر الاجتماعية بما فيها الظواهر الخلقية والدينية لقوانين عامة ، وهو ما يعنى إمكان التوصل الى هذه القوانين عن طريق البحث العلمى ، واتباع المنهج العلمى ، ذلك لان رفض المنهج العلمى فى هذا الميدان ، خاصة مايتصل بدراسة الاديان ، يعنى اعلان العجز التام عن مقاومة تيار العصر وهو اتباع العلمية فى كل شيء ، فى الجدل . وفى الحوار ، وفى الإجابة الشافية للنفس القلقة فى هذا العصر .

فإذا لم يجد الشاب المثقف ثقافة علمية إجابة علمية ، على كل ما يعرض على عقله من تساؤلات ، خاصة ما يرتبط بالعقيدة ، والمذهب ، والدين ، والفكر والسلوك والأخلاق ، ذهبت نفسه شتاتا بين القلق والاضطراب والتعقد ، أو اختيار الفوضوية والسلبية والانحراف ، وهو ما قدبدأ يحدث فعلا فى العالم كله تقريبا ، فلم تعد الدراسات الوصفية مجدية ولم تعد الدعوة الى ما يجب أن يكون

حتى لو كان مبادىء مقررة ، وقواعد تؤيدها الظواهر الاجتماعية ـ بقادرة على مواجهة تيار العلمية فى العصر الحديث .

وإذا كانت المشكلة حتى الآن هى عجز المنهج العلمى ـ أو ما سمى منهجاً علمياً ـ عن الوصول إلى قوانين حاسمة ، فإن هذا لا يعنى أبدا فشل المنهج العلمى تماما أو عجزه الابدى ، بل لابد من البحث عن سبب لهذا العجز . خارج عن المنهج العلمى المستقيم .

فهل يكون السبب هو المنهج الذى أتبع ؟ أم يكون الوسائل ؟ أم أى شىء ؟

حقيقة المشكلة فقدان العالم الحقيقى المحيط إحاطة كاملة بموضوع البحث . إلخ

فى كل ماجرى من دراسات قام بها المؤمنون بخضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ، لإمكانية التوصل إلى هذه القوانين عن طريق المنهج العلمى ، كان أساس منهجهم فى بحوثهم إبتداء من ابن خلدون إلى الوقت الحاضر يجتاز مرحلتين : تتمثل أولاهما فى جمع المواد الاولية لموضوع البحث عن طريق المشاهدات والملاحظات الحسية ومن بطون التاريخ ، وتتمثل الأخرى فى عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الاولية ، ويصل بفضلها إلى الغرض الذى قصد إليه من هذا العلم ، وهو التوصل إلى القوانين التى تحكم الظواهر الاجتماعية .

وهذا أساس المنهج الذى لا يزال يتبع إلى الوقت الحاضر .

(وقد ذهب ابن خلدون مثلا ـ وهو يعرض ما انتهت بحوثه إلى طريقة تشبه فى وجوه كثيرة الطريقة التى يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة فى عرض نظرياتهم)[1] .

---

(١) ابن خلدون : د. على عبد الواحد وافى .

كما عمد أوجست كنت فى القرن التاسع عشر ، أى بعد عصر ابن خلدون بخمسة قرون ، إلى نقص المنهج ، ونهج فى علاج موضوعاته نهجا علميا ، أو ادعى ذلك، لكن الذى أخذ على العالمين ومن جاء بعدهما بوجه عام الانحراف عن هذا المنهج العلمى للأسباب التالية :

١ — خضوعهم لأفكارهم وأهوائهم الخاصة ومبالغتهم فى القول بآثار أشياء دون أشياء .

٢ — عجزهم عن الإحاطة أو الشمول النظرى لموضوع البحث وما يتصل به من ملايين الأشياء والأدوات والعوامل التاريخية المتغيرة، وشرط صحة المنهج العلمى إحاطة العالم بموضوع البحث إحاطة شاملة كاملة خاصة فى ميادين الاجتماع حتى تجىء النتيجة صادقة لا تحتمل الشك ومن هنا كانت القوانين والقواعد التى انتهوا إليها لا تكاد تصدق الا على الامم التى احتكوا بها ، ولا تتفق مع مراحل تاريخ هذه الامم ذاتها وانما تتفق مع مرحلة خاصة ، ولا يمكن أن تسمى هذه قوانين علمية .

٣ — العجز عن استقراء الظواهر فى كل الامم والشعوب، واذا تم هذا جدلا فإن استقراء التاريخ يحتمل الصدق والكذب ، الا من جانب من يملك علما محيطا بهذا التاريخ من بدايته الى نهايته ، ودراسه الاديان لمعرفة أصلها وتطورها تحتاج أيضا الى هذا العالم الذى يتمكن من الإحاطة بتاريخ الإنسان وبيئاته كلها وما يتصل بها من الاشياء والادوات .

فالمشكلة اذن فقدان العالم من البشر يحيط بأسرار التاريخ الانسانى، لا يحكمه هواه ولا يخضع لفكر غيره ، قادر على استقراء المجتمعات قديمها وحديثها ، استقراء كاملا متصلا بدراسة عن النفس الإنسانية ، وملكاتها ، وقدراتها ليقنن، القوانين العلمية الحاسمة والعامة والصادقة من كل وجه كأساس لمعرفة الصحيح من الخاطىء ، والحقيقة من الادعاء فى كل ما يتصل بالظواهر الاجتماعية واذا

كان الدين كظاهرة موضوع بحثنا ، فانه لا يصح أن تقطع صلته بكافة الظواهر الاجتماعية الأخرى . لارتباط الظواهر وتداخلها وتأثيرها وتأثرها بعضها فى بعض وببعض فأين نجد هذا العالم المحيط الخبير الذى يملك هذه القدرة ؟ .

العالم موجود والقرآن يدل عليه :

القرآن كتاب محسوس ، مشاهد « من وجهة النظر المادية البحتة » كل ما ورد فيه يدل على أن صاحبه عليم محيط قادر ، ولا يحتاج هذا الكتاب من العلماء إلا إلى بعض الجهود التى تبذل فى النقد والتحليل ، لمعرفة صدق هذا الكتاب ودلالته على صاحبه ، وهو الكتاب الذى يمكن أن يجتمع العلماء فى كل فن ومن كل مكان فى العالم ، ليدرسوا قوانينه ويمتحنوا صدقها من خلال منهج علمى مستقيم . والمؤتمرات الدولية التى تتكون لدراسة مشكلة اجتماعية ، كالمراهقة ، أو متطلبات الطفولة العلمية ، مثلا ، يمكن أن يتكون مثلها للنظر فى الحلول التى يقدمها القرآن من خلال نظرة علمية تتمتع بالادراك العلمى وفهم المنهج العلمى المستقيم ، فعلى رأس المشكلات التى تمنع من تحقيق مثل هذه الفكرة ، البعد عن المنهج العلمى الحقيقى فى دراسة هذه الموضوعات ، والدليل الأول الظاهر لكل ذى عين هو عجز العلماء عن إدراك شمولية النظرة القرآنية لكل الظواهر الاجتماعية وتقنينه لكل ظاهرة متصلة بالأخرى إيمانا بالتأثر والتأثير اللذان لم ولن يتوقفا بين الظواهر بعضها وبعض . كظاهرة التخلف الاقتصادى تتأثر بالنظام السياسى وظواهر الاجتماع الأخرى مثل ظاهرة التعلم والتوجيه والثقافة والتربية والقضاء ، والمعاملة ... إلخ .

حاجة القرآن إلى من يقدمه :

(العجز عن النظرة الشمولية) سيئة غلبت على كثير من العلماء حتى لم يعد يوجد بين علماء المسلمين انفسهم من يرجع علاجه لمشكلة من المشاكل

إلى أصلها أو قانونها العام . إلا قليل ، بل أصبح الخلط ظاهر بين أعراض الظواهر وذاتياتها ، بين القواعد والاستثناءات بين العموميات والخصوصيات .

فالذى يعالج ظاهرة الطلاق مثلا يفصلها عن ظاهرة الفقر والحاجة وعن ظاهرة الثقافة السائدة والرائجة ، وعن ظاهرة القيادة والمثل الأعلى للناس .. إلخ فيجىء علاجه لها داء لا دواء .

وقد استطاع ابن خلدون باتصاله بالقرآن ومحاولته تقنين الظواهر الاجتماعية أن يكون أول عالم فى الدنيا يصنع قواعد تأسيس علم جديد هو علم الاجتماع ، ولم يستطع أحد أن يجاريه منذ القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وإن أدعى الأوربيون غير ذلك . ولعل مرجع هذا النجاح استناده إلى منهج القرآن فى التقعيد والتقنين ، إلا أن فشله فى الوصول إلى قوانين حاسمة كنتائج المعمل يرجع إلى أنه لم يصل لا هو ولا غيره من قبله ومن بعده إلى الاحاطة الواجبة بموضوع البحث ، فالمنهج موجود والعالم المحيط من البشر مفقود ، وبالتالى كان القرآن وحده وسيبقى الكتاب الوحيد السابق لابن خلدون وغيره والباقى أبد الدهر الذى وضع القوانين والقواعد العامة والحاسمة للظواهر الاجتماعية والتحضر الانسانى . فيكون لدى المسلمين كتاب له منهجه العلمى المسلم به لأنه من لدن العالم المحيط الخبير بكل شئون الاجتماع الانسانى .

وحتى يسلم غير المسلمين بهذه القوانين والقواعد كتسليمهم لقوانين وقواعد المعمل التجريبى تبقى الحاجة الماسة للعالم الفاهم لهذه القوانين والقادر على تقديمها للانسانية بالأسلوب العلمى والمنطق العلمى منطق العصر .

فكيف نتقدم فى هذا الميدان :

إذا كان التقدم العلمى التجريبى رهن بمدى قدرة العلماء على إجراء التجارب ، وما يحصلونه من نتائج هذه التجارب فان المحدثين من العلماء لا يستغنون عما

جربه السابقون ولا عما حصلوه من هذه التجارب بل لابد للعالم الحديث أن يستند إلى كل ماعرفه الاقدمون متصلا بميدان بحثه تماما كما لا يستغنى البالغ عن ألف باء اللغة التى تعلمها فى طفولته حتى لو صار أرقى علماء عصره ، وإنما يجىء الرقى على سلم التجارب ابتداء من الطفولة الانسانية حتى قمة مجدها ، وتبقى الحاجة إلى درجات السلم كلها أساساً لهذا الرقى ودليلا عليه .

أما إذا جهل المجرب المحدث أو العالم المحدث ألف باء التجارب أو العلوم فلا أمل البتة فى وصوله لشىء أرقى مما هو عليه .

ومن هنا يكون الفرق واضحاً بين الامم المتقدمة والامم الاقل تقدما أو المتاخرة ، ويقاس هذا الفرق بمدى ملكية كل من هذه الأمم للتجارب ونتائجها التى يجريها العلماء جيلا بعد جيل ، ومدى الاستفادة من هذه النتائج وكلما كثرت ملكية الامة لهذه التجارب واستفادت منها زاد نصيبها فى الترقى . وكلما قلت ملكيتها لهذه التجارب أولم تستفد منها نصيبها فى الترقى وزاد انحطاطها .

التجارب الاجتماعية وكيفية الاستفادة منها :

وإذا صح اعتماد المنهج العلمى التجريبى كأساس للتقدم العلمى المادى ، فإن التجارب الاجتماعية ـ فى اعتقادى ـ تساوى تجارب المعمل فى كل شىء ، ومادنيا الإنسان إلا المعمل المتكامل بكل وسائله ، وعناصر التجربة هم بنو البشر فى تجمعاتهم المختلفة شكلا ، ولونا ، وبيئة ، وفكرا وسلوكا ، فلا تحتاج هذه الدراسة إلا إلى العالم الذى يرصد فكر هذه التجمعات وسلوكاتها على اختلاف أشكالها وألوانها وبيئاتها وأفكارها وسلوكها فى كل العصور . السابقة لينتهى إليها نتيجة هذه التجارب الاجتماعية وعائدها الثقافى فكرا وسلوكا وعائدها الحضارى تقدما وتراجعاً ، وعائدها النفسى على الفرد والمجتمع سعادة وشقاءاً ، عندئذ يكون الفرق بين مجتمع يتقدم ومجتمع يتأخر فى الميدان الاجتماعى هو الفرق بين من يستفيد من هذه التجارب

وعائداتها أو نتائجها وبين من لا يستفيد . فالذى يستفيد من تجارب الأجيال والأمم التى تتبعها القرآن ، ورصد نتائجها ، وقنن القوانين الاجتماعية على ضوئها . الذى يستفيد من ذلك يتقدم ويرقى ، والذى يهمل مثل ذلك يتخلف ويتراجع من وجهة نظر العلم التجريبى ، والواقع يؤكد ذلك كل يوم .

وإذا كانت الإنسانية قد سلمت بحق التجربة المعملية ونتائجها فى صياغة وتطوير جوانب الحياة المادية ، ولم تسلم حتى الآن بحق التجربة الاجتماعية ونتائجها برغم خطورتها فى صناعه وتطوير جوانب الحياة الاجتماعية . فما هو الحل لهذه المشكلة .

الحل :

لاريب أن الحل يتمثل دائما فى قدوة ومثل يستفيد من التجارب الاجتماعية الإنسانية السابقة ويقدم بنفسه مثلاحياً لفائدة التجارب وعائداتها الحضارية فكراً وسلوكا ، شكلا ومعنى ، فى كل جوانب الحياة . وقد ذلل التاريخ والواقع على أن الأمم والأفراد كل منهم ينظر إلى الأرقى والأعظم فيأخذ عنه الحق والباطل معا ولا ينظر إلى الأقل شأنا ولا يأخذ عنه وإن كان المأخوذ حقا مطلقا فالتقليد الأعمى لايتأتى إلا من الأدنى يقلد الأرقى ، والاسفل يقلد الاعلى منه فى أعتقاد المقلد ، ومن يمكن أن يقدم هذا الحل للإنسانية غير المجتمع المسلم الذى أعلن أن دينه الاسلام ودستوره القرآن ؟ ودينه ودستوره معا، قد حملا لنا رصيد التجارب الإنسانية منذ آدم حتى خاتم الانبياء وقدما لنا نتائج هذه التجارب وما ترتب عليها من قوانين تفيد الفكر والسلوك . وعليه يتبين :

١ — ضرورة المنهج العلمى لدراسة الظواهر الاجتماعية وخاصة الاديان والمذاهب وما يتصل بهما .

٢ — ضرورة تحكيم نظرة الشمول أو الشمول النظرى للقضايا الاجتماعية التى تطرح ، وضرورة ذلك تساوى ضرورة المنهج العلمى لارتباط صحة

المنهج العلمى في هذا الميدان بالشمول النظرى لكل جوانب الموضوع وما يتصل به :

٣ — ضرورة وجود العالم القادر على الإحاطة بكل جوانب الاجتماع الإنسانى واختلاف أشكاله وتطوراته وبيئاته وتاريخ وعوامل ترقيه أو إنحلاله للوصول إلى القوانين الحاسمة التي لا تحتمل التبديل أو التغيير أو الخلل . أو التشكيك فى جدواها وصلاحيتها ، وهذا العالم هو الله وكتابه ناطق بهذه الحقيقة متضمن كل شىء بشأنها .

٤ — رصد التجارب الاجتماعية السابقة للانسانية وعائداتها الثقافية والنفسية وتقديمها للانسانية بصدق دون تدخل الأهواء والأغراض . وهذا أمر أكده القرآن وحرص عليه لأنه من لدن العالم المحيط الخبير بقضايا الاجتماع والنفس منذ آدم حتى قيام الساعة .

٥ — الاستفادة من هذه التجارب ومن عائدها كنتائج علمية ، وكقوانين عامة لا تتخلف ، فإذا فعلت الأمة الفلانية مثل مافعل بنو إسرائيل مثلا من إيمانهم ببعض الكتاب (الوحى) وكفرهم ببعضه ، استحقت الخزى فى الدنيا كنتيجة محتمة تماما كما حدث لبنى إسرائيل .

٦ — أهمية وجود العلماء القادرين على فهم القرآن ونظرته الشاملة والموضوعية والقادرين أيضاً على تقديم قواعده وقوانينه من خلال المنهج العلمى والنظرة الموضوعية كدليل على وجود العالم الأكبر الذى أنتج النتائج من تجارب الاجيال وهو الله .

٧ — أهمية المثل أو القدوة للتدليل على صدق العائد العلمى لنظرية القرآن الرائدة : وهـــو التقدم والفلاح فى جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية ، عند التطبيق الصحيح ، فطالما بقى المسلمون أذيالا لغير

المسلمين كان هـذا دليلا على بعدهم عن تطبيق قواعد وقوانين قرآنهم .

دور الباحثين فى الاديان والمذاهب :

لقد آن الاوان كى يعيد المفكرون والفلاسفة ، والباحثون فى الاديان والمذاهب والدارسون وطلاب العلم . آن الأوان ليعيد الجميع النظر فى منهج دراستهم وبحوثهم . بل آن الاوان لتقنين الحوار وإعادته على مستوى العالم من خلال منهج علمى ودراسة موضوعية وإعادة النظر وتقنين الحوار وإعادته من خلال منهج علمى ودراسة موضوعية يتطلب إستحضار الباحثين والدارسين والمجاورين تجارب الماضين ونتائج هذه التجارب إلى ميدان البحث والدراسات الدينية ، أو الأجتماعية بوجه عام ولا يأتى هذا على نحو صحيح إلا باعتماد القرآن دليلا لهم .

أولا : كأساس لصحة المنهج العلمى :

ثانيا : لصحة قياس هذا الدين أو المذهب .

فكذلك يجب أن يكون شأن العالم الدينى أو الباحث المذهبى ، لانه إذا جهل شيئاً من عناصر بحثه ، لا يمكنه أن يقيس مدى صحة دين أو مذهب ولا مدى خطئه .

وكذلك يجب أن يكون العالم الدينى أو الباحث المذهبى أن يكون عارفاً بتجارب الاخرين وأثر هذا المذهب أو الدين على أفكار وحياة المؤمنين به مع ضرورة التفرقة بين دين يطبق حرفياً ودين يطبق جزئياً . ودين يفسر على تطبيقات تتصل به أو لا تتصل ، وكذلك المذهب ... إلخ .

وإلا لا يمكن أن يقيس مدى الصحة أو الخطأ ، وبالتالى لا يصح أن نطمئن إلى تعليقات أحد بهذا الشأن طالما كان جاهلا بشيء من ذلك .

وبمعنى عام يجب أن يتمتع الباحث الدينى أو المذهبي بشمولية النظرة ودقة الملاحظة .

وكذلك يجب أن يتجرد له تماما من الهوى أو التحيز والتعصب لأى مذهب أو دين حتى لا يغلبه هواه وتسيطر عليه عواطفه .

الإنسان كعنصر أولى من عناصر البحث :

قام الإجماع بين كل الأديان والمذاهب على أن المطلب الأساسى للعلم وللدين وللمذهب بل ولكل الأنشطة الانسانية الاجتماعيه هو « إسعاد الانسان » .

فلتكن هذه بداية اتفاق لكل بحث أو حوار ، ننظر من خلالها إلى تقييم كل نشاط دينى أو مذهبى . هل سعد الإنسان فى ظلال هذا الدين أو المذهب ؟ وهل يمكن أن يسعد الإنسان فى ظلال هذا الدين أو هذا المذهب الآن وبعد الآن ، ولا ريب أن أهمية الاستفادة من التجارب الاجتماعية سوف تكون حجر الزاوية فى هذه الدراسة . فهى التى توصلنا إلى أكتشاف مجتمع سعيد ، سعيد فرده ، سعيدة مجتمعاته الصغيرة ، سعيدكله ، وباكتشاف القوانين والقواعد التى أسعدت هذا الانسان ، نستطيع أن نكتشف القوانين التى تسعد انسان الحاضر والمستقبل ، خاصة إذا كان الواقع أو التجربة قدمت هذا النموذج فى ظل هذا القانون ووجد من يلاحظ تجارب الأجيال ويرصدها بدقة وخبرة وإحكام وعلم ثم يسجلها بدقة العلماء وخبرة الحكماء وليقدمها خالصة صادقة منزهة عن كل هوى أو غرض (فهل ينبئك مثل خبير) .

الانسان فى ظل الأديان والمذاهب إذن :

الانسان فى ظل الأديان والمذاهب سيكون موضع الدراسة والبحث إذن ، ولا ريب إذا إكتملت هذه الدراسة من خلال المنهج العلمى ، ونوقشت بطريقة تحليلية موضوعية ، استطاعت أن تعطينا القوانين

والقواعد العامة لنشأة الأديان وتطورها، ومدى صحتها أو خطئها بلا تعصب وبلا تزييف وهذا مبتغانا الذى نرجو تحقيقه وتقديمه لانسان عصر العلم عسى أن يجد فيه طمأنينة قلبه، وراحة فؤاده. فيعيد النظر فى سلوكه وتصرفاته ليتهيأ للانسانية التقدم الاجتماعى ويتواكب العلم والدين على طريق تحقيق خير الإنسان وسعادته.

والله الموفق

الفصل الأول

الانسان والدين

متى نشأ الدين ، وما مصدره ، وما الدافع لوجوده فى حياة البشر قصة الإنسان الأول والوحى ، أصل الإنسان ـ حقيقه الإنسان البدائى . .

متى نشأ الدين وآراء العلماء فى هذا الموضوع :

الدين كقوة روحية تصل الإنسان بقوة غيبية : الدين بهذا المعنى ارتبطت نشأته بوجود الإنسان . أول إنسان على ظهر الأرض ، فذهبت الكتب الدينية المقدسة اليهودية والمسيحية والإسلامية إلى أن آدم أبا البشرية سمع الوحى من ربه الذى أمره ألا يأكل من شجرة معينة ، فأكل منها مخالفاً هذا الأمر ، فأخرج من الجنة إلى الأرض ليبدأ حياة البشرية على ظهرها وصلته بربه وخالقه لم تنقطع .

وحتى الذين وضعوا مسائل العقائد والأديان أمام الاختبارات العلمية أو تناولوها بمنطق العقل المحض واتفقوا على أن العقائد من صنع الإنسان نفسه ، ولا صلة لها بوحى أو أية قوة وراء الطبيعة ذهب فريق كبير منهم إلى أن نشأة الدين لم تتأخر كثيرا بعد وجود الانسان ، الذى أندفع كما - يقولون - إلى خلق هذه القوة كى يطمئن إليها من خوفه مما حوله من مجاهل الأشياء والطبيعة .

وقليل من العلماء من قال بتأخر نشأة الدين عن وجود الأنسان على الأرض « كهنرى برجسون » الذى أرجع نشأة الدين إلى الفائدة الاجتماعية أو الغريزة الاجتماعية أو الحدس الاجتماعى على القول بان الإنسان مدنى بطبعه . و« كدوركايم » الذى ذهب إلى أن المجتمع الانسانى هو أول إله عبده بنو الإنسان وأن الطواطم تمثل أقدم ديانة إسلامية لا رتباطها بابسط تكوين اجتماعى - فى نظره . — فتأخرت نشأة الأديان قليلا حتى تكون مجتمع إنسانى شعر بحاجته إلى نظام ، وضرورة ارتباط هذا النظام بقوة عليا تلزم أفراد المجتمع بمصالح الجماعة فى السر والعلن ومما قاله برجسون : « قد نجد فى الماضى أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم أو الفن أو الفلسفة ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين[1] .

---

(١) الدين : محمد عبد الله دراز ص ٨٥ .

فالخلاف فى نشأة الدين مع الإنسان الأول ـ الفرد ـ أو المجتمع ـ ضاقت دائرته كثير أجدا فى هذا العصر ، حتى كاد أن يصبح شكليا ، ولهذا نرجىء مناقشته إلى مكان آخر

مصدر الدين و بواعثه :

تختلف الآراء كثيرا وتتشعب فى هذا الموضوع ويمكننا تحديد هذه الخلافات فى اتجاهين أحدهما : الذى يذهب إلى أن الدين مصدره الوحى الإلهى من القوة العليا الخالقة لهذا الكون ، أما باعث الإنسان على التدين حينئذ فدافع فطرى يحرك الإحساس بالصلة بين وجود قوة عليا تستحق العبادة . وبينه كمخلوق محتاج إلى الخالق وإلى الارتباط به وأفراده بالعبوديه .

وثانيهما : الاتجاه الذى يذهب إلى أن الدين مصدره فكر الإنسان . والباعث عليه نفس الإنسان وفكره وحاجته وظروفه الطبيعية وبيئته . إلخ

أما الاتجاه الأول : وهو القائل بأن الدين أصله الوحى الالهى من القوة العليا الخالقة لهذا الكون والمسيطرة عليه وسبعث تدين الانسان فطرة دافعة للإنسان إلى التطلع نحو قوة عليا وشعور الإنسان بضرورة هذه الصلة بينه وبين هذه القوة فيعتنقه المؤمنون بالأديان السماوية الثلاثة اليهودية والمسيحية والاسلام بالاضافة إلى الديانة الزرادشتية التى يعتقد أصحابها أنها منزلة من السماء على زرادشت على شاطىء نهر ديتى فى مقاطعة أذربيجان ببلاد فارس. وهى ديانة قديمة أوشك أتباعها فى إيران على الانقراض ولم يبق من أتباعها إلا نفر قليل هاجر بعضهم إلى بلاد الهند ويرجع تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد ، وكذلك الديانة البرهمية التى يرجع تاريخها إلى عصر أبعد ، يراه بعض المؤرخين نحو القرن الخامس قبل الميلاد ، ويعتنقها الآن معظم سكان الهند وبعض سكان باكستان .

ولا دليل لأصحاب الديانات الأربع السابقة للاسلام على أنها من وحى

عليا وراء المخلوقات إلا ما يجدونه فى أسفارهـــا وما ورثوه عن الآباء والأجداد يشير إلى هذه القوة ويدعو الناس إلى عبادة صاحبها .

أما أدلة أصحاب الديانة الاسلامية . فكثير منها على سبيل المثال :

١ — القرآن ذاته المتحدى به الانس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وبقاء هذا التحدى قديماً وحديثاً ومستقبلا .

٢ ـ ما يقدمه القرآن من قوانين اجتماعية وقواعد نفسية ، وأسس حضارية لا يملك الوصول إليها إلا عالم محيط خبير بأسرار الكون وخفايا النفس وتاريخ الماضى والحاضر والمستقبل .

٣ ـ صدق صاحب الرسالة محمد بن عبد الله قبل البعثة فلم يجرب عليه كذب قط .

٤ ـ عدم انقطاع الصلة بين فترة تلقى القرآن وبين حفظه فى الصدور وكتابته وتواتره من غير تحريف أو تبديل بعكس كتب الديانات الاخرى.

وأما الاتجاه الثانى : وهو الاتجاه الذى يذهب إلى أن الدين مصدره فكر الإنسان ومبعثه من نفس الانسان وحاجته وظروفه وبيئته ، فيعتنقه كثير من الذين يؤمنون بضرورة خضوع كل شىء للمنهج العلمى مدعين أن منهجهم العلمى - فى نظرهم - لم يوصلهم إلى شىء وراء الطبيعة ، ومالم يصل العلم إلى إثباته بعد - فى نظرهم أيضا - عدما وباطلا ولذلك راحوا يتلمسون علة ظهور الأديان فى كل المجتمعات الانسانية تقريبا فى شىء غير الوحى وما وراء الطبيعة ، ولم يكن أمامهم إلا الطبيعة نفسها بما فيها الانسان ، ومن هنا تفرعت الاراء وتعددت وكان البحث عن أصل الانسان مقدمة لهذه الاراء ولهذا سنضطر إلى التعرض لأصل الانسان استطرادا لنوفى بحثنا حقه ثم نعود إلى الموضوع الأصلي مرة أخرى .

أصل الإنسان :

من وجهة نظر القائلين، بأن الدين مصدره الفكر الإنسانى ـ يعد الإنسان فى نظرهم تطورا طبيعيا لمادة أو خلية وجدت بالصدفة فى مكان رطب يساعد على التعفن وتفاعل المادة أو الخلية تفاعلا كيماويا ـ هذا المكان الرطب قد يكون الماء ذاته أو البرك والمستنقعات أو شواطىء البحار والأنهار على اختلاف الآراء ـ انتهى هذا التفاعل الكيماوى إلى إيجاد الخلية الحية التى تطورت إلى خلايا عديدة ثم إلى مخلوقات تحركت فى اتجاهات وأماكن وبيئات وظروف تفاعلت مع هذا المخلوق أو ذاك لتصنعه على نحو يتوافق مع البيئة والظروف التى تحيط به ، وظل التطور والتفاعل يتناولان المخلوقات بالتغير والتوائم تبعا لمدى التفاعل وإمكانياته وطبيعة المخلوق والبيئة التى وجد فيها فكانت الأحياء المائية والبرية والجوية وخلال ذلك انتخبت الطبيعة ما يستحق البقاء وأفنت ما يستحق الفناء ، وكان الإنسان من بين المخلوقات التى تطورت من الخلية الأولى إلى مخلوقات أولية ثم إلى مخلوقات مركبة ، ثم إلى حيوانات فكان الانسان تطورا طبيعيا لكائنات مرت بمراحل عدة حتى كان حيوانا يمشى على أربع ، وظل بفعل هذا التطور ينتقل من صورته تلك إلى صورته القويمة الحالية بعد زمان طويل ومحاولات أطول للتكيف والتوائم .

إلى آخر ما تصوره النظريات الطبيعية وعلى رأسها نظرية التطور التى اقترنت باسم دارون ووضع أساسها العالم الفرنسى لامارك .

فكان لامارك يعتقد أن البيئة هى الدافع الاساسى للتطور ولها المقام الاول وهى المسئولة عن تشكيل الجسم والاعضاء والصفات كما كان يعتقد بوجود قوة كامنة فى الكائن الحى هى المسئولة عن تطور الاعضاء وفقا لما تقتضيه البيئة ، فالزرافة مثلا طالت رقبتها لوجودها فى بيئة تتطلب منها مد رقبتها كثيراً

للحصول على حاجتها الغذائية . والرياضى تتوائم عضلاته مع التمرين ، والكسول تلين عضلاته مع الكسل .

ويختلف دوازون مع لامارك فى تفسير التطور فدارون يعتقد بالصدفة والانتخاب الطبيعى : بينما يرجع لا مارك كل شيء إلى البيئة ومقتضياتها . ورسالة داروين عن أصل الأنواع لم تتعرض لأصل الإنسان لكنها ألمحت إلى إمكانية الكشف عن أصل الإنسان وتاريخه من خلال نظريته التى تنتهى إلى أن الكائنات تنازعت البقاء وتواءمت مع حاجات هذا التنازع حتى بقى الاصلح وهو الذى استطاع أن يوائم نفسه للمقاومة ، مقاومة الطبيعة والمخلوقات الاخرى ، وفنى غيره ، وهو الذى لم يستطع المقاومة وهكذا علل دارون نشوء الانواع الجديدة من السلالات والمخلوقات بالتطور من الانواع القديمة .

وهذا ما جعل هاكسلى يرجع أصل الانسان إلى سلالة القرود ، ويؤيد هذا الاستنتاج كتاب دارون « أصل الانواع والانتخاب بالنسبة للجنس » إذ ينتهى دارون إلى أن الانسان تطور من نوع سابق له من الكائنات ، فاستدل هاكسلى على أن ذلك النوع هو القرود بمشابهة الهيكل العظمى للانسان لهياكل الحيوانات الاخرى ، وغير ذلك من أدلة على الصلة بين الانسان والحيوان .

وتبنى هذه النظرية وتحمس لها كثير من العلماء والفلاسفة ، وأضافوا إليها وطوروها ، واستخدموها فى التدليل على عدم وجود شيء وراء الطبيعة وأسندت عملية الخلق والتطور إلى الطبيعة ذاتها ، وكان « ماركس » أحد الذين استفادوا من هذا الاستنتاج ووضع فلسفته المادية الالحادية انطلاقا من هذا المبدأ . ووسع مضمونها فى التطور حتى طبقه على النظام الاجتماعى الانسانى

وتاريخ الإنسان السياسى . مكونا فلسفته الماركسية التى اشتهرت بالشيوعية أو بالاشتراكية العلمية .

ومن هنا كان الانسان فى نظرهم هو مصدر الدين ، فهو صانع الدين وخالقه ومبتدعه وهو الذى تدين بتصرفه وفكره دون أن يكون هناك قوى خارجة عن بيئة الانسان والانسانية ، أو بمعنى آخر دون أى تأثر بقوى خارج الطبيعة ، الطبيعة التى أعطيت فى نظرهم كل قدرة على الخلق والابداع والتدبير . حتى يقول قائلهم : (ما أسرع ماتصلح الطبيعة ما يحدث الإنسان فيها من عطب . إن جذ الإنسان شجرة وخلفها جذعا داميا . سارعت الطبيعة بنجدتها بكل مالها من فنون الكيمياء لتستر ذلك الجذع الابتر . فى رفق بثوب جديد ، وما تزال بها تضيف إليها اللفائف الخضراء حتى تعود آية تفتن عشاق الطبيعة من جديد . ويقول : (هذه الارض التى أطؤها بأقدامى ليست كتلة من جسد موات ، إنها جسد وروح ، إنها كائن حى ، إن للطبيعة أمعاءها ، إنها أم الانسانية . أبذر فيها البذور تترعرع نباتا . إن الطبيعة تبذل جهدها لتطعم الإنسان . . إنها تطعم العقل والجسم جميعاً ، فتغذو الخيال كما تغذوا الجسد . . إنها ليست جميلة فى عين الشاعر وحده وليس الرائع من آياتها غروب الشمس ، وقوس قزح وكفى ، بل لأنها تطعم وتلبس الثياب ، وتأوى إلى مأواك ، وتصطلى دفء المدفأة ، كل ذلك آيات روائع ، وبواعث على الالهام ، منك نشأت مفاصلى وعظامى . . أنا لك أيتها الشمس أخ شقيق ، وإلى هذا التراب سيعود جسدى جذلان فرحا . سيعود إلى حيث بدأ . إننى منك نشأت وإليك أعود[1] .

وهكذا يرفض أصحاب هذا الاتجاه ، صلة الانسان بقوة أعلى من

---

(١) قضية الالوهية بين الفلسفة والدين ص ١٨٩ نقلا عن حياة الفكر فى العالم الجديد ص ٩٣ .

الطبيعة أو البيئة الطبيعية التى تمده بكل الاخيلة والأفكار والمعتقدات . ويرون أن كل الاديان صنعها الانسان وصاغها تبعا لحاجته وظروفه وبيئته يقول هنرى برجسون : « والواقع أن الطبيعة وقد وهبت الانسان ملكة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه . . تلك هى الوظيفة الاسطورية أو الملكة الخرافية التى بمقتضاها يستطيع الانسان أن يخترع شخصيات خيالية وهذه الشخصيات قد تكون « أرواحاً » بادىء الأمر ، ثم تتحول إلى آلهة . . فيما بعد[1] » .

ومن هنا يذهب أصحاب هذا الاتجاه مذاهب شتى فى تفسير الباعث على تدين هذا الانسان والدفع له على اللجوء إلى دين :

ويمكننا إرجاع هذه المذاهب العديدة فى تفسير وتعليل الباعث على تدين الانسان ولجوئه إلى دين ، إلى الأتجاهات التالية .

١ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « خوف الانسان وقلقه » .

٢ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « الغريزه » بوجه عام .

٣ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « العقل أو التفكير » .

٤ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « ملكة خاصة » .

٥ — اتجاه يذهب إلى تفسير الباعث بـ « الحاجة الاجتماعية » .

وهذه الاتجاهات قد تتداخل وقد تجتمع بعضها مع بعض فى رأى واحد وقد تختلط حتى تبدو وكأنها اتجاه جديد .

وسنحاول جاهدين أن نكشف ذلك كله خلال تفصيل كل اتجاه من هذه الاتجاهات .

---

(١) المرجع السابق .

خوف الانسان وقلقه :

يعلل الأكثرون من ناقدى الاديان ظهور المعتقدات الدينية بخوف الانسان وقلقه ، نظراً لضعفه بين مظاهر الطبيعة وكائناتها .

فحين تنبهت حواس الانسان وقواه الفكرية فى هذا الوجود ، وكان فى ذلك الزمن البعيد كالطفل يجهل كل شىء حوله ، ولا يكاد يطمئن إلى شىء حتى يفزع من غيره ، فهو بطفولته هذه لا يرى الماء إلا هولا مفزعا ، ولا يعرف عن الشجر إلا أنه مارد مخيف ، فكيف به إذا وجد السحاب يتحرك من فوقه ، والمطر يتساقط على رأسه ، والبرق يلمع ويختفى ، والرعد يصوت فيهز بصوته الجبال ، والشمس تختفى أمام سحابة سوداء ، وتظهر فتمد أشعتها إلى كل الارجاء ، والقمر ينوب عنها فى أوقات دون أوقات .

وناهيك بالوحوش والحيوانات المختلفة الاشكال والالوان إذا تجاوزنا الحشرات والهوام .

كل هذه المخلوقات جعلت حركة الإنسان فى طفولته الانسانية الأولى — فى اعتقاد القائلين بأن الانسان مصدر الدين وصانعه — حركة الخائف القلق المضطرب الحذر . يتلمس فى كل خطوة خطرا ، و يتوقع فى كل لحظة شرا .

وحين يجد هذا المخلوق نفسه وسط هذا الخصم الممتلىء بالاخطار ، ماذا يفعل ؟ وهو الضعيف البادى الضعف لا يملك من الاسلحة المادية شيئاً على الاطلاق ..

لم يكن أمام هذا المخلوق إلا أن يعود إلى نفسه يعتصر قواها ، ويستنهض ملكاتها ، علها تنقذه من همه وفزعه — هكذا يقولون — .

ولم تزده نفسه إلا هما على همه وفزعا على فزعه . فخرج بنفسه وذهب يطلب النجاة والأمن من قـوة أعظم من قوته ، وأقدر على تحقيق الطمأنينة له .

ومن هنا وتحت تأثير الخـوف والرهبة من مظاهر الطبيعة وكائناتها إذن ، انبعث ولاه الانسان لقوى أو كائنات خافها أو ظنها قادرة على دفع الخوف والرهبة من نفسه فحرص على التقرب لها ليتقى شرها ويضمن نفعها ، ويستدر عطفها عليه فأصبحت جميع قوى الطبيعة وكائناتها آلهة تعبد ، ماينفع عبده الانسان البدائى ليضمن نفعه ، وما يؤذى عبده ليأمن أذاه ويتقى شره وهذا ما يقرره الأكثرون من ناقدى الأديان(١) ومنهم جيفونس Jevons (٢) وكيرك جـورد الذى يقـول : إذا حذفتهم القلـق من ضمير الانسانية تستطيعون أن تغلقوا الكنائس وتجعلوها قاعات رقص(٣)

« الغريزة »

كذلك يعلل بعض المحللين والناقدين للأديان ظهور المعتقدات الدينية فى حياة الانسان منذ بداية وجوده على الأرض، بالغريزة بوجه عام ، فيدخلون الخوف كغريزة ويعبرونه إلى القول بغريزة أخرى هى الباعث الحقيقى على التدين وهى نفسها تسمى غريزة « التدين » باعتبارها من الغرائز الأولى المتمكنة فى كل نفس إنسانية حتى الملاحدة يدافعون عن إلحادهم كما لو كان الإلحاد دينا متمكنا يسيطر على عقولهم وقلوبهم يتعبدون من خلاله الطبيعة ويرونها الإله المعصوم ، والخالق المبدع .

---

(١) العقاد فى مؤلفه « الله » ١٢ كتاب الهلال .
(٢) الطوطمية على عبد الواحد ص ١٠٠ المعارف .
(٣) الصراع فى الوجود بولس سلامة ص ١٧٢ .

وعن هذه الغريزة كان « الدين » ظاهرة عامة فى المجتمعات البشرية طوال التاريخ الإنسانى . يدفع الفرد إلى البحث عن القوة العليا المدبرة لهذا الكون وعبادتها مباشرة أو بالواسطة .

أى أن الفطرة تهتدى بنفسها وخلقتها الطبيعية إلى دين ، وأن الدين يتوافق مع الطبائع الانسانيه ويرضيها .

ومع أن هذا الاتجاه فى تفسير الباعث على الدين والتدين لا يتضح فى كثير من آراء المحللين والنقاد إلا أنه يوجد ما يشير إليه كقول برجسون (بيد أن الطبيعة هى التى أرادت العقل الذى من شأنه أن يعمل لمصلحة الفرد ، كما أرادت الغريزة التى من شأنها أن تندمج فى الجماعة (يرى برجسون أن الانسان مدنى بطبعه) قد تكفلت من تلقاء نفسها بإعادة ذلك النظام الطبيعى الذى قد يخل به العقل بنزعته الفردية ، وسبيلها أى الغريزة — هو تلك الخرافات والأساطير التى يتميز بها الدين »(١) ورأى فرويد الذى يخلط الدين بالغريزة الجنسية ، ويفسر حب الإله بحالة التسامى فى الحب الجنسى معتمداً فى تفسيره على حالات مرضية لا تصلح للتعميم .

وهذا الاتجاه يقل أنصاره ، لأن تفسير التدين به يحتاج إلى تفسير . فاعتماد الغرائز كدوافع السلوك الانسانى بوجه عام لايزال محل جدل كبير ، ولا يمكن اعتمادها ـ أى الغرائز ـ دوافع للسلوك الدينى بوجه خاص وهى على هذا الحال من الغموض .

« العقل الانسانى » :

وكما يعلل الباعث على الدين والتدين بالخوف أو بغريزة التدين ، أو

---

(٢) قضية الالوهية بين الفلسفة والدين عبد الكريم الخطيب ص ١٣ نقلا عن برجسون ص ٢٠٠

بالغريزة الاجتماعية - على القول بأن الإنسان مدنى بطبعه - أو بالغريزة الجنسية فهناك اتجاه يخرج من حيز الغرائز تماماً إلى حيز الميزة الأساسية التى يتميز بها الانسان عن كافة الكائنات الأخرى وهى « العقل » .

يقول العقاد فى كتابه « الله » (ومن يسمع لهم رأى راجح فى مباحث العقيدة إمام علماء اللغات المحدثين « ماكس موللر » صاحب الرأى المعدود فى اشتقاق اللغات ومعانى الأساطير وعلاقتها بالعقائد والعبادات ، فهو يؤمن بأن « البصيرة » أى الوعى أو العقل ومواهبه هبة عريقة فى الانسان وأننا - كما قال فى كلامه على مقارنة الأساطير - « مهما نرجع بخطوات الانسان إلى الوراء لن يفوتنا أن نتبين أن منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه منذ أوائل عهده ، وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية ، إنما هو قول لن يقوم عليه دليل » .

ومصداقا لهذا الرأى - كما يقول العقاد - يرجح « موللر » أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده لأنه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء ، وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه فى الكون ، وهو الشمس التى تملأ الفضاء بالضياء ، فهى محور الأساطير والعقائد كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات (١) .

فالعقل فى عرف هذا الاتجاه هو الذى أخذ صاحبه بعد حيرة شديدة وتخبط أشد إلى خيالات ماوراء الحس ، وأوهام ماوراء الطبيعة ، ومن هذه الأوهام والخيالات أقام عالماً من الأساطير والعقائد كانت بداية التدين وبعثاً له فى حياة البشر ، وقد اضطر العقل إلى ذلك ، فى وقت لم يكن الإنسان فيه إلا طفلا يبحث عن شىء يعوضه عن جهله بحقائق الأشياء حوله .

---

(١) الله ١٧ ، ١٨ .

وهذا الوجود الذى كان كل شىء فيه عند الأولين محملا بالأشباح والأرواح التى أثارت عقل الإنسان وفكره ، وجعلت هذا العقل يأوى إلى هذه الأشباح والأرواح ، هذا الوجود ظل يتجلى للعقل الإنسانى ويظهر له شيئاً فشيئاً ومع كل مرحلة من مراحل هذا التجلى والظهور كان العقل يغير ويطور عبادته ومعبوداته ، حتى لم تعد مهمة العقل أمام هذا الوجود استرضاء الكائنات وتعبدها ، وإنما تحولت هذه المهمة إلى محاولة لفهم هذا الوجود والكشف عن القوانين التى تحكم جزئياته وكلياته والوظائف التى تؤديها الجزئيات والكليات .

إلا أن الإله والدين والتدين قد استقر ذلك كله فى التفكير الإنسانى خلال احتكاكه بالطبيعة وبحثه المجرد وأصبح من العسير أن تتخلى الإنسانية عن اعتقاداتها التى اكتسبتها طوال تاريخها وتوارثتها وامتزجت بحياتها ووجدانها .

وكان طبيعياً ألا تظهر العقائد لدى الناس جميعاً على درجة واحدة لاختلاف العقول والأفكار .

وقد ذهب كثير من الفلاسفة مذاهب شتى فى تفسير الصلة بين العقل والطبيعة ، « فديكارت » مثلا يرى أن القضايا التى توحى بها شهادة الحواس قابلة للشك وحجته فى ذلك أن ثمة أحلاماً تراها ، وأوهاماً نتصورها فنجد أثناءها أننا نعتقد اعتقاداً جازماً فى وجود بعض الأشياء مع أنها مجرد أحلام وخيالات .

وقد جاء بروكلى على أثره فنزع منزعه فى الشك فى شهادة الحواس وأنكر كل الحقول التى تعمل فيها حواسنا ، وساغ له أن يقول : « إن المادة لا وجود لها فى الخارج ، وإنما يخيل إلينا أنها موجودة ، ولا وجود إلا للروح والعقل .

ولا فرق بين ما نسميه شيئاً حقيقياً ، وبين آرائنا فى الشىء وتصوراته بل العقل يتصور شيئاً ، وفى الوقت نفسه يقع الشىء نفسه ، وليس هناك شىء خارج العقل .

فكل ماحولنا من مواد وأشياء وما نأكله ونشربه ونلبسه وغير ذلك فى تقديره وهم وخداع وأضغاث أحلام .

وكل شىء نراه لايعد وأن يكون من تصورات العقل وخيالاته وصناعته وليست الآراء والأفكار خيالات باطلة ، بل هى الموجودات الحقيقية التى لاتقبل التغير أما الأشياء الخارجية عن الأفكار والخيالات أى المحسوسات فلا ثبات لها . وهكذا تتحول المادة إلى وهم وخيال ، وتتحول الأفكار والخيالات إلى حقائق . فى نظر ديكارت وبروكلى وغيرهما .

ولكن كارل ماركس زعيم الفلسفة المادية فى العصر الحديث يقرر أن الطبيعة هى التى ولدت الفكر وصنعته وأبرزت وجوده ، وأن النتاج الفكرى والمادى انعكاس للطبيعيات على الفكر ، فكان المخ الآدمى بمثابة المرآة تنعكس عليها ماديات الحياة ، وتتفاعل « أى الماديات » مع هذا المخ فينتج من هذا التفاعل انتاج عقلى فكرى كالأدب والموسيقى ومادى كالصناعات والاختراعات فليس العقل شيئاً زائدا عن المادة أنما هو قطعة من اللحم فيها خاصيات التفاعل والحركة شانها شأن أى شىء مادى ، هذا التفاعل الذاتى هو الذى يتولد عنه كل النتاج الفكرى والمادى فى الحياة الإنسانية ، والدين من بين هذا النتاج ، عائد طبيعى من التفاعل بين البيئة الطبيعية المادية وقطعة اللحم المسماة (المخ) .

« الملكة الخاصة » :

يبدو أن تعليل وجود الدين فى حياة البشرية جميعها منذ وجود الحياة

الانسانية على الأرض حتى الآن يبدو أن تعليل ذلك بالخوف وبالغريزة وبالعقل كل هذه التعللات لم تحمل الاجابة الشافية لسر وجود التدين والدين لأن التعليل بشيء من ذلك أو بكل ذلك لم يقنع العقل الانسانى بل لم يستند إلى دليل علمى يقنع هذا العقل ، فى الوقت الذى يدعى فيه أصحاب هـذا الاتجاه أنهم يتبعون المنهج العلمى ، فكل دعوى تصطدم بحلقة مفقودة فى سلسلة تتبعها للصلة بين الدين والإنسان . تكون هذه الحلقة دافعاً إلى التخمين والافتراض ، مما لا يكفى لإقناع العقل العلمى .

وكان طبيعياً أن يبحث العقل العلمى عن إجابة أخرى ، فكان القول بوجود ملكة خاصة وهبت للإنسان وكانت وظيفتها جر الإنسان إلى التدين وهذه الملكة الخاصة فى رأى تايلور Tylor هى ملكة الاستحياء Animism أى إضفاء الحيـاة على الجمادات والأموات « وهى أصل الاعتقاد بالأرباب ، فالطفل يضرب الكرسى إذا أوقعه ، كما يضرب الإنسان والحيوان ، وتايلور يعتقد أن الإنسان الأول كان كالطفل فى تخيله للأشياء وتمثله لها فى صور الأحياء .

ويسبق « هربرت سبنسر » هـذا التفسير بتفسير يوافقه فى ظواهر الاستحياء ولا يوافقه فى تعليل الاستحياء .

فالإنسان الأول على رأى سبنسر كان يؤمن بحياة الأرباب - أى يضفى عليها صفة الحياة حتى لو كانت ميتة لأن عبادة الأسلاف هى أقدم العبادات . وكان يرى - أى الإنسان الأول - الأطياف فى المنام فيحسب أنها باقية ترجى وتخشى حتى بعد موتها ، وأنها تتقاضاه فروضاً لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم بقيد الحياة » (١)

---

(١) العقاد فى مؤلفه الله ص ١١ ، ٢٢ طبعة الهلال .

بينما يذهب « برجسون » إلى أن هذه الملكة الخاصة يمتاز بها آحاد من ذوى البصيرة والعبقرية الموهوبة ، وقد توجد لدى المجتمع كحيلة نوعية يلجأ إليها خيال النوع الانسانى لكبح الاثرة الفردية ، وإقناع الانسان بنسيان مصالحه فى سبيل المصالح الكبرى التى تتعلق بها حياة النوع فى جميع الأجيال ـ كما سيجىء ـ .

ويسمى « برجسون » هذه الحاسة بالألهام أو الكشف الذى يصل بينه وبين قوة الخلق أو دفعة الحياة .

وقد تطورت دفعة الحياة هذه فى ذهن « برجسون » حتى أصبحت فى كتبه الأخيرة « ذاتا » إلهية تغير ولا تتغير ، ولكنها كونية غير منفصلة عن هذه الموجودات وهى تتجلى على أكملها وأوضحها فى بديهة النخبة المختارين من كبار العباقرة الروحانيين .

وهكذا كانت الملكة الخاصة فى نظر بعض العلماء باعثا على التدين سواء سميت بالالهام أو بالكشف أو بالملكة الدينية أو بالحدس أو بغير ذلك .

« الحاجة الاجتماعية » :

كما فسر « برجسون » الباعث على التدين بملكة « الحدس » أى الالهام والكشف . تلك الملكة التى يتمتع بها أفراد قلائل يمثلون أفذاذ أقوامهم فكذلك فسر الباعث على وجود الدين فى كل مجتمع إنسانى بأن الطبيعة عندما وهبت الملكة الخاصة للأفذاذ من الناس ، قصدت إلى تحقيق حاجة إجتماعية هامة هى إقامة التوازن بين مصلحة الفرد وحاجة الجماعة ، فكان « الحدس » مولدا للنزعة الدينية لدى الفرد الذى يقود الجماعة ويؤثر فيها ، وبالتالى يصير الباعث على وجود الدين مشتركا فى نفس الفرد وحياة

الجماعة وكان الدين عندئذ من أجل الفرد والجماعة ، فالدافع إليه إذا كان قد تولد فى قلب فرد أو أفراد يكون فى الحقيقة هو الحاجة الاجتماعية ، وإذا كانت الجماعة قد قبلت هذه النزعة ، فلا ريب أن حاجتها كانت من وراء هذا القبول وباعثا قوياً على ذلك .

من هنا جعل « برجسون » إلى الطبيعة خلق النزعة الدينية عند الانسان لارضاء الحاجة الاجتماعية ، من حيث تتولد فى خيال الفرد الأساطير والخرافات ، التى تتطور فتصبح أربابا وآلهة وعبادات ومعبودات تحمل الوصايا والتعاليم ، تؤدى إلى التوفيق بين نزعات الفردية وحاجة الجماعة .

فكأن الذى استحث الفرد وبعث فيه نزعة التدين بما توحى به من صور العبادات والمعبوادت كان شيئاً فى نفسه هو الملكة الخاصة التى وجدت لدى أفذاذ الناس أو الأمم ، وإن كان الذى حرك هذه الملكة على العمل هو رغبته فى قيادة الجماعة إلى خيرها وسعادتها ، فإن الذى حرك الجماعة نفسها إلى الأخذ بالتعاليم والوصايا عبادات كانت أو تفكرات ، هو حاجة الجماعة إلى هذه التعاليم والوصايا الدينية .

ويبدو أن الباعث هنا اشترك فيه الفرد بموهبته الخاصة واشتركت فيه الجماعة بحاجتها . كما يقرر « هنرى برجسون » .

(فالحاسة الدينية الاجتماعية — كما يرى برجسون — حيلة نوعية يلجأ إليها خيال النوع الإنسانى ليكبح الأثرة الفردية وإقناع الإنسان بنسيان مصالحه فى سبيل المصالح الكبرى التى تتعلق بها حياة النوع فى جميع الأجيال ، فإن الإنسان لو استوحى عقله وحده خدم نفسه وأطاع لذته ، ولم يحمل الألم ولا الخسارة من أجل أبناء نوعه ، ولما كانت إرادة الحياة مستكنة فى النوع كما هى مستكنة فى آحاده على انفراد ، نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها « برجسون » بملكة الخرافة الرمزية أو

ملكة الأساطير . وتكفلت للإنسان بخلق الغرض الذى يستعيض به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه ، فاعتقد الجزاء بعد الحياة ، وأحس أنه محاسب على الاضرار بغيره ، مثاب على الخير الذى يسديه إلى أبناء نوعه ، واقترنت فيه أثرة الفرد بأثرة النوع ، فاستقامت على التوزان بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين) [1] ويرى « دوركايم » أن النظام الطوطمى — وهو أقدم نظام للتقديس والعبادات — قد انبعث من تلقاء نفسه من العقل الجمعى ، وأنه حقق فوائد اجتماعية ذات بال فالحياة الاجتماعية لاتستقيم إلا إذا كان المجتمع ونظمه وأوامره ونواهيه موضع تقديس الأفراد وإجلالهم ، والنظام الطوطمى كان وسيلة لتمرين الافراد وترويضهم على هذا التقديس والاجلال لتقوى آصرة ارتباطهم بمجتمعهم ويسلس قيادهم للحياة الاجتماعية وما تفرضه من نظم وقواعد فكان المجتمع نفسه أول إله عبده بنو الانسان فى نظر « دوركايم » ،

إلى هنا نكون قد عرضنا أهم الآراء التى تفسر الباعث على تدين الانسان وعلى وجود الدين فى حياة البشرية منذ نشأتها : بعد أن عرضنا لأهم الآراء حول نشأة الدين ، ومصدره ، وملخص هذه الآراء :

نشأ الدين مع وجود الانسان على الارض سواء بعد ما هبط من الجنة مباشرة كما ترى الكتب المقدسة للأديان الثلاثة ، اليهودية والمسيحية والإسلام .

أو بعدما اكتملت آدميته خلال مرحلة طويلة من التطور والارتقاء كما يرى أكثر ناقدى الأديان .

أو بعد ماتكون أول مجتمع إنسانى كما يرى « برجسون » و « دوركايم »
أما مصدر الدين : فلا تعدو الآراء فيه أحد اتجاهين :

---

(١) العقاد فى مؤلفه « الله » ص ١٥ ، ١٦

الأول : أن مصدر الدين قوة عليا من وراء الطبيعة ، وهذا رأى العلماء المؤمنين بأديان سماوية . خاصة علماء اليهودية والمسيحية والإسلام .

الثانى : أن مصدر التدين هو الإنسان نفسه ، وهو رأى العلماء الذين ينكرون الألوهية ، ويرفضون ماوراء الطبيعة والمادة ويرون أن الإنسان نشأ على الأرض وكان تطورا وارتقاءاً طبيعياً للخلية الأولى التى إنتهت إلى فقاريات راقية كالقرود والنسانيس ثم الإنسان .

أما الباعث على تدين الإنسان وعلى وجود الدين فى حياته فكان أمراً من الأمور الآتية :

١ — خوف الإنسان وقلقه فى وقت كان فيه كالطفل يجهل طبائع الأشياء من حوله ، فكان يرهبها ، لهذا امتلأ عالمه بالآلهة من كل شىء كواكب أو أشجاراً أو أنهارا أو صخورا أو جبالا ، أو وحوشا أو حشرات .

٢ — غريزة الإنسان الشاملة للخوف والجنس والحب والتملك وغير ذلك .

٣ — عقل الإنسان بمواهبه وتأملاته وأفكاره .

٤ — ملكة خاصة اسمها « الحدس » أو الالهام ، أو الكشف أو ملكة التدين .

٥ - الحاجة الإجتماعية التى تضطر المجتمع إلى الالتزام بنظم وقواعد تتعارض كثيرا مع أهواء الأفراد ورغباتهم ، ولا يلزم الأفراد بها إلا تصور صاحبها إلهاً ومعبودا قادرا على إثابة المطيع ومعاقبة العاصى .

هذه آراء غير المؤمنين بأديان سماوية فى تفسير الباعث على الدين ، أما المؤمنون بأديان سماوية ، فيرجعون الباعث على تدين الإنسان بالنزعة الفطرية إلى القوة العليا وشعور الإنسان الفطرى بضرورة هذه الصلة بينه

وبين هذه القوة ، والآن جاء دور مناقشة كل هذه الآراء والأفكار . بعد ما تجمعت وقدمت بصورة بعيدة عن الهجوم أو التأييد ، فكانت بمثابة عناصر أساسية نرى من معالجتها بالتحليل والنقد والمناقشة أو بالحوار العلمى المستقيم ، إن كانت حقائق أو أباطيل أو أن كانت قادرة على وضع أيدينا على الحقائق أو على بعضها .

مناقشة الآراء فى نشأة الدين ومصدره والباعث عليه :

عرفنا مما سبق الآراء فى نشأة الدين :ـ أن الدين نشأ مع وجود الإنسان وبمجرد هبوطه من الجنة فى رأى الكتب المقدسة لليهود والمسيحين والمسلمين ، من حيث كانت الصلة بين الإنسان (آدم) وبين القوة العليا (الإله) عن طريق الوحى .

أو أنه أى الدين ـ وجد بمجرد تنبه الإنسان بعد مروره بمراحل الترقى والتطور أى بعد وصوله إلى كماله الآدمى المميز فى نظر معظم القائلين بأن الإنسان مصـــدر الدين وأنه أى الانسان نشأ على الأرض بفعل الطبيعة ونتيجة للتطور الذاتى للخلية . فلجأ إلى تعبد بعض مظاهر الطبيعة ظناً منه أنها قوى تنفع وتضر .

وهذان الرأيان يتفقان فى أن الدين وجد مع الإنسان الأول سواء جاء من الجنة ـ على الرأى الأول ـ أو جاء من الطبيعة ـ على الرأى الثانى ـ فهل هذه هى الحقيقة ؟ وماهو الدليل عليها ؟

تدلل الأديان السماوية عـلى صحة اتجاهها جملة : بأنا لإله القادر المحيط العليم الخبير هو الذى أخبرنا بهذا الخبر على لسان رسل صادقين ووقعت على أيديهم معجزات خارقة للعادة والقوانين الطبيعية . كانت بمثابة تأييد لصدقهم ، ومن هنا جاء العلماء المؤمنون بدين سماوى من هذه الأديان أو بكلها يحاولون

إبطال الآراء المضادة عن طريق شد الناس إلى المعجزة التى ظهرت وانتهت أو عن طريق شد انتباههم إلى النظر فى الكون، والتأمل فى صنعته، ليأخذوا الدليل على وجود الصانع الخالق، ثم ينتقلون بالناس إلى نظريات دينهم يطالبونهم بتصديقها ترتيبا على تصديقهم بالمعجزة التى لادليل عليها غير النظرية المكتوبة. أو تصديقهم بوجود الإله الخالق لهذا الكون، بينما جاء آخرون يطالبون أتباع الأديان أن يعتقدوا دون بحث أو نظر، قائلين لطالب النصيحة: (اعتقد وأنت أعمى).

وينفرد الإسلام — كدين سماوى — بدليل حى لم تعبث به يد المحرفين، ولا يزال دليل الأديان كلها على صدق دعوى نشأة الدين مع وجود أول إنسان على هذه الأرض وهو «آدم».

فقد قدم القرآن قضية هبوط آدم من الجنة، وتلقيه الوحى، وعبادته للخالق فى صورة لاتناقض العلم ولا تتنافى مع العقل، بل هى أدعى إلى الاستناد إليهما وتحكيمهما، لا للتدليل على صحة القضية، بل لتأكيد إيمان المؤمنين وتثبيته، فطالما كان العالم المحيط الخبير هو صاحب الخبر فأنى للآخر أن يطاولوا علمه، وأنى للجاهل بنفسه أن يعلم خبر السموات والأرض، فكيف بهم يمتحنون حديثه وهم أدنى وأقل من هذا الموقف بكثير.

ومع هذا تطرح القضية أمام العقول والعلوم، ولا تقول لأحد (اعتقد وأنت أعمى) إنما تعلم المؤمنين أن يقولوا كما قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى. قال أو لم تؤمن، قال بلى. ولكن ليطمئن قلبى...» فهل يستطيع العلم البشرى أن يقول الكلمة الصادقة الحاسمة فى هذا الشأن ؟.

إلى أين وصل العــــلم ؟

يقول «هجو ويلز» فى الفصل الحادى عشر من كتابه «موجز تاريخ العالم»

(إن أقدم ما يعرفه العلم فى زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لايتطرق الشك إلى قرابتهم لذوات أنفسنا ، عثر عليه فى أوربا الغربية وخاصة فرنسا وأسبانيا ، فقد اكتشفت فى كل من هذين القطرين عظام وأسلحة وخدوش على العظام والصخر وقطع من العظم المحفورة ، ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور ، ترجع فيما يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر ، وأسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين .

ومن البديهى أن مالدينا فى الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأشياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمعه مستقبلا ، يوم يتواجد العدد الكافى من المنقبين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة ويوم يتاح لعلماء الآثار ارتياد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها ، فيفحصونها فى شىء من التفصيل ، فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من أفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب يهتم بهذه الأمور . . وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرص الحرص كله من أن نستنتج أن الانسان الحق الاول امتازت به أوربا أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة (١) .

ويقول : فى الفصل الثانى عشر : لنطلق الآن لافكارنا العنان لتجول فى عالم الخيال بضع جولات ممتعة ، فكيف كان الانسان الاول يشعر بإنسانيته فى تلك الايام الاولى للمغامرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون ، وفيم كانوا يفكرون فى تلك الايام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سلفت ، وقبل ابتداء أوان البذر والحصول ؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب يدون الانطباعات والافكار الانسانية ،

---

(١) موجز تاريخ العالم ص : ٤١

لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرهما فى إجابتنا عن هذه الاسئلة) .

وغنى عن البيان أن المصادر التى لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقلية البدائية ، وإعادة تركيب أجزائها معا ، منوعة جدا ، ففى العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسى قد ألقى قدراً عظيماً من الضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأسلوبه الذى يتفحص الطريقة التى بها تكيف الدوافع الانانية والعاطفية فى الطفل ، أو تعدل ، أو تغطى بأشياء أخر . حتى يتيسر تكييفها وفق حاجات الحياة الاجتماعيه ، وثمة مصدر آخر للاستنتاج دانى القطوف . هو دراسة فكرات وعادات المتوحشين الذين لايزالون يعيشون فى هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التخلف والجمود العقلى فى الفولكلور (الادب الشعبى) وفى الخزعبلات والتخيلات غير المعقولة العميقة الرسوخ فى النفوس ، والتى لاتزال موجودة بين الشعوب العصرية المتمدنة ، ثم إن لنا فى تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أشبهها ، مما يكثر عددا ، ويتزايد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن . لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقا له ، وجديراً بالتسجيل والتمثيل [1] .

هذا هو الطريق الذى أتبعه الدارسون والباحثون ، وهذه هى علومهم بشأن الانسان الاول . وهذه هى نتائج العلم البشرى .

الطريق غير واضح ، ووسائل العلوم غير مضمونة ، أو غير كافية ، والنتيجة الخيال والتخمين ، كما هو واضح فأين العلم ؟ العلم بمعنى اليقين والحقيقة ! !

لايوجد علم إذن من لدن إنسان حتى الآن ، لانه لم يوجد الإنسان الذى

---

(١) المصدر السابق ص : ٤٥ ، ٤٦

يجوب الأرض ويمتحن آثارها ويستخرج تاريخها ، ويستنطق أحداثها ، ليقول حقيقة حاسمة عن الانسان .

ولن يوجد العلم بمعنى اليقين والحقيقة إلا إذا توفرت للإنسان كل هذه الوسائل وكان الانسان نفسه قادرا على استيعاب هذه العلوم محيطا بها .

وحتى ذلك الحين تبقى كلمات الإنسان عن الإنسان الاول مجرد خيالات وتخمينات لاصلة لها بالعلم .

فأين إذن يكون العلم : لابد من لدن خبير عليم محيط توفرت له وسائل العلم والإحاطه والخبرة ، فهل نجده ؟ .

قضية الإنسان الاول مع الوحي :

القرآن وهو المرجع المعتمد فى الكتب الثلاثة التى تنسب إلى السماء لأنه آخرها ولأنه ثبت عدم تعرضه للتحريف ولأنه دون فى عصر الرسالة بعكس الكتب الأخرى : ولأنه يعترف بالاديان الثلاثة ولا ينكر واحدا منها ، يقول القرآن بشأن الإنسان الاول والوحى فى حوار بين الاله وملائكته «وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (١) (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا) (٢) .

(إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) (٣) وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن

---

(١) سورة الحجرات آية ٢٨ ، ٢٩
(٢) الفرقان آية ٥٤
(٣) ص : آية ٧١ ٧٢

نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم مالا تعلمون) (١) (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب (٢) .

هذه الآيات تقرر أن الصلة بين الإنسان الأول وبين القوة العليا بدأت منذ اللحظة التي تقرر فيها أن يعمر الارض كائن جديد غير الكائنات الأخرى كلها ، كائن صنع على نحو خاص . وتهيأ لهذه المهمة الارضية ، لكنه حتى ينجح فى مهمته كان لابد أن يمر بمرحلة يتعرف فيها على نفسه ، وكينونته وصلة هذه النفس وهذه الكينونة ، بما حولها وماسوف يواجهانه من بيئة وظروف .

لقد خلق الإنسان من مواد أرضية بينها الخالق فى قوله (من تراب ثم ، من ماء ، ثم ، من طين ، ثم من صلصال من حمأ مسنون) وهى كلها مواد متصلة الماء والتراب والطين والصلصال ، ويكاد يكون استنتاج المنكرين للألوهية ، المؤمنين بنظرية التطور والارتقاء قد انتهى إلى شيء قريب من هذه الحقيقة عن طريق العلم التجريبي الذى حلل مكونات الإنسان ، وعلم أنها لاتعدو الماء والتراب أى الطين الذى يجف فيصبح صلصالا فإذا جف أكثر ، أصبح فخارا ، أو صلصالا من حمأ مسنون لقد قالوا أن الانسان نشأ فى مكان رطب من خلية تفاعلت مع الطين الرطب أو الماء إلى آخر هذه الآراء ، وهذا لايعد تأييداً منا لنظرية التطور ولاتأييدا للقرآن بنظرية التطور ، إنما هو بيان لإمكان العلم أن يصل إلى بعض الحقائق التى سبقه إليها القرآن لا كل الحقائق .

المهم أن الدين نشأ مع الانسان كوسيلة تعينه على التكيف مع نفسه وكينونته الجديده ومع ماحوله من كائنات وبيئات وظروف ومادام قد خلق من مواد

---

(١) البقرة آية ٣٠
(٢) آل عمران : ٥٩

أرضية ، ونفخ فيه من روح الخالق حتى يتميز عن بقية المخلوقات الأخرى الأرضية ، كان لابد أن نفهم أن الشيء الذى كان من روح الخالق هو الشيء الذى يميزه عن بقية الكائنات ـ وهو القلب الذى يعقل ـ فكل ما احتواه الجسد الانسانى أرضى ، ومن بين هذه المحتويات الغريزة ، وقد خلقه الخالق فسواه ، وأصبح بهيئته العامة الظاهرة ، جسم إنسان لكن الملائكة أمرت بأن تسجد له بعد أن ينفخ فيه من روح الله (فإذا سويته ـ أى أكملت بناءه المادى ـ ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) أى أعطيته ميزته التى لم تعط لكائن آخر غيره ، وهى نفخة من روح الله ـ أى القلب أو الفؤاد الذى يعقل ، فقعوا له ساجدين ، أى أعلنوا الولاء والطاعة بالسجود له ، فالسجود لم يكن إلا لما تميز به الانسان من روح الله ، وهو القلب أو الفؤاد . الذى ملك بروح من الله قدرات عديدة وهائلة كالعقل والفهم .

وفى اعتقادى أن هذا السجود كان تكريماً لميزة الإنسان وهى العقل وكان أيضا إعلانا لإمكانيات هذا العقل وقدراته : فسجود الملائكة له رمز لما تهيأ لهذا العقل من إمكانيات تصل به إلى حد إمكان خضوع قوى الكون كلها لهذا العقل . فإذا كانت ملائكة الله أعلنت سجودها وخضوعها ماعدا إبليس ، فإن قوى الكون كلها تصبح مطأطأة الرأس أمام ملكات وقدرات الإنسان القلبية العقلية ، والطريق إلى ذلك هو العلم كما تبين الآيات التالية لآية خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود (وسنشرح ذلك فى مكان آخر من هذا الكتاب) إن شاء الله .

فقد بين الخالق عطاياه للإنسان وكيف وصلت إلى تسخير كل شيء فى هذا الكون من أجله وإلى قدرته التى منحت له بنفخة من روح الله لو استخدمها هيأت له الوصول إلى كل شيء حتى الملأ الأعلى ، وقد اهتدى الإنسان الأول بفطرته هذه التى فطر عليها ، إلى معرفة الخالق من خلال بيان

القرآن وأدلته تنتهى إلى أن الدين نشأ مع وجود آدم كإنسان أعد ليعمر الأرض ويسخرها ، وكان هذا الاعداد بالعقل وبالدين وكان إعداداً كافياً ، حيث عرف نفسه وكينونته وقدراته ، وطبيعة الأشياء من حوله ، ويحسن بنا أن نوفى هذا الموضوع بيانه استطراداً ، ثم نعود لموضوعنا الأصلى .

استطراد فى بيان أصل الإنسان وكيف واجه الحياة :

خلق الإنسان من الماء والتراب أى من الطين الذى جف فأصبح فخاراً أو صلصالا .

خلقه الله بقدرته ، وهيأه لعمارة الأرض ، فلاخلاف بيننا وبين القائلين بالتطور سوى إنكارهم للخالق ، وإسنادهم عملية الخلق إلى الطبيعة التى كان عليها أن تمرر الخلية بمراحل عديدة وطويلة حتى يصبح مخلوقاً عاقلا.

أما الإله القادر الذى أوجد الطبيعة كلها ، فكان غير محتاج لكل هذه المراحل ، ودليل القائلين بالتطور والارتقاء، لا يعدو الوسائل الغير كافية لاستنتاج حقيقة علمية ، فيصبح قولهم استنتاجاً نظرياً من مقدمات لم تتأكد صحتها بعد ، أو تخمينا لاصلة له بالعلم .

أما دليل الدين فهو هذا الكتاب — القرآن — وما تضمنه من علامات علمية يقينية لاريب فيها ، لأن القائل بها تهيأت له وسائل المنهج العلمى الصحيح ، وهو الخبير بها ولا ينبىء أحد فى موضوع مثل الخبير به .

وهو يقدم هذه العلوم ويتحدى العالم كله أن يقدموا دليلا على بطلان شىء منها ، ولم يبطل شىء منها حتى الآن ، فأى المرتبتين أقرب إلى الحقيقة . التخمين الذى اعتمد على بعض وسائل غير واضحة وغير كافية للوصول إلى حقائق علمية ، أم النتيجة التى اعتمدت على وسائل المنهج العلمى كاملة ،

ولا تحتاج من المنكرين إلا إلى افتراض صدقها على الأقل والبحث عما يوصلهم إلى اليقين بالدراسة الجادة ، لاريب أن المرتبة الثانية هى الأقرب إلى الحقيقة وهذه هى الأدلة التى تقود إلى اليقين :

١ ـ لم يكتف القرآن ببيان أصل الإنسان وأنه نشأ من طين ، بل ذهب يبين كيف تهيأ هذا المخلوق لعمارة الأرض ، وكيف تكيف مع ما حوله وهو الضعيف العاجز ، فبين أن الخالق جهزه لهذه المهمة فى تكوينه ، وخلقه وحده دون بقية الكائنات على نحو خاص : ولم يتركه للصدفة ، ولا للطبيعة والتطور الطبيعى : فأعطاه القلب الذى يعقل به ، ويدرك ويفهم ويتطور ، ويطور ، عن طريق العلم والتعليم . منذ الوهلة الأولى لنشأته .

كما أمده بالعلم حيث لا معلم غير الخالق فى ذلك الوقت . فعلمه بالنظرية وبالتجربة ، علمه بالنظرية عن نفسه أن طبيعته تحمل الاتجاهين اتجاه الخير واتجاه الشر ، (وهديناه النجدين) وأن اتباع دعوة الخير توصله إلى الراحة والسعادة واتباع دعوة الشر توصله إلى الجوع والعرى والخوف والشقاء ، (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) ، وعلمه بالنظرية أيضاً ـ الكثير عن ما حوله وبين له أن مصدر دعوة الخير هو الوحى واتباع ما يأمر به الخالق والانتهاء عما ينهى عنه ، وأن مصدر دعوة الشر هو إبليس الذى يأمر بعصيان الخالق .

وأن العلم هو وسيلة الإنسان فى الدنيا كى يسود الأرض ويسخر كائناتها وعلمه بالتجربة عن نفسه وعما حوله كل تلك الحقائق :

حين عصى فأكل من الشجرة التى نهاه المولى عن الأكل منها فتبين نفسه وهواها ، كما تبين طبيعة أوامر الخالق ، وطبيعة أوامر الشيطان بالتجربة ، وعرف الخوف وكيف يتغلب عليه ، وعرف القلق ، وعرف العرى وكيف يتغلب عليه . وعرف الجوع وكيف يرضيه ومن أى الأشجار

يرضى جوعه (وعلم آدم الأسماء كلها) عرف كل شيء يمكنه من معايشة الكائنات الأرضية ، وكيف يختبر كل شيء قبل أن يأكل ، إلى آخر هذه الأمور التي تساعده على معايشة الكائنات ، فإذا خاف أو قلق أوشك لجأ إلى خالقه .

وبعد هذا التعليم بالنظرية وبالتجربة معا قال الخالق (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عـــدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) (١) .

وهكذا كان هدى الله ودينه وسيلة آدم وحواء للتكيف مع هذا الكون .

وهكذا كان بيان القرآن دليلا شافياً وإجابة على كل التساؤلات التي يمكن أن تصدر عن العقل فى هذا الموضوع . فيستقر ويطمئن وينشط فى مجالات الحياة المختلفة الأخرى ، فلا يضل ولا يشقى .

٢ — ومن الأدلة التي تقود إلى اليقين أيضاً أخبار القرآن عن طبيعة النفس البشرية الفردية والاجتماعية والقواعد الاجتماعية التي يقدمها القرآن ويرتب عليها الخسران والفلاح ويقسم على صدقها ويدلل عليها من واقع تاريخ الأفراد والأمم والشعوب ، ولم تكذب أو تختل أبداً (والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ، (والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه ، أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

هذا ولو تتبعنا الأدلة الموصلة إلى اليقين فى القرآن لاحتجنا إلى كتب ومجلدات .

---

(١) طه آية ١٢٣ .

ويهمنا الآن أن نقرر أن الدين فى نشأته كان متواكباً مع وجود أول إنسان على الأرض ، وأن الرأى القائل بأن نشأة الدين تأخرت قليلا حتى تكون أول مجتمع إنسانى ، رأى لا دليل له غير عدم خلو المجتمعات من الدين ، وهو دليل على شيء غير الشيء الذى يجب أن يدلل عليه لأن انتفاء الدين عن الإنسان الفرد الأول أمر يحتاج إلى دليل هو الآخر .

ولا يفوتنا أن نبين خطأ متفشياً فى الدراسات الإنسانية هو الخلط الواضح بين الإنسان البدائى والإنسان الأول .

حقيقة الإنسان البدائى :

فالإنسان البدائى الذى تصفه الكتب المتصلة بالدراسات الإنسانية — كالتاريخ والجيولوجيا والسلالات والاجتماع وعلم النفس — يبدو أنه يفترق كثيراً جداً عن الإنسان الأول .

فالإنسان الأول كما طالعنا (وهو آدم) كان على اتصال بالله عن طريق الوحى وقد تعلم كيف يتعامل مع نفسه ومع الكائنات من حوله .

أما الإنسان البدائى : فلا يخرج عن كونه قرداً راقياً ، أو وحشاً قبيح المنظر كما تصوره تلك الكتب فتقول مثلا : (عندما حل الزمن الكاينوزى الاوسط كما يسميه الجيولوجيون - كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ذات خواص شبه إنسانية كثيرة فى الفك وعظام الساق ، ولكنهم لم يعثروا على أية آثار لمخلوقات يمكن وصفها بأنها إنسانية على وجه العموم إلا عند الاقتراب من الأعصر الجليدية ، إذ عثر المنقبون فى أوربا فى رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون سنة ، على أشياء وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قصداً بيد مخلوق ذى مهارة يدوية يريد أن يطرق أو يخدش أو يقاتل بالحد المشحوذ .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى ، وليس فى أوربا أية عظام ولا أية بقايا أخرى تدل على ذلك المخلوق الذى صنع هذه الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب .

ولم يكن هذا الكائن إلا قرداً غير إنسانى تماماً وإن يكن ذكياً (فى نظر ه ـ ويلز) وهو تخمين لا دليل عليه .

ولكن حدث أن أحد العلماء عثر فى « ترينل » بجزيرة جاوه ، وبين ركام تعود إلى ذلك العصر نفسه ، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع مامن إنسان قردى ، وله وعاء مخى أكبر من وعاء أى قرد راق يعيش الآن ويلوح أنه كان يسير منتصب القامة ، ويسمى هذا المخلوق الآن باسم الإنسان القردى المنتصب القامة ، كما أن المقدار الضئيل من عظامه هو كل ما لقيه خيال متتبعى هذا التاريخ حتى الآن فى تصورهم لصناع الادوات الحجرية الاولى .

ثم يعثر بعد ذلك عند رمال يقارب عمرها ربع مليون سنة ، على أدوات كثيرة يبدو أنها تحسنت تحسناً مطردا مع تقدم سجل الحياة ، فهى لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل أدوات حسنة المنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلا عن أنها أكبر كثيرا من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك فى حفرة رملية قرب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهى عظمة فك قبيحة الصورة ، مجردة من الذقن تجردا تاماً وهى أثقل كثيرا من أية عظمة فك إنسانية حقه ، وأضيق ضيقاً يرجح معه أن لسان صاحبها لم يكن ليستطيع أن يتحرك فى فمه بالنطق الواضح البين ، ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وحشياً ضخماً كالإنسان تقريباً ؛ ربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وهو

يسمى بإنسان هيدلبرج ، ثم عثر على جزء من جمجمة فى « بلتداون » يجنح بعض العلماء إلى إرجاعها إلى زمن أقدم من زمن عظمة هيدلبرج وسمى صاحب هذه الجمجمة باسم إنسان الفجر . وليس بين رجال العلم من يرى أن أياً من هذين المخلوقين هو السلف المباشر للإنسان العصرى)[1] .

وهكذا يتبع الجيولوجيون المكتشفات من مثل هذه الاشياء فى محاولة لمعرفة عمر الحياة الانسانية على الأرض ، والوصول إلى الانسان الاول دون جدوى حتى ينتهى الامر الآن إلى الاعتراف بأن كل ماوصلت إليه الانسانية بشأن الانسان الاول لايعدو جهلا كاملا بصفاته وتصرفاته وبالزمن الذى وجد فيه ، وبالشكل الحقيقى الذى كان عليه .

حتى الإنسان الذى كان يعيش منذ قرابة خمسين أوستين ألف سنة مضت وهو مخلوق بلغ من قوة مشابهته للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضع سنوات مضت بشرية تماماً وتوجد الآن منه الجماجم والعظام كما توجد كميات من الآلات التى كان يصنعها ويستعملها ، فكان يستطيع أن يوقد النار ، وكان يلجأ إلى الكهوف اتقاء للبرد ، وكان يستعمل يمناه كما يفعل الناس .

حتى هذا المخلوق يرى علماء السلالات أنه لم يكن من الانسان الحقيقى فى شىء ، بل هو فى نظرهم نوع آخر من المخلوقات ، ولا يدرون أين نشأ الانسان الحقيقى الاول[2] ولا تزال البحوث قائمة والكشوف تتوالى يوما بعد يوم ، والإنسان الأول غير واضح المعالم . من وجهة النظر العلمية .

فالانسان الاول الذى يتحدث عنه القرآن والكتب السماوية الاخرى

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ٣٢ وما بعدها .

(١) المرجع السابق ص ٣٦ وما بعدها .

غير الإنسان البدائى تماما ، وهذه هى الحلقة المفقودة ، التى جعلت مسألة النشوء والارتقاء العضوى ، مثار مجادلات أليمة وكثيرة بين الناس ، إنتهت إلى أن أصبح أشد الناس تمسكا بالعقائد الكاثوليكية ، والبروتوستانتية واليهودية والإسلامية ، لايتحرجون من قبول هذا الرأى القائل بأن لجميع الكائنات أصلا مشتركا ، بل قامت محاولات شتى لتطوير وتأويل وتفسير ماورد فى الكتب السماوية ليتماشى مع الرأى الحديث الذى ينفى أن الحياة نشأت على الغبراء جملة وفجأة ، ويرى أن الانسان من بين الكائنات مر بمراحل طويلة من التطور والارتقاء حتى اكتسب إنسانيته وقوته وإدراكه .

ومع أن هذا الرأى يتنافى تماماً مع ما جاء فى الكتب السماوية ، فإنه أيضاً يفتقد كثيرا من الادلة على صحته ، بل يفتقد المنهج والوسائل العلمية الصحيحة ، فالقرآن ينفى تماماً أن تكون الحياة وجدت من غير موجد خالق عليم حكيم ؛ كما ينفى نفيا قاطعا أن يكون الانسان البدائى المتوحش هو آدم النبى . لان الفرق واضح بين وصف الجيولوجيين للإنسان البدائى ، وبين وصف القرآن لآدم . كما ينفى أيضا أن يكون التطور بالنسبة للإنسان بالذات دون الكائنات الاخرى — قدحدث على الارض الحالية ومر بهذه المراحل الطويلة التى تقول بها نظرية التطور والارتقاء ، وهذا النفى القاطع يؤيده الاختلاف الواضح بين آراء الجيولوجيين والرفض القاطع لعلماء السلالات أن تكون العظام والجماجم التى عثر عليها لمخلوقات منذ خمسين أو ستين ألف سنة وقبل بلوغ العصر الجليدى الرابع أوجه أن تكون لانسان حقيقى مع وجود التشابه بينهما .

ومن هنا تصبح الحلقة المفقودة ، فى نظرية التطور ، هى الانسان الاول الحقيقى ، وحتى العثور على هذه الحلقة المفقودة تبقى النظرية بلا معنى ولا صلة لها بالحقيقة ولا بالعلم ، خاصة بالنسبة للإنسان .

يقول ويلز «ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظريات حول البداية الأولى للحياة ؛ وغالباً ماتكون نظرياتهم تلك عظيمة النفع : ولكن أحداً منهم لم يصل إلى أية معلومات باتة محددة ، ولا فرض علمى يركن إليه عن الصورة التى بدأت بها الحياة ، على أن جميع الثقات يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدافئة الضحلة القليلة الملوحة والمعرضة لنور الشمس[1] ».

والغريب أنه بالرغم من عدم الانتهاء إلى رأى ثابت فى هذا الموضوع نجد من الناس من يحاول أن يهز الحقيقة العلمية الثابتة ؛ لمصلحة رأى مهتز غير ثابت فماذا يمكن أن نصف هؤلاء الناس ؟ لا أقل من أنهم متحيزون .

والنتيجة :

وضح من خلال هذه المناقشة فى نشأة أن الدين وجد مع الإنسان الأول ؛ هذا هو الرأى الصحيح الذى قامت عليه الأدلة العلمية .

ووضح أيضاً من المناقشة أن مصدر الدين هو الإله الخالق المحيط .

لكننا سنقف وقفه ثانية لمناقشة القول بأن مصدر الدين هو الإنسان حتى تنجلى الحقيقة أكثر .

مناقشة القول بأن الإنسان هو مصدر الدين « تفصيلا »

القول بأن الإنسان هو مصدر الدين كله قول قديم ذهب إليه بعض فلاسفة اليونان القدامى .

ويبدو أن هذا القول فى العصر الحديث يستند إلى نظرية التطور والارتقاء ولمناقشة هذا الاتجاه تحتاج إلى بيان وتوضيح مايلى :

مصدر الدين الحقيقى الذى نشأ مع الإنسان الأول ، وكان صلة بين

---

(١) ص ١٣ موجز تاريخ العالم .

القوة العليا والانسان ، وهذا الأمر قد تم توضيحه وبيان حقيقته أثناء مناقشة نشأة الدين ، وتبين أن الصلة بين الإله (القوة العليا) وبين آدم (الإنسان) عن طريق الوحى قد بدأت بمجرد هبوطه إلى الأرض واستمرت بعد ذلك .

مصدر العقائد الأخرى التى أطلق عليها (دين) بالنظر إلى المعتقد نفسه ، ومشابهة اعتقاده وما يعتقد فيه ، ومايقوم به من ممارسات عقيدية بالدين وليس لها صلة بالدين الذى هو رابطة بين قوة عليا وبين الإنسان إلا من وجهة نظر المعتقد كعبادة البقر مثلا .

وهذه العقائد وإن أطلق عليها الدين تجوزا يقوم الاتفاق بين العلماء والباحثين على أن مصدرها الإنسان وهذه لاتحتاج إلى مناقشة . ولا يصح الحكم بها على الدين الصحيح .

مصدر العقائد التى ترجع إلى دين أصلى صحيح ثم تحولت بالتحريف والتغيير والتدخل الإنسانى إلى عقيدة مخالفة للدين فى بعض الأمور وإن كان أصلها دينياً صحيحاً وهذه العقيدة هى مبعث الخلاف وتعدد الآراء ، وهى أيضاً مبعث التشكك فى أصل الدين ومصدره ، نظرا لإدعاء أصحاب هذه العقائد أنها سماوية وإصرار أهلها على ذلك ، بينما تحمل هذه العقائد عناصر هدمها ونقضها متمثلة فيما زيفه الإنسان على الوحى . ولم يستطع أن يقنع به العقل السليم .

مصدر العقائد التى ترجع إلى دين أصلى ثم تحولت بالتدريج وفعل الإنسان وتدخل العقــــل الإنسانى والعاطفة الانسانية إلى عقيدة مخالفة للدين فى كل أمورها أو فى أصولها ، أى أصبحت رجعية فى فكرها وسلوكها .

وهذه العقيدة يتفق العلماء على أن مصدرها الانسان ، وإن أدعى أهلها غير ذلك حيث انقطعت الصلة تماماً بينها وبين أصولها الدينية ، وأصبحت

صناعة إنسانية ، كعبادة الأصنام مثلا ، وادعاء أنها تقرب إلى الله . .

فكأن الاتفاق ينعقد على أن العقائد التي أطلق عليها « دين » تجوزا ، والعقائد التي انقطعت صلتها بأصلها الديني . من صنع الإنسان ومن بدعه .

أما العقائد التي ترجع إلى دين حقيقي ثم أصابها بعض التحريفات والتغيرات فهي سر تشكك العلماء في مرجع الدين وأصله .

ولو تخلصت هذه العقائد الأخيرة كاليهودية والمسيحية مما نابها من تحريف وتغيير صنعه الانسان ففتح به مجـــال النقض والنقص ، لانحصر الشك وضاقت دائرته .

وعليه فلم يبق إلا الدين الحقيقي الذي لم تصل إليه يد إنسان بتغيير أو تحريف هذا الدين هو الذي تقوم الأدلة على أنه من وحي القوة العليا ومن وراء المادة ، وهو الذي نشأ مع آدم وتتبع المجتمعات الإنسانية حتى اكتمل رشدها ، ونضج عقلها ، وأصبحت قادرة على تنظيم حياتها وإدارة هذه الحياة بنفسها من خلال دين خاتم صالح لكل زمان ومكان ، يحمل في ذاته الدليل على ذلك .

تضمن هـذا كتاب محسوس ملموس يحمل الأدلة العلمية على هـــذه الحقائق مبيناً طبيعـة الدين ومصدره وتتبعه للإنسانيـة بالرعاية حتى تحقق كمالها .

هذا الكتاب هو القرآن ، وأدلته قائمة على أسس علمية ومنهج علمي من حيث كان من لدن عالم بأسرار الكون بدايته ونهايته ، وهذا شرط أساسي في المنهج العلمي — أن يكون الباحث عالما بأسرار صنعته محيطا بجوانبها — ومن حيث حمل هذا الكتاب في مضمونه الدلائل العلمية على أنه من لدن هـــذا العالم وأيضاً من حيث بين حقائق التطور للإنسان وللرسالات بصورة علمية وعقلية ومنطقية يسهل كشفها وستنباولها إلى شباه

الله فى مكان آخر من هذا الكتاب بالتحليل والتفصيل . فى الجزء الخاص بالإنسان فى ظل الإسلام .

ويكفينا فى الدلالة على موضوعنا ما كتبناه بشأن نشأة الدين عند مناقشتنا السابقة . .

مناقشة الباعث على التدين : أو الدافع إليه تفصيلا :

متى يمكن قبول تفسير الباعث على تدين الإنسان بشىء مما سبق ؟ .

بخوف الإنسان ، وقلقه ، أو بغرائزه الأخرى ، أو عقله ، أو ملكة خاصة ، أو الحاجة الاجتماعية .

قبول تفسير الباعث على تدين الإنسان بهذه الأمور أو بعضها أو بأمر منها ممكن فى حالة ما إذا كان الإنسان فيها مصدر الاعتقاد ، وصانعه ، وقد عرفنا أمورا يكون الانسان فيها مصدر اعتقادات تشبه الدين فى بعض المظاهر ، ويطلق عليها « دين » تجوزا أو بالنظر لاعتقاد المعتقد . أى يقبل تفسير الباعث على تدين الانسان فى مثل هذه الحالات بأمر مما سبق على أساس وجود نزعة التدين الفطرية والخطأ فى التطبيق وعندئذ فلا مانع من ربط هذه النزعة بالغريزة أو بالعقل أو بملكة خاصة إلخ .

ولا يصح أن يجادل أحد فى وجود دافع فطرى وراء بحث الناس عن مدبر الكون ومحركه ، لاسترحامه أو شكره ، أو التقرب إليه أو طلب الحماية منه .

متى يرفض تفسير الباعث بشىء مما سبق ؟

أما رفض تفسير الباعث على تدين الانسان بأمر من تلك الأمور السابقة ففى حالة ما إذا كان المقصود هو الاستدلال على أن الإنسان هو مصدر الدين الحقيق ، بمعنى أن الدافع هذا قد ألجأه إلى صناعة الأديان كلها بما فيها الدين الصحيح وعندئذ لابد من التفرقة بين المصدر والباعث .

ذلك لأن الخيط الرفيع بين الحالتين جعل الكثير من الدارسين يقعون فى خطأ تصور الباعث على التدين ومصدر الدين شيئاً واحدا ، صحيح أن الإنسان هو محل التدين وأن نفسه التى تحمل فطرة الاعتقاد بالألوهية ويشترك الناس جميعاً — المتحضر والبدائى — فى الاعتقاد بوجود قوة عليا — فطرة الله التى فطر الناس عليها — حتى الملاحدة صاروا عبادا لآلهة صنعتها أهواءهم كتقديس الماركسيين لماركس وتصورهم للقوة العليا فى الطبيعة ، لكن هذه النفس أعجز وأضعف من أن تصل إلى الصورة الصحيحة لتنظيم العلاقة بين جزئيات كيان الإنسان نفسه من جهة وبينها وبين الآخرين من جهة ثانية ، وبينها وبين الكون وكائناته من جهة ثالثة .

فكان لابد أن تتلقى كيفية هذا التنظيم من قوة قادرة فكان الوحى من لدن الاله مصدر الدين الحقيقى الصحيح . الوحى الخارج عن حدود هذا الكيان المادى — الوحى الذى يتجاوز أهواء النفس وأغراض الذات وأنانية الفرد إلى نظام عام صالح للفرد وللجماعة .

وهكذا يفترق الباعث على التدين عن المصدر الدينى ولا يصح أن يكون الباعث النابع من تكوين الانسان وقواه ومدركاته وحاجاته ودوافعه دليلا على أن مصدر الدين الحقيقى هو هذا التكوين النفسى العاجز عن التكيف مع جزئياته ومع الكون من حوله .

فنفس الانسان إذا انتهت إلى الاشتراك فى التطلع نحو شىء مقدس ينظم علاقة الكيان مع نفسه ومع الكون من حوله ومع خالق الكون فإنها لاتستطيع أن تنتهى إلى ذات الدين الذى يقوم بهذه الوظيفة كاملة . وبطريقة ناجحة تماما .

ومن هنا كانت العقائد التى صنعها الانسان أو تدخل فى صنعها ، واضحة المعالم ويمكن التعرف عليها بسهولة ، لأنها تكون غالباً عقائد ذاتية ، فيها

أنانية الانسان أو هواه . أو عصبيته ، أو ظلمه أو شعوبيته ، أو عنصريته ، أو جهله أو غباوه ، أو غرائزه العدوانية .

أما الدين الحقيقي فلا تلمس فيه شيئاً من ذلك أبدا . .

بل يذهب الدين الصحيح فى تنظيمه لعلاقة الانسان بنفسه الفردية وبنفسه الاجتماعية ، وبما حوله من كائنات مذهبا عادلا حكيما يتميز بالنظرة العامة الشاملة الكاملة المدركة لطبائع الناس والأشياء ، الخبيرة بحاجات النفس الانسانية ونظم الاجتماع الانسانى .

عندئذ لا يمكن تصور مصدر لمثل هذا الدين غير قوة عليا ذات صفات خاصة تملك الخبرة والعلم والاحاطة والقدرة على إدارة هذا الكون كله ومايشمله من كائنات بما فيها الانسان أى صفات الكمال جملة .

أما الباعث على التدين فقد يجده الانسان كل إنسان بين جوانحه ، لأنه خلق فيه ، وتأصل فى نفسه ، حتى تمكن فى حياته الفردية والاجتماعية .

وبالتالى يصبح مصدر الباعث نفسه هو القوة العليا الخالقة ، التى صنعت الانسان على هذا النحو صنعته دائب البحث عن الحقيقة .

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى »(١) .

وحين هبط الانسان إلى هذا الوجود ـ أول إنسان ـ قد كان قد حمل من المعارف الأساسية ما يمكنه من العيش فى هذا الكون ، إذ تنبهت فيه ملكات الحذر وامتحان كل شىء حوله ، لأنه قد تعلم بالتجربة خطورة الاقبال على أى شىء قبل إمتحانه ، حين أكل من الشجرة ، بل وقبل أن يأكل نبهه الخالق إلا أنه إذا أكل هبط من الجنة وشقى .

---

(١) الأعراف آية ١٧٢

« فقلنا يا آدم : إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »[1] .

فكان توقعه للشقاء وللأذى يجعله مترددا حذرا فى طعامه وشرابه وفى معاملته للمخلوقات الأخرى ، وكانت خطواته متئدة ، ونفسه دائمة اللجوء إلى بارئها ، فكان آدم أول الأنبياء كما كان أول البشر . ثم تبعته الإنسانية وبين جوانحها ذلك الباعث الخفى ، يعمل على شد الانسان إلى القوة العليا دائماً .

لكن كيف نفسر عبادة الانسان البدائى أو تقديسه لبعض مظاهر الطبيعة ؟ وقد حمل الانسان الأول معارف الايمان على هذا النحو !

لابد من دراسة تطور العقائد كيف ابتدأت وإلى أين اتجهت .

---

(١) طه آية ١١٧

الفصل الثانى

الدين والإنسان والتطور

العقائد — الشرائع — العقائد البشرية ، والعقيدة الالهية ،

الشرائع البشرية ، والشريعة الإلهية

الدين والإنسان والتطور

سنتعود أن نسرد آراء العلماء والباحثين كما هي في حيدة تامة ونفرد لمناقشتها مكانا خاصا حتى لا تختلط الأفكار ، وحتى يستفيد القارىء أكبر فائدة ، إذ يجد أمامه فرصة الاطلاع على مختلف الآراء ، ثم الاطلاع على مناقشة مستقلة ، فترجح لديه فكرة خاصة ، قد تكون مضمون ، ما اطلع عليه ، وقد تكون جديدة ، وفي كل خير . لكننا نعلن منذ البداية ما سبق أن وصلنا إليه وهو معرفة الانسان الأول للاله الواحد خالق الانسان والكون ، فماذا هناك بعد ذلك .

آراء العلماء :

يقول صاحب كتاب « موجز تاريخ العالم » : والراجح أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيراً طريقة تفكير الأطفال ، أعني أنه كان يفكر في سلسلة من الخيالات ، فكان يستدعي إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء ، أو كانت الصور العقلية (الأخيلة) تقدم نفسها لعقله ، كما أنه يتصرف حسبما تمليه عليه الانفعالات التي تثيرها تلك الأخيلة ، وذلك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم ، ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الانسانية ، وهو لم يلعب دورا كبيرا في الحياة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة آلاف سنة الأخيرة .

بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقا في هذه الأيام نفسها ، وينظمونها فعلا ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس ، ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة .

ومن المحتمل أن أقدم ما ظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى

لقصة الإنسان الحق ، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة ، وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت من عائلات ظلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ، فمن المحتمل أيضاً أن القبائل الأولى قد فعلت مثل ذلك ، ولكن قبل حدوث ذلك ، كان الأمر يقتضى أن تقيد بصورة ما أنانيات الفرد البدائية ، وكان لابد من بسط فكرتى « الخوف من الأب واحترام الأم » حتى تتغلغلا فى حياة الكبار ، وكان لابد من تخفيف غيرة الرجل الكهل الطبيعية ، من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون ، وكانت الأم من الناحية الأخرى هى الناصح الطبيعى والحامى الفطرى للصغار(١) .

وقد تولدت الحياة الاجتماعية الانسانية عن طريق التفاعل بين الغريزة الفجة التى تدفع الصغار إلى الانفصال ، وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشبون ، وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها .

ومن الكتاب الميالين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم من يريدون منا أن نعتقد بأن احترام الرجل العجوز والخوف منه ، والانفعال العاطفى الذى يحسه المتوحش البدائى إزاء العجائز المسنات اللواتى يتوابن حمايته ، كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ، ومن فكرة الارباب والربات .

ومما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور فى الاحلام ، لذا كان من اليسير الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة

---

(١) يلاحظ أن الكاتب يعالج موضوعه من خلال الخيال والتخمين ، ولذلك عرض أفكارا لا تحدث من الإنسان إلا إذا كان قد عرف القيم والمبادىء واستقرت فى نفسه حتى يشعر بقيمتها — كالغيرة ، والنصح وإلا كيف يصل الانسان وهو بدائى إلى هذه القيم المدنية .

حقا ، وأن كل ما فى الامر أنها نقلت نقلا وهميا إلى منتأى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها (١) .

وخلاصة هذا الرأى أن الإنسان البدائى يشبه الطفل فى تفكيره وسلوكه وأن هذا التفكير المتناسب مع الطفولة الانسانية ، كان مصدر فكرة الارباب والربات التى بدأت بوجدانات طفولية نحو الكبار من الاجداد والجدات ، الذين إذا ماتوا لم يكن من السهل انتزاع الوجدانات نحوهم ، خاصة وأن الاحلام والاوهام والخيال كل ذلك ساعد على الاعتقاد ببقائهم ولو رمزيا ، فبدأ الاعتقاد بالارباب والربات على هذا النحو ليتطور بعد ذلك .

ويبرر الكاتب نفسه هذه الافكار بقوله : (ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته ومخاوفه أكثر إشراقاً وواقعية من أحلام الراشد العصرى ، وما كان الرجل البدائى دائما إلا طفلا فى تفكيره أو يكاد ، كما أنه كان أيضاً أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التى له ، وكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية ، وحيوانات آلهة ، ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون فى صغره طفلا واسع الخيال ليدرك من جديد ، كم كانت الصخور الغريبة الشكل أو الكتل الخشبية أو الاشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لاعين رجال العصر الحجرى القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منذرة بالشبور أو مظهرة للمودة ، وكيف كانت الاحلام والاوهام تخلق من الحكايات والاساطير عن مثل تلك الاشياء ما كان يصبح مقبو ومصدقاً عندما يروى (٢) .

وهكذا تصور الكاتب كما تصور غيره أن عبادة الآباء والحيوانات كانت بداية الاعتقاد بالآلهة .

---

(١) هـ جـ ويلز ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

سر هـذا التصور :

نشأ هذا التصور عن الاعتقاد بأن الإنسان نشأ على هذه الارض كما نشأ أى حيوان آخر ، فلم تعن به أية قوة علوية ، ولم تراعه أية عناية إلهية ، بل ألقى فى الحياة وأصبح هملا يكيف حياته بنفسه ويصنع معبوداته بحواسه وعواطفه وعقله أحيانا .

فكان عسيرا عليه جدا أن يصل بتطوره إلى أكثر من هذا ، فلم يكن نقادا فى ربطه السبب بالنتيجة ، لكن سهل عليه ربط النتيجة بشىء بعيد عن سببها — فى أعتقاد أصحاب هذا الاتجاه — كأن يقول : « أنت تفعل كذا وكذا فيحدث كيت وكيت » فأنت تعطى ثمرة لأحد الاطفال فيموت ، وأنت تأكل قلب عدو مغوار فتصبح قويا . هذان مثلان للربط بين السبب والنتيجة وأحدهما قد يكون حقيقة والآخر باطل ، وتسمى طريقة ربط العلة بالمعلول على هذا النحو فى عقل المتوحشين باسم « الفتيشة » — أى أعتقاد المتوحش أن كل شىء مادى تسكنه روح تقوم لمالك الشىء بالخدمات — ولكن الفتيشة إنما هى فقط علم المتوحشين ، وهى تختلف عن العلم العصرى فى كونها لا تقوم على أى أساس من التنظيم أو التمحيص ، فهى لذلك خاطئة فى الاعم الاغلب .

وكان التطور الطبيعى كفيلا بتصحيح أفكار خاطئة بالتجربة والخبرة ولا شك أنه طالما جرب آلافا من التعاويذ والرقى والنذور وآمن بها ليحصل على نتائج مرغوبة وأشياء تهمه كوفرة الصيد وسهولة الحصول عليه ..والنجاة من الموت والمرض الذين يهددانه .

فكانت الاحلام أو الخيالات الوهمية تجعله يلوم هذا الرجل أو الحيوان أو الشىء أو يلتمس منهم المعونة ، بحكم قابليته للخوف والذعر كالطفل .

ولابد — كما يقول الكاتب ه جويلز أيضاً — أنه حدث فى زمن مبكر جداً من تاريخ القبيلة الإنسانية الصغيرة ، أن العقول الأكبر سناً والأثبت جناناً والتى كانت تتشمم فى المخاوف وتسهم فى الخيالات ، ولكنها أقوى قليلا من العقول الأخرى ، قد تصدرت للنصح ووصف الوصفات وإصدار الأوامر ، فراحوا يصرخون أن هذا أمر مشؤوم وذاك شىء محتوم ، وأن هذا بشير خير ، وذاك نذير شر . وكان الخبير باعتقاد البدائى ويعنون به الطبيب الساحر — هو الكاهن الاول ، وهو الذى يقدم النصائح ويفسر الاحلام ، ويحذر ويقوم بالتعازيم الجوفاء التى تجلب الحظ وتجنب النكبات ، ولم ترق الديانة البدائية إلى ماتسميه الآن باسم الديانة من حيث هى طقوس وشعائر ، كما أن الكاهن الاول كان يملى على الناس ما هو فى الحقيقة علم عملى تحكمى (١) من وجهة نظره .

وكأن العقائد فى نظر هذا الاتجاه كانت تتطور تبعاً لسنة التقدم والارتقاء .. فبدأت بمدد من الاحلام والخيالات وتمثلت فى الأساطير والسحر حتى صعدت إلى قمة مجدها بمدد من الاخلاق والفكر . وتمثلت فى توحيد الإله وتنزيهه .

وكان السحرة والكهان أصحاب الامر والنهى والسلطان ، ثم نازعهم العلم والعلماء وكان صراع طويل خيل لكثير من الناس أن الدائرة ستدور على العقائد كلها حتى تسقط راية الدين ، وتذهب هيبته من النفوس ، وينطلق العالم بلاخوف ولا قيود من أى نوع ، إلا بالعلم ومن أجل العلم . . هكذا يقولون . وقد اتضح هذا الاتجاه تماما فى الفكر الماركسى وأعلن بلامواربة أن الدين صنعه الإنسان على ذلك النحو المتطور وقد آن له أن ينهيه بالعلم .

---

(١) موجز تاريخ العالم ص : ٤٨ .

ويقول العقاد فى كتابه « الله » : يعرف علماء المقابلة بين الاديان (أى علماء مقارنة الاديان) ثلاثة أطوارعامة مرت بها الأممالبدائية فى أعتقادها بالآلهة والارباب وهى :

١ — دور التعدد Po ytheism

٢ — دور التمييز والترجيح Henotheism

٣ — دور الوحدانية Monotheism

فى دور التعدد كانت القبائل الاولى تتخذ لها أرباباً تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفى الدور الثانى وهو دور التمييز والترجيح تبقى الارباب على كثرتها ويأخذ رب منها البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الاخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شئون الدفاع والمعاش ، وإما لانه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التى حققها الارباب المختلفة .

وفى الدور الثالث تتوحد الامة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الارباب فى كل أقليم من الاقاليم المتفرقة ؛ ويحدث فى هذا الدور ألا تفرض الامـة عبادتها على غيرها ، كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها :

والرأى الارجح عند علماء المقابلة بين الاديان أن الاعتقاد بالثنائية يأتى أحياناً كثيرة بعد اعتقاد الوحدانية على الصورة التى أجملناها وهى الوحدانيه الناقصة التى تأذن بوجود الارباب معها أو بتنازع الوحدانية بين إله دولة وإله دولة أخرى .

وهم يعللون ظهور الثنائية بعد الوحدانية بأن الانسان يترقى فى هذا الطور فيحاول تفسير الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون هذا من قبيل النكسة فى عقيدته ، لأنه لا يزال يسيغ تعدد الأرباب ويسيغ التمايز والترجيح بينها ، والتفاوت بين درجاتها وطبائعها .

وأثبت من هذا عندهم كما يقول العقاد — أى عند علماء المقابلة بين الأديان — أن وحدة الوجود تأتى بعد جميع هذه الأطوار توفيقاً بين النقائض والضرورات ، وإثباتاً لوجود الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه : وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والايمان .

ولم تكن أرباب الأمم الماضية فى جميع أطوارها نوعاً واحداً أو مثلا لفكرة واحدة ، ولكنها أنواع شتى يجمعها العقاد فى الأنواع التالية .

١ — أرباب الطبيعة أو الأرباب التى تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع .

٢ — أرباب الانسانية وهى الارباب التى تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين . ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات .

٣ — أربات الأسرة وهم الاسلاف الغابرون ، يعبدهم أبناؤهم واحفادهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهودة كما يحيى الناس ذكرى الموتى فى هذا الزمان ويزورونهم بالاقوات والالطاف ، ولكن مع هذا الفارق البين وهو أن الرجل الهمجى لا يمنعه مانع أن يجعل الذكرى عبادة وأن يجعل هدايا القبر فى حكم الضحايا والقرابين .

٤ — ارباب المعانى كرب العشق ، ورب الحرب ، ورب الصيد ورب العدل ، ورب الاحسان ، ورب السلام .

٥ — أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ، ورب الجرن ، ورب الطعام .

٦ — أرباب النسل والخصب وهى على الاغلب الاعم فى صورة الاناث ، ويسمونها بالامهات الخالدات ، وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة .

٧ — آلهة الخلق التى ينسب إليها خلق السماء والارض والانسان والحيوان .

٨ — الآلهة العليا وهى آلهة الخلق التى تدين عبادها بشرائع الخير ، وتحاسبهم عليها ، وتجمع المثل العليا للمحاسن والاخلاق ، وتضمن السعادة الابدية للأرواح فى عالم البقاء .

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هى أرقى ما بلغته الانسانية فى أطوارها المتوالية ، واستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الاكوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس (١) .

ويبدو أن الاستاذ عبد الكريم الخطيب فى مؤلفه « قضية الالوهية بين الفلسفة والدين » قد شارك أصحاب هذا الاتجاه فى الايمان بنظرية تطور الدين وارتقائه تبعاً لسنة التقدم والرقى للحياة المادية والفكرية والانسانية فرأى ما رآه غيره فى هذا الشأن « كول ديورانت » فى قصة الحضارة الجزء الاول ص ١٠٢ .

يقول الاستاذ عبد الكريم الخطيب : « لا ننكر أن حاجة الانسان المادية هى التى استحثت فى الانسان الاول (٢) نزعة التدين ، وهى التى أوحت

(١) العقاد ص ٢٠ — ٢٢ « الله » .

(٢) واضح أن للمؤلف وهو مسلم اختلط عليه الامر فلم يفرق بين الانسان الاول والإنسان البدائى .

إليه بكثير من صور الآلهة التى عبدها ، ولجأ إلى حماها ، وطلب السلامة من شرها ، والتمس الخير من خيرها ! . .

غير أن الدين الذى يرتكز على هذه الركائز المادية ليس ديناً بالمعنى المفهوم لكلمة « دين » وإنما هو شعور منبعث عن خوف وقلق يحمل الإنسان على أن يمد يده إلى كل مايظن أن إليه مفزعاً وعنده ملجأ . .

فالغريق الذى يعلق بكل شىء، ويلتمس النجاة من أى شىء ، لاينبغى أن تحسب تخبطاته شيئا يدخل فى حساب المنطق والعقل .

فلا نسخر إذن من أجدادنا الأولين ، إذا رأينا من معبوداتهم تلك الأشياء التى نمر بها ، ولا نأبه لها ، كالقطط والبقر ، والكباش ، وأنواع مختلفة من الطيور ومظاهر الطبيعة من برق ورعد ومطر وسحب ورياح وأصناف متعددة من النبات

لاتسخر من هؤلاء الأجداد ، إذ كانت هذه الأشياء عندهم محوطة بالغموض تتبدى لهم فى صور متشحة بالأسرار والألغاز .

وإذا صح القول بأن من جهل شيئاً عاداه ، فإن من الصحيح أيضاً أن يقال : من جهل شيئاً رهبه ، ومن رهب شيئاً استكان له ، ومن استكان لشىء فقد عبده .

لهذا كان عالم آبائنا الأولين مليئاً بالآلهة . . ويستدل الخطيب على كلامه بكلام لول ديورانت يواصل به حديثه وهو : فمن كل كوكب ، ومن كل صخرة ينبثق وجود يثيره ينبوع من الاحساس الذى تدرك به كثرة ماهنالك من قوى شبيهة بقوى الآلهة . . منها الضعيف ومنها القوى ، ومنها الجليل ، ومنها الضئيل ، تتحرك كلها بين السماء والارض ، فتحقق غاياتها التى كتمتها فى أجوافها سرا » .

ثم يواصل الخطيب حديثه الدال على إيمانه بنظرية تطور الاديان والعقائد تبعا لتطور الحياة الانسانية المادية والفكرية فيقول : . . .

فاذا رشد العقل شيئاً ، وتكشف له بعض حقائق الاشياء فرآها على الوجه الذى نراها نحن الآن به . أنس إلى تلك الاشياء ، ونظر إليها نظر تأمل وتفكر ، ثم لايلبث أن يستوحى من تفكره وتأمله مثلا رفيعة من الجمال والجلال المتدفق من مكنونات هذا الموجودات .

وراح سيادة الأستاذ المسلم يربط بين نظريته هذه فى العقائد وبين تطور الفنون الاخرى ونموها فى رحاب الدين وبوحى من معبوداته وآلهته(١) ، ويبدو أن هذه المسألة أصبحت كمسألة النشوء والارتقاء العضوى أى أصبحت شائعة ، ولا يتحرج من قبولها أشد الناس تمسكا بالعقائد السماوية المعروفة اليهودية والمسيحية الإسلامية .

بل ذهب كثير منهم إلى محاولات جاهدة لاخضاع تعاليم اليهودية والمسيحية والإسلام لهذا الرأى وذلك الاتجاه .

كادعاء أن أبا البشرية وأول الانبياء مسبوق بأوادم أخرى تصدق عليهم نظرية التطور العضوى ، والتطور الدينى . ظناً منهم أن هذا التفسير ومثله يخدم الدين من جهة ، ويوائم بين العلم والدين من جهة أخرى .

وكان يجب أن يتيقن هؤلاء وغيرهم إن كانت هذه الاتجاهات علمية فى الحقيقة أم غير علمية .

ولاشك أن اليقين وليد البحث والنظر والعلم ، فما هى الوسائل التى أعتمد عليها هؤلاء وغيرهم للوصول إلى هذه الدعوى — دعوى علمية هذا الاتجاه . . . فى مقابل دعوى الكتب السماوية — وخاصة القرآن — إن الدين بدأ بدعوى الوحدانية لله وانتهى بها فلم تتطور العقيدة الدينية الحقيقية من لدن الاله الحق والوحى الصحيح ، إنما الذى نابها من

---

(١) الكتاب الأول « الله » ذاتاً وموضوعاً ص ١٥ — ١٩ .

تبديل وتحريف كان يمثل رجعة فكرية تدل على عجز العقل الانسانى إنما الذى تطور حقيقة ، ومن جهة الوحى الصحيح فالشرع لا العقيدة .

ولكى ينال هذا الموضوع حقه من الدراسة والبحث فسوف نقسمه إلى فقرتين .

الفقرة الاولى مع نظرية التطور الدينى وأدلتها .

الفقرة الثانية : مناقشة هذه الادلة للنظر فى صحة علميتها .

نظرية تطور العقائد والاديان وأدلتها :

لا يفرق أصحاب هذا الاتجاه بين صحيح العقائد من فاسدها ، كما لا يفرقون بين السماوية منها والارضية ، ولا يفرقون بين العقيدة والشريعة انطلاقا من نظرتهم الاساسية المتجهة إلى تقرير التطور العضوى ـ أى تطور الاحياء من الخلية إلى كائنات مختلفة ، حتى وجد الانسان الحقيق بعد هذه المراحل فكان من مخلوق أشبه بالحيوانات ـ فالتطور الدينى والعقائدى للإنسان يشبه تطوره العضوى من حيث التدرج والارتقاء ، وإن اختلف نسبياً ـ أى التطور الدينى ـ من مجتمع إلى مجتمع .

ويستند أصحاب هذا الاتجاه إلى نظرية التطور والارتقاء ، كما يستندون إلى مشاهدات واستقراءات أجريت على مجتمعات بدائية ومتوحشة ومجتمعات تجاوزت البدائية والتوحش إلى طور أرقى ثم إلى أطوار أكثر رقيا ، فهدتهم هذه المشاهدات والاستقراءات إلى نتيجة يجمع عليها علماء هذا الاتجاه (وهى : أن الايمان بالارواح شائع فى جميع الامم البدائية ، وأن الامم التى جاوزت هذا الطور إلى أطوار الحضارة وإقامة الدول ، لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية أو عبادة الكواكب على الخصوص ، وفى طليعتها الشمس والقمر والسيارات المعروفة ، وأن عبادة الاسلاف

تتخلل هذه الأطوار المتتابعة على أنماط تناسب كل طور منها حسب نصيبه من العلم والمدنية .

أما التوحيد فهو نهاية تلك الاطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى . فكل حضارة منها قد آمنت بإله يعلو على الآلهة قدرا وقدرة ، وينفرد بالجلالة بين أرباب تتضاءل وتخفت حتى تزول أو تحتفظ ببقائها فى زمرة الملائكة التى تحف بعرش الاله الاعلى .

لكن الاديان الكتابية — بعد كل هذا — هى التى بلغت بالتوحيد مرتقاه ، وعلمت الناس شيئا فشيئا عبادة الاله « الأحد » الذى خلق الوجود من العدم ، ووسعت قدراته كل موجود فى السموات والأرضين ، ولم يكن له شريك فى الخلق ولا فى القضاء .

وذاك التوحيد الإلهى الذى نشأ من توحيد الدولة لم يعرض لخلق الكون كله ، ولم يذهب بفكرة التكوين إلى أبعد من خلق الانسان من مادة موجودة لا حاجة بها إلى موجد .

ولما بحثوا فى خلق الأرض والسماء كانت فكرة الخلق عندهم بمثابة فكرة التنظيم والتجميل ، لأنهم نظروا إلى مادة الأرضين والسموات كأنها حقيقة راهنة ماثلة للحس والنور فى غنى عن المبدع ، ولا حاجة بها إلى شىء غير التركيب والتنسيق ، وفرضوا لتركيبها أسلوبا من الصناعة كأسلوب الانسان فى تركيب مصنوعاته من موادها الحاضرة بين يديه .

وظل العقل البشرى محصورا فى هذا الأفق إلى عهد الديانة الاغريقية قبيل الدعوة المسيحية بل بعد الدعوة المسيحية فى بعض الجهات بزمن غير قليل . فلم يكن « زوس » كبير الآلهة خالقها ولا خالق الكون بما رحب من أرض وسماء ولكنه كان بينها كرب الأسرة بين الأبناء والأحفاد ، أو كالسيد المطاع بين الأعوان والأتباع .

وبلغ من سريان هذه « الحالة العقلية » فى الأذهان أن الفلاسفة أنفسهم لم يجهدوا عقولهم فى البحث عن أصل للمادة أو الهيولى . كأن وجودها حقيقة مفروغ منها لاتتوقف على مشيئة خارجة عنها ، فلما ترقى الانسان فى فهم الوحدانية الالهية ، أصغر من الكون بمقدار ما أكبر من الله ، فجاء تفكيره فى خلق الكون من طريق تعظيمه لقدرة الله وأفراده بالوجود الصحيح والقدرة السرمدية على الإيجاد فاقتحم بالإيمان بابا لم يقتحمه بالتأمل والتفكير .

فالايمان بالأرواح كان أشيع إيمان وألزمه لبديهة الانسان فى مبدأ التدين والاعتقاد .

ولا مانع من تعليل اهتدائه إلى « الروح » بالعلة التى شرحها سبنسر وتيلور وهى الأحلام واستحياء الجماذ ، إذ لم يكن فى طاقته أن يفهم الروح فهما أصح من هذا الفهم فى ظلمات الجاهلية ، وعثرات النظر بين غياهب تلك الظلمات :

فكان ينام ويرى أنه يعدو ويرقص ويأكل ويشرب ويقاتل فى منامه ، ثم يستيقظ فإذا هو مكانه لم ينتقل منه قيد خطوة إلى مكان غيره ، فيقع فى حدسه أنه فعل ذلك بالروح الذى يسكن جسده ويتركه أو يعود إليه حين يريد .

وكان يري الموتى فى منامه فيحسبهم أحيـــاء يتحركون مثله كما تحرك بروحه وهو نائم بجسده ، وراقب الموتى فرأى أنهم يفقدون النفس حين يموتون ، فوقع فى حدسه من ذاك أن النفس هى الروح المفارق للأجساد فى حالة الموت ، فهى شىء فى لطف الهواء الخفى يحتجب عن الانظار فلا تراه .

ولا شك على الاطلاق فى ارتباط الروح بالهواء فى بديهة المؤمنين

الأولين بالأرواح ، فإن الكلمات التي تطلق عليها في العربية تدل كلها على ذلك ، وهي الروح والنفس والنسمة ، وكلمة بسيشي Psyche اليونانية معناها النفس كمعنى سبريت Spirit في اللغات الاوربية الحديثة . . وفي ذلك دلالة لاشك فيها على أصلها الاول من بداهة الانسان) (١) .

وهكذا يظل هذا الاتجاه يتلمس الادلة والبراهين على تطور الدين والعقائد تبعا لتطور الفكر الانساني والحضارة الانسانية ، يرقى برقى الانسان وينحط بانحطاطه .

ويذهبون في تعليل هذا الاتجاه بالمقارنات بين الأفهام والمدارك في مجتمع متحضر وفي مجتمع غير متحضر . ولم يكن للوحي في نظرهم وجود أو حتى افتراض وجود ومن هنا كان استنتاجهم من مشاهداتهم للهمجي والبدائي ينسحب على الانسان الأول بدون تردد .

فلما كان الهمجي والبدائي لايفهم معنى للظل والصورة مثلا كما نفهم نحن الآن بل يحسبها نسخا حية منه يصاب من جهتها بالسحر والطلاسم ، ويصونها من كيد أعدائه كما يصون أعضاء جثمانه ، ويحار في هذا الازدواج فيلحقه بازدواج الاشباح والاجساد على نحو من الانحاء .

ولم يكن جهله بالأشياء أقل من جهله بالظلال والأشباح ، فإن الإنسان الأول ومن تلاه من أناسي يصبح في نظر هذا الاتجاه كالطفل ، فلا يستغرب منه أن يعطف على ماحوله من الأشياء أو يقابلها بالرهبة والحذر والأحجام. حتى اهتدى إلى فكرة « الروح » من الناحية التي تلائمه : وتهيأ لعقله النفوذ إلى ماوراء المادة ، ودخل في روعه إمكان الوجود لما لم يلمس باليد وينظر بالعين ، فتبدلت قيم الحياة ، فاستطاع أن يفرق بين الروح والجسد ، وبين

---

(١) الله للعقاد ص ٢٤ — ٣٦ .

العقل والمادة وبين الحركة والجمود، وبين الخـــير والشر ، وبين النور والظلام ، وبين المعانى المجردة والاجسام المحسوسة ، واختلاط الاعتقاد بالروح بجميع العقائد الدينية بعد أطوار العقيدة البدائية وفى أثنائها ، فعبادة الاسلاف لاتخطر على بال مالم تخطر معها فكرة بقاء الارواح ، وإنما تترقى الأنماط على حسب الترقى فى المعارف والمعقولات .

(فالهمجى الذى جهل أسرار التناسل قد يتخذ له جداً معبودا يتمثله فى شبح الأسد أو الكلب أو الصقر أو العقاب ، ولا ينكر أن يكون أبوه من سلالة الحيوان جسدا وروحا بغير مجاز (كما هو واضح فى الطوطمية وسنتناولها بتفصيل فيما بعد) لأنه لا يفقه المانع الذى يمنع الروح أن تسكن جسم حيوان كما تسكن جسم إنسان، والحضرى الذى تهذب واستطلع أسرار الخليقة بعض الاستطلاع يجعل أباه روحا تتجلى فى الشمس ، ويفرق بين أبوة الأجساد وأبوة الأرواح ، وعلى هذا المثال ولا ريب زعم الكهنة أن هذا الفرعون أو ذاك من الفراعين ابن الشمس أو ابن أوزوريس ، ولم يفهموا ولا فهم احد من ذلك انهم ينكرون ابوته الجسدية المسجلة بالميراث ، وبحقها يجلس على عرش ابيه .

ولا يرى علماء المقابلة (بين الأديان) ان عبادة الشمس كانت معدومة اطوار الديانات القديمة ، ولكنهم يقررون ان ديانة الشمس لم تنتشر فى تلك الأطوار لأنها تستلزم درجة من الثقافة العلمية والأدبية ، لا تتيسر للهمج وأشباه الهمج فى اقدم عصور التاريخ ، فلابد قبل ذلك من نظرة فلكية عالمية تحيط بعض الشىء بنظام الأفلاك ، وعلاقة الشمس بالفصول ومواعيد السنين

وتستدعى ديانة الشمس غير هذا أن يرتفع العقل البشرى بفكرة للخلق، من أفق الأرض القريب إلى الآفاق العليا فى السموات ، فتتسع دنياه

وتتعاظم فيها دواعى الحركة والسكون والحياة والموت ، ويقترب من الأوج الذى يستوعب فيه الكون بنظرة شاملة ، ويلتمس له سببا واحدا) (١) يفيد علة خلقه ووجوده

وهكذا تتحرك نظرة الاتجاه إلى القول بتطور الأديان حتى تصل إلى التوحيد من طريق واحد : هو الفكر الانسانى الذى يعبر من عبادة الشمس إلى عبادة الخالق موجد السموات والأرض . . . .

بل ذهب القائلون بتطور الأديان والعقائد تبعا للعلوم والمعارف إلى حد للتجرؤ على الأديان السماوية، واتهام الرسل بالذكاء إذ أخذوا يطورون الدين الذى يجيئون به تبعا لظروف وأحوال الدعوة .

« فاجناس جولد تسهر » يدعى أن الإسلام مر بمراحل عديدة من التطور العقائدى والتشريعى ، بفعل الرسول والصحابة من بعده وذلك فى مؤلفه المعروف العقيدة والشريعة — فى الإسلام —

ويذهب هذا المذهب كثير من علماء الإسلام والمسيحية واليهودية ، محاولين إخضاع الدين لهذا الاتجاه باعادات تتنافى تماما مع ما جاء بالكتب الدينية لهذه الأديان

يقول عبد الكريم الخطيب فى كتابه « قضية الألوهية بين الفلسفة والدين » : ويكاد الناس يتفقون جميعا فى تصوراتهم الأولى للآلهة . . ولا عجب فى هذا ، إذ كان الإنسان هو الإنسان البدائى فى كل مكان ، حيث كانت ظروف الحياة هى هى فى كل مكان ، لم يدخل عليها ما يغير من اوضاعها ، فالناس جميعاً فى طور الطفولة ، ولهذا نجد التشابه الكبير فى

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ — ٢٨

نشأة الديانات، وفى صور الآلهة وألوان العبادات عند الأمم القديمة كلها، فى مصر، واليونان، وبابل، وآشور، والهند، وفارس، والصين، ولنا أن نتخذ من هذا التشابه شاهد صدق على رواية التاريخ عن هذه الأمم، لأن هذا التشابه أمر لازم تحتمه وحدة الشعور بين الناس فى حياتهم الأولى، ووحدة الحياة التى كانوا يحيونها.. ويقول: ويبدأ الناس مرحلة جديدة مع آلهتهم حين يعيدون النظر إليها، فيجدون كثيرا منها لا شيء فيه يستحق أن يتخاضع له الإنسان، ويقيد نفسه أمام محرابه...

ويظهر فى الناس راشدون يسفهون هذه الآلهة، ويسفهون عابديها، وينكرون على تلك المعبودات مكانها الذى وضعها الناس فيه... وتدور رءوس الناس بالأفكار، وتضطرب الآراء، ويكثر بينهم الجدل ويقع الصراع العقلى والمادى حول مالهذه الآلهة وما عليها.

وأبرز ما يظهر خلال هذا الصراع وفى المراحل الأولى منه اختصار هذه الالهة، وعزل الكثير منها.. فتصبح أعداداً قليلة، تقتسم الوجود فيما بينها، كما تتقاسم مشاعر الإنسان فى الولاء لها).

ويقرر أوجست كونت: أن العقل الإنسانى مر بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية.

وأن هذه الحالات تختلف فى الموضوع وفى المنهج، وفى التفسير، وأن لكل حالة نتائج نظرية ونتائج عملية، فأما الحالة اللاهوتية والحالة الميتافيزيقية فموضوعهما واحد وهو حقيقة الأشياء أو صميمها وكذلك أصلها ومصيرها هذا عن الموضوع وقد تطور كلاهما فى مراحل ثلاث فمرت حالة الالوهية بـ:

١ — الفيتشية: إضافة حياة روحية للكائنات الطبيعية على غرار الإنسانية،

٢ — تعدد الآلهة: يسلب فيها الإنسان الحياة التى أسبغها من قبل على

الأشياء ويضيف أفعالها إلى موجودات علوية غير مرئية وكانت هذه الموجودات فى نظره تؤلف عالماً علويا .

٣ — التوحيد : حيث جمع الإنسان الالهة المتعددة فى إله واحد مفارق وفى هذه المرحلة تتسع الهوة بين الاشياء و بين العلل التى تفسر بها تلك الاشياء

ومرت الميتافيزيقا بمراحل ثلاث أيضاً تقابل المراحل التى مرت بها حالة الالوهية :

١ — فتقابل الفيتشية إعتقاد الميتافيزيقيا أن هناك عللا ذاتية فى باطن الأشياء كما أن الفيتشية تعتقد بحياة فى الكائنات الطبيعية .

٢ — وفى حالة تعدد الإله يقابله فى الميتافيزيقا تقسيم الظواهر إلى طوائف وتخصيص كل طائفة بقوة فهناك القوة الكيميائية والقوة الحيوية

٣ — وحالة التوحيد فى الالوهية يقابلها فى الميتافيزيقا :

القول بقوة واحدة وإرجاع كل القوى إليها وهى قوة الطبيعة ، وتبلغ أوجها فى القول بوحدة الوجود ، فالميتافيزيقيا والألوهية يبحثان فى المطلق مثل حقيقة الأشياء وأصلها ومصيرها — هذا من ناحية الموضوع وأما من ناحية المنهج فالميتافيزيقا فالألوهية يختلفان ، فالألوهية منهجها الخيال ، والميتافيزيقا منهجها الاستدلال

وأما من ناحية التفسير فالالوهية قد بلغت أوجها فى الكتلة التى تؤلف تأليفاً عجيباً التفسيرات الفائقة للطبيعة ، فى فكرة إله واحد مدبر للكل بإرادته المتقلبة وهذا التفسير يضعف من سلطان القوى المفارقة ، وإذا ما إنتقلنا من الوجهة النظرية إلى الوجهة العملية : نجد أن الالوهية تختلف عن الميتافيزيقا ، فالالوهية من الناحية العملية تتخذ من المعانى اللاهوتية أساساً متيناً مشتركا للحياة الخلقية والاجتماعية وكانت هذه المرحلة الاولى مرحلة السلطة : سلطة الكهنة وسلطة الملوك .

وأما الناحية العملية فى الميتافيزيقا فتترتب على التفسير أيضاً فإذا كانت الميتافيزيقا تضع معانى أو قوى متعددة مكان الارادات المتتالية فإنه يضعف من سلطان القوى المفارقة وعلى هذا الاساس يبدو الانحلال فى انتشار الشك والانانية فيفصم الفرد الرباط الذى يربطه بالمجتمع . ويثقف العقل على حساب العاطفة . ويتصور الاجتماع ناشئاً عن تعاقد الافراد وتقام الدولة على مبدأ سلطة الشعب ويحكمها القانونيون والحالة الميتافيزيقية وإن كانت متفقة مع الالوهية فى الموضوع إتفاقا كبيراً فكلاهما يبحث فى أصول الاشياء وحقائقها ومصيرها إلا أنهما عند التفسير يختلفان وكذلك النتائج العملية التى تترتب على التفسير ، فالحالة الميتافيزيقية يحل المجرد فيها مكان الشخص فى حالة الالوهية فهما وإن إتفقتا بهذا الشكل إلا أنهما يختلفان إختلافا كبيراً كما قلت حتى أن الميتافيزيقا عندما أحلت المجرد مكان المشخص زلزلت كيان اللاهوت فالميتافيزيقا مرحلة متوسطة بين اللاهوت والواقعية .

وخلاصة القول أن الميتافيزيقا والاهوت يتفقان فى أن كليهما يتخذ من المطلق موضوعاً وأن إختلفا فى المنهج والتفسير . وكلاهما أيضاً يعتبر الملاحظة ثانوية .

والآن ننتقل إلى الحالة الثالثة وهى الواقعية لنرى الفرق بينهما وبين الميتافيزيقا والالوهية فى الموضوع والمنهج والتفسير والنتائج العملية فأما من ناحية الموضوع فالعقل يقصر بحثه على الظواهر واستكشاف قوانينها وترتيب هذه القوانين من الخاص إلى العام ، لأن العقل حينئذ يتبين له أنه لا يمكن الحصول على معارف فوق الظواهر ويقصر همه على الظواهر وقوانينها وترتيب تلك القوانين فى الوقت الذى يعتبر فيه المطلق هو موضوع الميتافيزيقا والالوهية ، وأما من ناحية المنهج فبينما نجد أن منهج الالوهية خيالى ومنهج الميتافيزيقا استدلالى .

والملاحظة ثانوية فى كليهما نجد أن الواقعية تعتبر الملاحظة هى المنهج الذى يؤدى إلى معارف حقيقية .

وأما من ناحية التفسير : فبينما تعتقد الألوهية والميتافيزيقا أن هناك عللا للكون على اختلاف فى تحديد هذه العلل تستعيض الواقعية عن تلك العلل بالقوانين التى هى العلاقات بين الظواهر . وهكذا اختلفت الحالة الواقعية عن الحالتين الاخريين فى الموضوع وفى المنهج وفى التفسير وهذه الطريقة « وأعنى بها طريقة الواقعيين » هى التى نجحت فى تكوين العلم ويجب على هذا الاساس أن يحل العلم الذى نشأ على هذه الطريقة محل الفلسفة فكما أمكن حل المشكلة عن طريق الملاحظة يجب أن تنتقل من مجال الفلسفة إلى مجال العلم .

والذى لا يمكن حله بتلك الطريقة ، يجب أن يكون بعيدا عن هذا المجال ، والحلول التى ينتجها العلم يجب أن تعتبر نهائية والمشاكل التى لا يستطيع العلم حلها يجب أن نعتقد أنها ليس لها حل وتاريخها ينطق بذلك . فمنذ وضعت لم تخط خطوة واحدة فى طريق الحل ونجاح العلم الواقعى بهذه الطريقة يحمل على الاعتقاد بأنه ممكن . وهو على هذا : المجال الحقيقى للعقل (١) إلى آخر هذه الافكار التى تؤيد اتجاه التطور بكل ما يعنيه من نتائج .

---

(١) رسالة ماجستير د . محمود عثمان عن يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧ وما بعدها .

نقد نظرية التطور

تمهيـــد :

قبل مناقشة هذا الإتجاه يجب أن نعلم الآتى :

١ ــ أن هناك فرقاً كبيراً بين الدين الحقيق وبين العقائد التى صنعها الإنسان أو تدخل فى صنعها وسميت « ديناً » تجوزا أو بالنظر لمعتقديها .

وقد سبق مناقشة مصدر الدين الحقيق وبيان ماينه ومابين العقائد الإنسانية المصطنعة من فروق تتلخص فى :

وضوح ذاتية الإنسان وأنانيته ، ضعفه وجهله نزعاته الغرزية وعدوانيته ، شعوبيته وعنصريته ، إلى غير ذلك مما يظهر فى العقائد التى يصنعها أو يتدخل فى صنعها ، أماالدين الصحيح الصادر عن طريق الوحى الصحيح فتظهر فيه :

حكمة الخالق وعلمه وإحاطته ، وقدرته ، وخبرته بشئون النفس الإنسانية ونظم الإجتماع وشمول النظرة ، إلى غير ذلك عما يدل على الدين الحقيق .

٢ ــ أن هناك فرقا واضحاً بين العقيدة والشريعة يكشف عن إمكانيات التطور فى كل منهما .

أما الفرق بين العقيدة والشريعة فهو : أن العقيدة إيمان بأشياء يراها المعتقد حقائق فيسلم بها وإن لم يملك الدليل على حقيتها .

أما الشريعة فنظام -- تخضع له حياة الفرد والجماعة ــ ينظم العلاقة بين الإنسان الفرد وبين غيره من الأفراد والكائنات الأخرى ، وبين الجماعة وغيرها من الأفراد والجماعات والكائنات الاخرى .

ولأن العقيدة إيمان فشأنها الثبات والاستقرار لاينوبها التغير والتبدل ولايصيبها الخلل والتحريف إلا إذا ظهر للمعتقد نقصها أو بطلانها ؛ ولا يظهر للمعتقد نقصها أو بطلانها إلا إذا كان مصدرها البشر أنفسهم ، أو إذا تدخلت فيها أهواؤهم وحتى إذا كان مصدرها البشر فإن التغير والتبدل والخلل والتحريف فى العقيدة يكون بطيئاً جداً ، لأن التطور فى هذه الشئون يحتاج إلى العقل الجمعى أو الاستعداد النفسى والعقلى العام .

فكأن العقيدة التى تصدر عن دين صحيح مصدره الوحى الإلهى ، لايصيبها التطور من قريب أو من بعيد ، كأصل إيمانى ، يتفرع عليها شرع عملى يرتبط بهذه الأصول التى تستقر وتثبت وتتوطد فى نفس المؤمن ولاتهتز أوتتزعزع ، يتناقلها الأجيال ، ويتوارثها الأعقاب ، وتعرض على العقول والعلوم الصحيحة ، فلا تجد معها إلا الإقتناع والتسليم ، إلا إذا تدخلت الأهواء وعبثت بها يد البشر .

وينتهى بنا المقال إلى أن العقيدة الصحيحة الواصلة إلينا عن طريق الوحى والرسالة لاتخضع للتطور ، فإذا أخضعت له كان ذلك تدخلا من البشر ، وحملا للعقيدة على الاهواء ، والاغراض التى تسرع بالعقيدة إلى الخلل ، وهوالخلل الذى تفضحه العقول السليمة والعلوم الصحيحة وتحاول أن تنفذ من خلاله دعاوى الماديين والملاحدة للتدليل على بطلان الصلة بين الخالق والإنسان عن طريق الوحى والرسالات .

أما الشريعة فلا يوجد اثنان يختلفان على تطورها تبعا لتطور الحياة الإنسانية ، ومن هنا كان تتبع الإنسانية بالشرائع يكمل بعضها بعضا ، ويجبر حديثها ، ما ينقص قديمها . حتى تجد الحياة منها مبتغاها ، ويكتمل نضج الإنسانية فتبلغ مراتب القدرة على إدارة حياتها وتوجيهها من خلال الشريعة الملائمة .

وكانت شريعة الإسلام آخر مراحل تتبع الإنسانية بالشرائع السماوية ، وبها أكتمل النضج الإنسانى وتوفر للإنسانية من التجارب والخبرات الاجتماعية ما يمكنها من إدارة حياتها على أساس من نتائجها ، وقد رصد القرآن هذه الخبرات والتجارب ودون نتائجها لتكون فى خدمة الإنسانية كلها . وصاغ من عائدها القواعد والأصول العامة للفكر وللسلوك الراشدين فمن استفاد من النتائج واعتمد القواعد لفكره وسلوكه ترقى وتقدم وسعد ، فردا كان أو مجتمعاً .

ومن لم يستفد من نتائج تجارب الأجيال فلم يعتمد قواعد القرآن لفكره وسلوكه لقى من الشقاء والتعاسة والتخلف والرجعية ما تسجله وقائع التاريخ وصفحات الزمان ، وهذا منطق العلم لمن يعلم ، وعائد العقل لمن يعقل .

وكيف لا ؟ والتجربة أصدق دليل على الحدث ؟ كما يقول العلم ، وكما يسلم العقل .

لقد قدم القرآن — وهو كتاب محسوس ملموس — القواعد والأصول التى تسمح بالترقى فكرا وسلوكا ، والتى يمكن من خلالها التواؤم مع كل حال وزمان . فدلل بذلك على ضرورة تطور الشرائع مع ما يجد على الحياة من علوم ومعارف ، لكنه أحاط هذا التطور بسياج من الضمانات والاحتياطات ممثلة فى القواعد والأصول العامة حتى لا تنحرف بالشريعة أهواء وأغراض وذاتيات الأنفس البشرية . فهل فى هذا ريب ؟ .

لكن لماذا تتطور الشريعة ولا تتطور العقيدة ؟ .

العقيدة كجزء من الدين مكانه القلب ، وكصلة روحية بين القوة العليا الخالقة لهذا الكون المديرة له على هذا النحو الرائع وبين الإنسان المخلوق

العاقل وصلت ما بين الإنسان فى طفولة إنسانيته ، وما بين الخالق فى ملكوته ، وما أيسر أن يدرك الطفل (لو سلمنا أن الإنسان الأول كان فى مستوى الأطفال) أن هذا الرجل أبوه أو عمه أو خاله ، وأن الرجل الآخر ليس له هذه الصفات فيطمئن إليــه ويلقاه حين يلقاه بقلب سعيــد ، وروح مرحة .

فاذا كان الإنسان فى طفولته الإنسانية قد عرف الخالق الذى علمه عن نفسه وطبيعتها ؛ وعن الكون حوله الشىء الكثير ؛ فقد عرف أن الله واحد لا شريك له ، وأنه سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه فى اليوم الآخر ، وأن له ملائكة يسبحون بحمده ويقدسونه وأن له من البشر رسلا إلى خلقه ، وكان آدم أحدهم إلى بنيه وذريته ، (إن الله اصطفى آدم ونوحا ... (١) .

فالايمان بالله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، والإيمان بملائكة لله يمثلون قدرته وعظمته وحكمته فى إدارة الكون وتقنين حركته يسبحون بحمده ، ويمتثلون لأمره ، والإيمان برسل الله إلى خلقه من خلقه يتلقون وحيه أو يكلمونه من وراء حجاب ، والإيمان باليوم الآخر والبعث والثواب والعقاب . الإيمان بهذه الأمور على هذه الصفه ، أصبح عقيدة كاملة الأركان واضحة المعالم منذ وجد أول إنسان على وجه الأرض . بلغت إلى الأنسان كحقائق موجودة لم يصبها ، تغيير أو تطوير من قبل الخالق ، وإن أصابها شىء من ذلك فمن قبل المخلوق . عرف الإنسان الاول هذه العقيدة بأيسر طريق ، وعرفها لأولاده ؛ دون تحريف .

وذلك لأن حدوث التطوير فى مثل هذه العقيدة يعنى وجود نقص فيها

---

(١) آل عمران ٣٣ .

فى وقت، من الأوقات أو فى حال من الأحوال ، وثبوت نقص فيها يثبت بعدها عن الحقيقة ، لأن الحقيقة إذا وجدت وبلغت لا يقع عليها التغيير وجودا وعدما أو نفيا وإثباتا ، أو نقصا وزيادة إلا من جانب الجاهل بها أو بوجودها أو بكمالها . فالحقيقة لا تتبدل ولا تتغير لأنها الحق والحق له وجه واحد .

ويستحيل أن يكون الخالق قد جهل شيئاً من هذه الاشياء ثم علمها فيما بعد ويستحيل أيضا أن يكون قد أوجدها ناقصة ثم أكملها أو أوجدها ثم نفاها ثم أوجدها ، فهذه الاحداث لا تصدر إلا من البشر وفى حالة اختلاف رؤيتهم للشيء . وإخضاع الشيء . لعلمهم ومعارفهم التى تزيد وتنقص تبعا للتطور ومن هنا كان دين الله واحدا من حيث الاعتقاد فقال أدم وقالت حواء يخاطبان الاله الواحد الاحد : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (١) إيمانا منهما بربوبيته ، وبحسابه ثوابه وعقابه .

وقال تعالى : وعلم أدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » (٢) .

وفى نبأ ابنى آدم هذه الحقيقة « واتل عليهم نبأ ابنى أدم بالحق إذ قربا

---

(١) الاعراف ٢٣ .

(٢) البقرة ٣١ — ٣٣ .

قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » (١) .

وهكذا بقى الاعتقاد الصحيح وسيبقى يتناقله الأجيال منذ آدم إلى قيام الساعة ، لم تنله يد التطوير والتغيير إلا من جانب البشر الذين انحرف بهم فكرهم أو هواهم أو عجزهم أو قصور عقولهم عن فهم الحقيقة فراحوا يتراجعون بهذا الإيمان شيئا فشيئاً فى محاولات لتقريب الحقيقة التى عجزوا عن إدراكها حتى أدى بهم هذا التراجع وتلك المحاولات إلى عبادة مظاهر الطبيعة ، فكان الإنسان إذن هو الذى انحرف بالاعتقاد لا الذى ارتقى به وطوره .

وصدق الله العظيم (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب) (٢) .

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون) (٣) .

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٤) .

---

(١) المائدة ٢٧ — ٢٩ .

(٢) الشورى ١٣ !

(٣) البقرة ٦٢

(٤) المائدة ٦٩

والمتتبع لسيرة الأنبياء والمرسلين جميعا يجد هذه الحقيقة ماثلة فى كل مايدعون الناس إليه من إيمان بالله الخالق وإيمان بالرسل ، وإيمان باليوم الآخر وإيمان بالملائكة هذا الإيمان الذى يتفرع عنه الامتثال للشرائع .

أما الشريعة فلأنها حركة تتابع لنمو الإنسانية والتطور أيضا حركة من نفس النوع تتطوع تبعا للمجال والزمان ، فالشريعة إذن تتطور تبعا للظروف والأحوال ، ولهذا كان التطور الدينى فى هذا الجانب ضرورة لموافقة الظروف والأحوال .

نوعية التطور والفرق بين التطور الذى جاء به الوحى والتطور الذى يصنعه البشر :

التطور الذى مرت به الأديان السماوية الحقيقية يفترق كثيرا جدا عن التطور الذى مرت به المعتقدات التى صنعها الإنسان بنفسه أو تدخل فى صنعها .

وللتطور الذى مرت به الأديان الحقيقية نوعان :

نوع كان من لدن الإله الخالق صاحب الدين الموحى به .

ونوع كان من جانب البشر الذين ارتأوا هذا التغيير وذلك التطوير .

أما تطوير الشريعة من لدن الخالق فقد تم بحكمة العالم المحيط الخبير بأسرار النفس الإنسانية ونظم الإجتماع ، ودراسة هذا التطوير وتتبعه من خلال منهج علمى يدل على أن صانع هذا التطوير إله قادر عليم محيط خبير .

فإذا كانت الإنسانية قد بدأت بآدم وحواء فإن محارم الزوجية لاتحرم إلا الأم ولا تمنع زواج الأخ بأخته عند ذاك ، حتى إذا ساعد التكاثر على تحريم هذا الزواج فإنه لم يساعد ابتداء على تحريم زواج العمات والخالات.

فإذا ساعد التكاثر مرة أخرى على تحريم زواج العمات والخالات ، فإنه لا يساعد فجأة على تحريم زواج بنات الأخ وبنات الأخت . . . وهكذا تدرج التشريع الإلهي بلوغاً بالإنسانية مراحل التقدم والنضج الفكرى تبعا لحاجة الانسانية وظروفها وقدراتها المادية والعقلية ، حتى وصل بالانسان إلى أرقى مراحل النضج من خلال أعظم أسلوب للتربية والتعليم والتوجيه.

فكان الدين الخاتم ، نتاج تجارب الأجيال ، والخطة النهائية لبناء الإنسان الكامل فلأن الانسان الكامل هو الحقيقة ذات الوجه الواحد فى كل عصر ومصر كانت قواعد بناءة قواعد أساسية يتضمنها دين الكمال بعد اكتمال عقل الإنسان وخبراته .

أسلوب التشريع الالهى:

يتضح من تتبع التشريع الالهى أنه قام على أسلوب علمى لاينكر هو أسلوب التربية والتعليم والتوجيه بالنظرية وبالتجربة .

أما النظرية فكانت برسالة الرسل والأنبياء وعظتهم وتبليغهم وحى الإله الخالق ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن .

وأما التجربة فكانت باحتكاك الرسالة بالعقول والبيئات والظروف الخاصة ، وتفاعل هذا الاحتكاك بالعقول والبيئات والظروف وما ينتج من العائد الاجتماعى والثقافى والنفسى والتاريخى المادى والمعنوى فتنقل هذه للتجربة ونتاجها إلى جيل آخر ومعها رسالة أخرى تحتك بمجتمع جديد يفترض أنه استفاد من تجربة السابقين ، وتجرى عملية التربية والتعليم والتوجيه بهذا الأسلوب العلمى جيلا بعد جيل ، حتى يجىء الجيل الذى تتحصل له كل التجارب ويمكنه أن يستفيد منها فيما يمكن أن يجد له من أحداث ويمكنه أيضا أن ينقل هذه التجارب ونتائجها إلى الجيل

الذى بعده دون حاجة إلى رسالة جديدة فكانت الرسالة الخاتمة .

ولهذا نلاحظ الأمور العلمية التالية :

١ — الرسالات التى سبقت الرسالة الخاتمة كانت خاصة ، لأن التفاعل الناتج عن الاحتكاك قد يؤدى إلى عملية تدمير وإبادة أو شبههما ، فاكتفى العالم الأكبر - رحمة منه بخلقه - بعينات من الشعوب أو الأمم ، تكفى التجربة معها بالحصول على القانون العلمى المطلوب لتعليم وتربية من يلى هذه العينة أو تلك . أو يعاصرها ، كاكتفاء العقلاء بالنظر إلى من صعقه التيار الكهربائى للتعلم والعلم بخطر التيار والبعد عن ممارسة نفس العمل الذى أدى إلى هلاك من وقع تحت التجربة .

٢ — كان كل رسول يكلف بالتبلغ يذكر قومه بالتجارب السابقة مع النظرية (الرسالة) التى جاء بها حتى حمل محمد صلى الله عليه وسلم تجارب الأنبياء والرسل أجمعين(١) .

٣ — جرت مع الرسالة الخاتمة تجارب رصدها القرآن عبرة للأجيال كلها بالاضافة إلى تجارب السابقين .

٤ — اعتمدت الرسالات السابقة لرسالة الاسلام على المعجزات المادية الحسية لأنها الطريق الوحيد لاثبات أنها وحى إلهى ، حيث لم يبلغ العقل

---

(١) راجع سورة الأعراف من أول قوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين إلى آخر السورة وسورة إبراهيم من أول قوله تعالى : الم يأتكم نبؤ الذين من قبلكم قوم نوح . الآيات .

الانسانى الاجتماعى مرتبة الكمال ، وشأن العقل الذى لم يبلغ هذه المرتبة ، ألا يقتنع بغير مايعجزه ، ولهذا كانت المعجزات من جنس مايبرع الانسان فيه مبالغة فى تحقيق الاعجاز .

٥ — لم تعتمد رسالة الاسلام على الاعجاز المادى لعمومها وخلودها ، والعموم والخلود يقتضيان تبليغها إلى البلاد والأجيال على يد أناس عاديين لايملكون تقديم معجزات ، ولهذا كان القرآن دليل المبلغين النظرى ، وهو كاف علمياً وعقلياً مع التجربة الاسلامية المدونة فى القرآن والسنة وفى التاريخ هى وعائدها الثقافى والاجتماعى والنفسى والحضارى المادى والمعنوى . والقرآن معجز عقلى يتحدى الانس والجن أن يأتوا بشىء من مثله .

٦ — القوانين العلمية المترتبة على التجارب الاجتماعية للتاريخ الإنسانى تدل على أن صاحبها محيط بتاريخ الإنسان منذ وجوده عليم بأسرار النفس ونظم الاجتماع ، قادر على تحديد مستقبل الإنسانية من خلال عمل كل شعب وكل أمة وكل دولة . (وسنفصل كثيرا من هذه الأمور عند حديثنا عن كل دين) . إن شاء الله .

* * *

يتضح من ذلك أن بامكان الإنسان أن ينتهى إلى معرفة التشريع الإلهى من التشريعات التى صنعها ويصنعها الإنسان وأن بامكانه أيضاً معرفة مواطن التطور وعلة هذا النوع من التطوير . خاصة إذا عرضنا لأسلوب التشريع الإنسانى .

أسلوب التشريع الإنسانى :

إذا تدخل الإنسان فى تعديل قواعد التشريع الإلهى تحت أى دعوى أو شعار أبان الإنسان عن هواه وظلمه لنفسه ولغيره (وما اختلف الذين

أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (١) .

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٢) .

لاختلاف الأهواء والأغراض ، وتعارض الحاجات الذاتية الفردية مع الحاجات الاجتماعية .

ومن حسن حظ الانسانية أن المنهج العلمي في هذا العصر أصبح قادراً على كشف وفضح ما يحرفه الإنسان ويدخله على الشرائع الإلهية أما الشرائع الإنسانية التي يصنعها البشر من عندهم ويديرون بها حياتهم سرعان ما يدب فيها الفشل والفوضى . أو ينوبها الخلل ، أو ينعكس أثرها على الانسان قلقا وشقاء وتعاسة .

فالنظام الذي يعيشه الإنسان وهو يعلم أن صانعه إنسان مثله ، لايكسب الاحترام والتقدير والامتثال مثلما يكسب النظام الإلهي .

وهذا مثل حي عاشته الأمة الأمريكية يصور قدة السلطة الالهية وضعف السلطة الدنيوية .

(أكبر تجربة جربها الانسان لاصلاح الأخلاق والسلوك الاجتماعي بقوة القانون وسلطة الحكم - وتشريعات الانسان - لا يوجد لها نظير في التاريخ وهي تجربة تحريم أمريكا للخمر .

قبل التحريم أقيمت في البلاد دعاية واسعة النطاق ضد الخمر ، وبقيت الرابطة المحاربة لوجود الحانات ، تسعى وتجتهد في ترغيب الأمريكيين عن الخمر ، وتثبيت مضـــارها في قلوبهم ، بإلقاء الخطب ، وتأليف الرسائل

---

(١) آل عمران ١٩ (٢) النساء ٨٢ .

والكتب وعرض المسرحيات ، وأفلام السينما ، وأفنت فى سبيل هذا التبليغ عشرات السنين ، وبذلت الأموال حتى أن نشرات النشر والاذاعة بلغت تكاليفها من لدن بدء الحركة إلى سنة ١٩٢٥ مبلغ خمسة وستين مليون دولار ، وأنه بلغ عدد الصفحات التى تسود بياضها لبيان مساوىء الخمر ، والزجر عنها تسعة آلاف مليون صفحة ، ذلك قبل التجربة . وأما ماتحملته الأمة الأمريكية فى الأربعة عشر عاما الماضية من النفقات الباهظة لأجل تنفيذ قانون التحريم فقد قدر مجموعها بأربعة ملايين ونصف مليون جنيه .

وتدل الاحصاءات التى أذاعها ديوان القضاء الأميركى للفترة بين يناير ١٩٢٠ وأكتوبر ١٩٣٣ أنه قتل فى سبيل تنفيذ هـذا القانون مائتا نسمة وسجن نصف مليون ، وغرم الجناة ما يربو على مليون ونصف مليون جنيه ، وصودر من الأملاك ما يساوى أربعمائة مليون جنيه .

كل هذا لغرض واحد هو تلقين الأمة الأميريكية المتحضرة مفاسد الخمر الجمة وتنبيهها إلى مضارها الروحية والصحية والأخلاقية والاقتصادية ، ولكن دون جدوى :

... وحاصل القول أن النتائج التى ظهرت فى أميركا عقب تحريم الخمر تتلخص فى أنه :

— زالت عن القلوب حرمة القانون ، ونشأت نزعة للبغى والتمرد عليه فى كل طبقة من طبقات المجتمع .

— لم تتحقق الغاية المقصودة من تحريم الخمر ، بل زاد استعمالها بعد التحريم عن ما كان عليه قبله .

— تجشمت الحكومة خسائر لا تحصى ، فى تنفيذ قانون التحريم ، ومثلها أصاب الشعب الاميركى لاشترائه الخمـــر خفية ، فتأثرت بذلك اقتصاديات البلاد .

— كثرت الأمراض ، واختلت الصحة وازدادت نسبة الوفيات ، وفسدت الأخلاق ، وشاعت الرذائل . وتفاحشت الجرائم فى جميع طبقات المجتمع وعلى الأخص فى النشء .

ظهرت هذه النتائج كلها فى دولة تعد من أرقى دول الأرض حضارة ، فى زمان آلق أزمنة التاريخ بضياء العلم .

* * *

ثم يقارن المودودى بين حالة أمريكا هذه ، وبين حالة العرب فى أظلم عصور التاريخ ، وكيف استطاع الإيمان أن يحقق مالم تقدر عليه المدنية والقانون إلى أن يقول : « وإن تدبرت أسباب هذا الفرق العظيم بين التجربتين تبينت أمورا هى كالأصول الكلية الثابتة لافى الخمر وحدها ، بل فى جميع مسائل القانون والأخلاق .

أولها : أنه فرق أساسى عظيم بين الإسلام والقوانين الوضعية فى تنظيم السلوك الإنسانى ، فالقوانين الوضعية تعتمد تماما على الرأى الإنسانى وهى مضطرة بطبيعة الحال إلى مراجعة رأى الخاصة والعامة فى كلياتها ، وأصولها بل فى كل فرع منها ، وشأن الرأى الإنسانى - سواء كان للخاصة أو العامة . إنه لايزال يتأثر فى كل آن بالعواطف والنزعات الإنسانية ، والأسباب والعوامل الخارجية ، وأحكام العلم والعقل القابلة للتغير - مما يلزم أن يكون صوابا فى كل حال - وهذا التأثر يؤدى إلى التغير فى الأفكار والآراء ، وبهذا التغير تتبدل بالضرورة مقاييس الخير والشر والصحيح والخطأ والجائز والمحظور والحرام والحلال واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن يميل معها حيث مالت ، وبذلك لايتحقق للأخلاق والمدنية مقياس ثابت مستحكم غير قابل للتغير ، بل يتحكم تلون الطبع الإنسانى فى القانون وتلون القانون فى الحياة الانسانية » . . .

وبخلاف ذلك إن جميع الأصول الكلية ومعظم الفروع الجزئية للقانون والأخلاق فى الاسلام هى من وضع الله والرسول ، وليس للرأى الانسانى إلى التدخل فيها من سبيل ، وإن كان له بعض الدخل فى الجزئيات فهو لا يعدو أن يستنبط الانسان فروعا جديدة من تلك الأصول الكلية والشواهد الجزئية مراعاة لأوضاع حياته المتبدلة ، تنطبق على أصول الشرع حتما ، ومن بركات هذا التشريع الربانى أنه يضع بأيدينا مقياسا ثابتاً للمدنية والأخلاق لا يتزلزل فلا يكون فى قوانينا الخلقية والمدنية أثر للتلون ، ولا يمكن أن يصبح حرام الأمس حلالا اليوم ثم يعود حراماً غداً .

والأمر الثانى الخطير أن السلطات الدنيوية إذا أرادت وضع القواعد الانسانية ومحاولة الاصلاح فى التمدن والأخلاق والاجتماع ، فهى تحتاج فى كل مسألة فرعية استرضاء عامتها للإصلاح المنشود فيها قبل أن تتولاه وتأخذ فى العمل له .

ولذلك يتوقف نفاذ كل مادة من مواد قانونها على إرضاء الجماهير ، وكل ما ينفذ فى البلاد من قانون إصلاحى أو تنظيمى بخلاف رضاهم ، فإنه لامحالة ينسخ ويلغى آخر الأمر بعد كثير من الفساد ، واضطراب الأحوال .

وليس هذا ما جربته أمريكا وحدها ، وإنما تشهد به تجارب الدنيا بأجمعها وهذا دليل على أن القوانين المدنية عقيمة نكدة لاتغنى شيئاً فى إصلاح الأخلاق والاجتماع ، لأن المفسدين الذين ترمى هذه القوانين إلى إصلاحهم هم الذين يتوقف على رضاهم تقرير تلك القوانين أو رفضها وتنفيذها أو إلغاءها وقد حل الاسلام هذه العقدة بطريق آخر ، إن تأملته علمت أنه لاحل لهذه المشكلة سواه : وهو أنه قبل أن يتعرض لمسائل التمدن

والاجتماع والأخلاق وقبل أن يطالب الانسان بإطاعة قوانين الشرع يدعوه أن يؤمن بالله وبكتابه ورسوله .

أما قبول الانسان دعوته أو رفضه إياها فلاشك موقوف على رضاه ، وهو مختار فى أن يؤمن أو لا يؤمن : ولكنه متى آمن بالله والكتاب والرسول بطل كل سؤال بعد ذلك عن رضاه أو عدم رضاه ، وأصبح كل ما يأمره به الرسول عن الله تعالى ، وكل ما يقوده كتاب الله أمراً واجب الاذعان له . . وبذلك تحقق فى دنيا الاسلام باعلان واحد مالم يتحقق فى أمريكا على الرغم مما أهلك فى سبيله من جهد ومال .

العبرة الثالثة : أن جماعة إنسانية مهما توفر نصيبها من نور العلوم والفنون ، ومهما علا مقامها فى سماء الارتقاء العقلى لايمكنها التخلص من براثن الهوى مالم تكن مطيعة القانون الربانى ، ومتمتعة بقوة الايمان [1] .

وهكذا يظهر لنا الفرق بين العقيدة والشريعة كما يتبين الفرق بين العقائد والتشريعات الانسانية وبين العقائد والتشريعات الالهية فيتضح بالتالى مواطن التطور وعلته .

وعلى هذا يكون القول بتعميم نظرية التطور وسحبها على جميع العقائد والأديان قولا لايستند إلى أساس .

فساد نظرية النشوء والارتقاء

أما استناد أصحاب دعوى تطور الأديان والمعتقدات تبعاً لتطور الفكر

---

(1) ص ٦٥ — ٦٩ نحن والحضارة الغربية ، المودودى .

البشرى إلى نظرية النشوء والارتقاء العضوى فيقوض هذا الاستناد من أساسه ، فساد نظرية النشوء والارتقاء ذاتها .

حيث ثبت اعتماد النظرية على التخمين والخيال - كما سبق - فلا تعد بذلك علمية ، ولا صلة لها بالعلم .

فلم يثبت أن واحداً من نماذج الانسان القردى المكتشفة له حوض الانسان ولم يثبت أن هذا الانسان القردى مرحلة بدائية لتطور الانسان الحقيق ، وأغلب الظن أن كل مايستند إلية أنصار نظرية النشوء والارتقاء نوع من الوحوش المنقرضة قريبة الشبه فى تكوينها بالتكوين الانسانى أو القردى أو كليهما ، وإلا فكيف تمكن العلماء من العثور على حفريات للكائنات الحية الأخرى التى سبق وجودها وجود الانسان بأزمنة سحيقة ، وفى نفس الوقت يفشلون فى العثور على الحلقة الوسطى الحقيقية بين القرد والانسان ، وإذا كان بعضهم قد أطلق على ما اكتشفه من نماذج اسم الانسان أو اسم الانسان القرد فهذه طريقة غير دقيقة وغير علمية ، كذلك لم تجز حيلة أرنست هيكل على العلماء حينما حاول البرهنة على نظرية التطور بعرض صورة مزورة لجنين القرد وجنين الانسان لكى يثبت تطابقهما ولم تلبث حيلته أن افتضحت وكان عمله هذا رمزا على الخداع وعدم الاخلاص فى الميدان العلمى . . . . وعلى الرغم من محاولات كوهلر وغيره – فى هذا الشأن فإن القردة العليا تعجز عن الربط العقلى أو استخدام العقل للخروج من المآزق الجديدة ، بينما يستطيع الانسان أن يجد حلولا لما يعرض له من مشكلات جديدة لم يسبق أن واجهها من قبل ، وهذا هو سر تقدمه .

ولنفرض جدلا أن الانسان الأول قد تطور عن القردة العليا ، فلماذا تبقى القردة فى بيئة واحدة جنباً إلى جنب مع الانسان الأول ، ولا تتطور

فتصبح من بنى الانسان مع أن التطوريين يؤكدون أن التطور يخضع لعاملى البيئة والوظيفة (١) أو على الأقل لماذا لم يهذب القرد الأعلى من مستوى حياته فيعمل على ستر جسمه ، أو يتمرد على نظام حياته الرتيبة ، فكل ما انتهت إليه البحوث فى محاولاتها للربط بين القرد والانسان مجرد خيالات وأوهام .

(١) أنظر هامش صفحات ١٩٢ — ١٩٧ الفلسفة ومبادئها د محمد علي أبوريان .

الفصل الثالث

نقد التطور فى ضوء
الأديان والمعتقدات البدائية والقديمة

معتقدات الانسان البدائى .

الأساطير — الطوطمية

معتقدات الانسان البدائى

١ ـ الأساطير : أصلها وتفسير هذا الأصل :

يرى كثير من الباحثين أن الأساطير هى أصل الدين بين البدائيين والهمج ، ويستندون فى رأيهم هذا إلى : أن المعتقدات البدائية والهمجية تختلط بالأساطير فى جميع القبائل البدائية ، وإلى ما أثبتته الدراسة العلمية ـ فى اعتقادهم ـ للجماعات البدائية من أن الأسطورة عند الانسان القديم الموغل فى القدم أو البدائى تعنى قصة واقعية ، بل إنها قصة لها مكانتها الرفيعة فى حياته لأنها مقدسة .

يقول برونسلا والينوفسكى : « . . الأسطورة تقوم فى الثقافة البدائية بوظيفة لاغناء عنها ، فهى تعبر عن العقيدة وتذكيها ، وتقننها وتصون الاخلاق وتدعمها ، وتبرهن على كفاءة الطقوس وتضم قواعد عملية لهداية الإنسان » (١) .

والأسطورة نتاج فكرى وثقافى ، تصور فكر وثقافة الانسان البدائى فتروى تاريخا مقدسا فى نظر هذا الانسان ، أو تسرد حدثا وقع فى عصور معنة فى القدم ، أو تحكى على أنها من وحى كائنات خارقة ، فتصور كيف برزت هذه الكائنات إلى الوجود وكيف أصبحت حقيقة واقعة فى نظر أصحاب الأسطورة ، وقد تكون هذه الكائنات الخارقة آلهة أو أشباه آلهة فتفسر الأسطورة أعماله وقدراته مع ظواهر الطبيعة والكون والإنسان .

ولان الرجل البدائى لا يعدو أن يكون طفلا فى تفكيره وسلوكه أو

(١) الحكاية الشعبية د عبد الحميد يونس ص ١٨ ، ١٩ .

يكاد ، فكانت الصخور الغريبة الشكل أو الكتل الخشبية أو الاشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لعينة مهمة وذات مغزى خطر ، أومنذرة بالثبور أو مظهرة المودة ، فكانت أحلام هذا الرجل وأوهامه وخيالاته تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ، ماكان يصبح مقبولا ومصدقا عندما يروى ، ثم يصبح فيما بعد محترما ومقدسا ، وإن كانت تنزع فى تفسيرها إلى التشخيص والتجسيم وتمثل أشياء غريبة فهذا شأن واسعى الخيال من الأطفال الذين يخترعون إلى يومنا هذا قصصا طويلة بطلها دمية محبوبة أو حيوان مستأنس ؛ أو كائن خيالى ، ولهذا نجد الأسطورة تنأى عن التحليل والتعليل والسببية .

ومن ثم أصبحت الاسطورة عند الإنسان البدائى عقيدة لها طقوسها وقدسيتها .

أصل الأسطورة وصلتها بالعقيدة ومحاولات تفسيرها :

كانت الأحلام والخيالات والأوهام تجعل الرجل البدائى يلوم حيوانا أو نباتا أو شيئاً آخر أو يلتمس منهم المعونة ، فكانت النصائح التى تصدر من رجل بدائى لآخر تقترن بصورة مبشرة أو منفرة بدأت بها حكايات عن هذا الحيوان أو النبات أو الشىء الآخر تفسيرا للنصائح والتحذيرات التى تقدم ، حتى أخذت بعض العقول الأكبر سنا والاثبت جنانا والأقوى قليلا من العقول الأخرى تأخذ وضع الكهان ، وتتصدر للنصح ووصف الوصفات وإصدار الاوامر ، وتفسير الأحلام ، وعمل التعاويذ التى تجلب الحظ وتجنب النكبات — فى نظرهم — فكانت الحكايات الاسطورية طريقهم لاقناع الآخرين حتى صاروا يملون على الناس طريقة العمل والتفكير فكانت الاسطورة أو الحكاية الاسطورية منبعاً للعقائد ، لكن الامر يبدو أشد تعقيدا فى نظر الباحثين .

يقول الدكتور عبد الحميد يونس فى كتابه الحكاية الشعبية :

لقد أصبحت الأساطير مادة خصبة من مواد الدراسة الإنسانية ، ولها علم قائم برأسه هو علم « الميثولوجيا » أو علم الأساطير ..

ولقد جرت عادة الكاتبين إلى عهد قريب ، أن يتوسعوا فى فهم مصطلح الاسطورة ، وهناك آحاد لا يزالون يستعملونها بتلك الدلالة غير المحكمة الاسطورة عند أولئك وهؤلاء عبارة عن « ما لا علاقة له بالواقع » أو بعبارة أخرى ، ما لا وجود له فى الواقع » ويبدو أن هذا الاستعمال امتداد لما كان عليه المصطلح فى القرن التاسع عشر بأوروبا ، فقد كان يعنى وقتذاك ما يناقض الواقع .

ثم يقول : « وأغلب الظن أن هذا الفهم للاسطورة جد قديم ، فقد نقد بعض الفلاسفة اليونان الشاعر « هوميروس» صاحب الإلياذة والأوديسا وعدو الاساطير التى أوردها مجرد تهاويل خيال . ورفض « اكزونوفون » أن يتصور الآلهة تتحرك من مكان إلى مكان - كما روى هوميروس - ولم يقتنع بخلود الآلهة الذى قال به هوميروس وهيزيود ، ونقد هذا الفيلسوف تشبيه الآلهة بالمخلوقات ، ذلك لأن الخيل والانعام والوحوش كانت تصور الآلهة على مثالها ، لو أنها أعطيت يد الإنسان وقدرته على الرسم ، ونحن نجد فى هـــذا النقد محاولة لتنقية مفهوم الألوهية مما علق به من شوائب التشبيه الذى يضطر الشاعر إليه .

وعلى الرغم مما وجه من نقد إلى هوميروس وهيزيود وغيرهما ، فقد ظلت الاساطير تثير اهتمام الصفوة من المثقفين فى أرجاء العالم الذى تأثر بالفكر الهليني ، بيد أن الاساطير لم تعالج حرفياً ، وإنما أخذ المهتمون بها يبحثون عن معانيها الخفية ، ورأى بعضهم أن أسماء الآلهة التى أوردها هوميروس إنما تمثل الملكات الإنسانية ، أو العناصر الطبيعية ، ورأى

البعض الآخر أن هذه الاساطير عبارة عن رموز ومجازات لقوى ومثل ومعان ، ولم تعد الآلهة عند هؤلاء غير مبادىء أخلاقية ونواميس طبيعية ، فعندما تقول الاسطورة مثلا أن « زيوس » شد وثاق « هيرا » فهذا أن الاثير هو حد العالم ونهايته ثم ظهر اتجاه آخر يفسر الاساطير ويتخذ بدوره منهجا عقلانيا فيذهب إلى أن الآلهة كانت فى الاصل طائفة من الملوك القدامى بلغوا من المكانة والسلطان وبعد الصيت حدا جعل الناس يؤلهونهم فيما بعد .

وهكذا برز اتجاه يرى أن للاساطير واقعا تاريخيا ، أو لعل الاصح أن تقول : لقد أصبح للاساطير واقع فيما قبل التاريخ ، وأخذت الاساطير تمثل الذاكرة الإنسانية المشوشة أو التصوير الخيالى للملوك فى عصور سحيقة غلبت عليها البداءة .

وذاعت المباحث حول الاساطير فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على يد « ماكس مولر » الذى يذهب إلى أن الاسطورة نشأت من عيب فى اللغة يجعل للشيء الواحد أسماء متعددة ، كما أن الإسم الواحد قد يطلق على أشياء مختلفة .

ونتج عن هذا العيب خلط بين الاسماء جعل الناس يعتقدون أن الآلهة المتعددة ليست إلا صوراً من إله واحد ، كما جعلتهم يتصورون الاله الواحد فى صورة آلهة متعددة ، بل إن استعمال المقاطع الاخيرة للدلالة على الجنس تذكيراً وتأنيثاً ، قد أدى إلى تشخيص الالهة .

وفى رأى مولر : أن الآريين أنشأوا هيكل آلهتهم حول الشمس والفجر والسماء ، وهذا المنهج الاسطورى الذى يتركز حول الشمس كان موضع انتقاد علماء آخرين على رأسهم أندرولانج الذى أكد أن الاساطير

ليست نتيجة عيب فى اللغة ، ولكنها نشأت من تشخيص العناصر الكونية وهى مرحلة من مراحل الفكر تتسم بالتجسيم وإسباغ الحياة على المحسوسات والكائنات والظواهر .

وجاءت المدرسة الأنثربولوجية الانجليزية التى حاولت أن تفسر أساطير الشرق الأدنى وبلاد اليونان بمصطلحات الطقوس والممارسات السحرية ، ويذهب فريزر إلى أن دورة النماء والذبول هى التى أبدعت صورة الاله المتحضر وأسطورته .

ويرى بعض علماء الأساطير أن الطقوس قد سبقت نشأة الأسطورة التى تعد عندهم تفسيراً تمثيلياً للطقوس . . . ومهما يكن من شىء فإن العلماء الآن يكادون يجمعون على الرابطة الوثيقة التى لاتنفصم بين الأساطير والطقوس(١) .

فكأن الأساطير فى نظر كثير من العلماء أصل للمعتقدات الدينية ، لأن العقائد قد تلبست بالأساطير فى جميع القبائل الفطرية كما يقول العقاد(٢) .

وسنعرض الأساطير لدى كل أمة عند دراستنا لمعتقدات دول الحضارات القديمة ونناقشها . إن شاء الله ويكفينا هنا أن نقرر بعد هذا الاتجاه عن الحقيقة تماما حيث يعتمد هؤلاء على نظرية النشوء والارتقاء التى سبق بيان فسادها .

أما الآن فنعرض للطوطمية أشهر المعتقدات البدائية .

٢ — الطوطمية :

عرفنا مما سبق أن كلمة طوطم تطلق على كل أصل حيوانى أو نباتى تتخذه

(١) الحكاية الشعبية ص ١٥ — ١٨ (٢) الله ص ١١

عشيرة مارمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها ، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة إجتماعية ، وتنزله وتنزل الأمور التى ترمز إليه منزلة التقديس .

كما عرفنا أن معظم الطواطم تتألف من فصائل حيوانية ونباتية ، كفصائل الذئب والثعلب والنمر والكنغر والحمام والطاووس ، وكفصائل شجر البلوط والموز والمطاط .. والطواطم الحيوانيه أكثر عدداً وأوسع انتشاراً من الطواطم النباتية ، وقليل من الطواطم مايتمثل فى جماد أونجم أو مظهر من مظاهر الطبيعة

فمن بين الطواطم الخمسمائة التى كشف عنها هويت Howit عند العشائر الجنوبية من سكان استراليا يرجع أربعمائة وستون منها إلى طواطم حيوانية ونباتية ، وأربعون فقط إلى طواطم غير حية يتمثل معظمها فى مظاهر الجو والسماء والطبيعة ، كالشمس والقمر ، والكواكب والصيف والشتاء والخريف والسحاب والمطر والبرد والريح والنار والدخان والماء والبحار .

ويقصد من الطوطم الحيوانى أو النباتى ، الفصيلة العامة التى ينتمى إليها الحيوان أو النبات لافرد معين أوأفراد معينون من أفرادها . فحينما يكون توتم العشيرة الثعلب مثلا يكون المقصود فصيلة الثعلب على العموم لاثعلباً معيناً أو ثعالب معينة من هذه الفصيلة ، فالعشيره فى هذه الحالة تعتقد أنها هى وفصيلة الثعلب من طبيعة واحدة ، أى أنه يتألف منها ومن هذه الفصيلة الحيوانية وحدة اجتماعية أو مايشبه الأسرة الواحدة ، ويتخذ الثعلب رمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها وتنزله منزلة التقديس .

وبجانب الطوطم الخاص بالعشيرة يوجد الطوطم العام للاتحاد الذى تنتمى إليه العشيرة ، والاتحاد عبارة عن مجموعة من العشائر يعتقد أنها ترجع فى القديم إلى أصل واحد .

فلكل عشيرة إذن طوطمان : طوطمها الخاص بها ، والطوطم الاتحادى

العام الذى تشترك فيه مع عشائر اتحادها، وكما تقدس العشيرة طوطمها الخاص بها تقدس كذلك طوطمها الاتحادى العام(١) .

مظاهر التقديس :

من أهم مظاهر تقديس الطواطم : أنه يحرم على جميع أفراد القبيلة أو العشيرة أن يمسوها — أى الطواطم — بأذى أو إساءة ، كما يحرم عليهم أن يدخلوا إلى بطونهم شيئاً من عناصرها ، فإذا خالف أحدهم هذه القواعد يعد فى نظر قبيلته مجرما ، ويسود الاعتقاد بأن هذه المخالفة تؤدى فى صورة تلقائية إلى موت المجرم عاجلا أو ببطء أو إلى وقوعه تحت طائلة العذاب والأذى الذى يصيبه فى جسمه ، أو فى نفسه . .

ومن مظاهر تقديس الطواطم أيضاً ما يرى من بعض العشائر تجاه الطواطم من إلتزام أفراد العشيرة بطقوس خاصة كطقوس الحداد عند موت فرد من أفراد فصيلة الطواطم الذى تنتمى إليه ، أو عند العثور على جثته ، ومن قيام بدفنه فى حفل خاص يحاط بالرهبة وبطقوس دينية خاصة،

ومن مظاهر التقديس الطوطمية كذلك أن أفراد القبيلة أو العشيرة يستمدون من طوطمهم العون فى مختلف المناسبات ، وخاصة فى الحروب، ويعلق به فى هذه الشئون كثير من المعتقدات كالتفاؤل والتشاؤم والفرح والاكتئاب عند هذه القبائل أو العشائر .

ومن ذلك ما يعتقد السموائيين Samoans (سكان أرخبيل ساموا بجوار زيلندة الجديدة) من أنه إذا حدث بالصدفة أن اتفقت حركة الجيش مع تحرك الطائر الطوطمى فرئى وهو يطير أمام كتائب الجيش ، كان ذلك

---

(١) الطوطمية ، د . على عبد الواحد وافى ص ١٣ وما بعدها

دليلا على أنه سيكتب له النصر فى المعركة التى سيخوضها أو المعركة المقبلة وإن رئى وهو يطير فى اتجاه مضاد لإتجاه الجيش كان ذلك آية على أنه ستكتب عليه الهزيمة والإنكسار إن أصر على الذهاب إلى ميدان القتال والأصح بالنسبة لمثل هذا الموقف هو التراجع (١) .

ولعل هذه المظاهر التى تقترن بالطواطم هى التى أدت إلى وصف هذه الأعمال بأنها ديانات أو أصول الديانات .

ومن هنا ذهبت طائفة من العلماء الذين يهتمون بدراسة الانسان والأديان إلى إيجاد صلة وثيقة بين الطوطم والدين ، فيذهبون إلى أن الطواطم تمثل أصلا للأديان بين البدائيين والهمج مستندين إلى ما تحقق من أن شعائر الطواطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية فى استراليا وأفريقيا والأمريكتين وبعض القارة الآسيوية وجزائرها .

فلا تزال فى هذه القارات قبائل كبيرة وصغيرة تتخذ لها على الأكثر حيواناً تجعله طوطما وتزعمه أبالها ، أو تزعم أن أباها الأعلى قد حل فيه ، وقد يكون الطوطم فى بعض الحالات نباتاً أو حجراً يقدسونه كتقديس الأنصاب .

وإذا اتخذت القبيلة أو العشيرة « طوطما » لها حرمت قتل أحد من أفراده وحرمت أكله أو شربه أو ما تراه يؤذى هذا الطوطم ، وحرمت أيضا الزواج بين الذكور والاناث الذين ينتمون إلى ذلك الطوطم ولو من بعيد ، وقد يكون للقبيلة الكبرى بطون متفرقة تتعدد طواطمها ويجوز الزواج بين المنتمين اليها ! ولكنهم يحرمونه فى الطوطم الكبير ومخالفة هذه القواعد يعد فى نظر هذه القبائل أو العشائر من أكبر الجرائم .

ومن هذه العلاقة يرجح الدارسون أصحاب القول بأن الطوطم أصل

---

(١) الطوطمية ، د . على عبد الواحد وافى ص ١٤ — ١٨ .

الأديان قولهم ، ويستندون إلى مظاهر التقديس العديدة التى ذكرنا بعضها بالإضافة إلى شيوع الشعائر الطوطمية بين الذات من القبائل الهمجية .

بعض قواعد استثنائية :

ويستثنى من هذه القواعد بعض حالات حددتها التقاليد ، فمن ذلك أنه يباح لأفراد العشيرة فى بعض المناسبات الدينية أن يطعموا من طوطمهم الخاص ، أو طوطم اتحادهم العام على أنه طعام ربانى مقدس ، كما يباح ذلك أيضاً للواحد منهم عند الضرورة القصوى بحيث لايجد أمامه إلا طوطم عشيرته أو طوطم اتحاده ، كما يباح ذلك على الإطلاق إذا كان الطوطم لاتمكن الحياة بدونه كالماء وما إليه ، ويباح قتل الطوطم فى حالة الدفاع المشروع عن النفس ، واتقاء الأذى ، وخاصة إذا كان الطوطم مفترساً أو مؤذياً بطبعه كالنمر والثعبان وما إليهما .

ولكن جميع الحالات التى يباح فيها الاعتداء على الطوطم أو تناول شيء من عناصره مقيدة فى طرق تنفيذها بقيود وطقوس كثيرة تدل أوضح دلالة على أنها حالات استثنائية ، وعلى أن الأصل فى ذلك هو التحريم ، ففى حالة الضرورة مثلا ، لايباح للفرد أن يتناول من الطوطم أكثر من القدر الذى يسد رمقه وينقذه من الهلاك ، ولا يجوز له فى هذه الحالة عند كثير من العشائر ذبح الحيوان أو قلع النبات الطوطمى بنفسه ، بل يجب أن يتولى ذلك عنه فرد من اتحاد آخر غير الاتحاد الذى تنتمى إليه عشيرته إلا إذا تعذر وجود هذا الوسيط فى موطن قفر ، ولم يكن ثمة سبيل لإنقاذ حياته إلا أن يتولى ذلك بنفسه .

وتطبق هذه القاعدة حتى على الطواطم التى تتوقف الحياة عليها .

ففى العشائر التى تتخذ الماء طوطما لها أو لإتحادها لايصح لفرد من

أفرادها أن يخرج الماء بنفسه من البئر أو النهر ، بل يجب أن يتولى ذلك عنه فرد من اتحاد آخر غير الاتحاد الذى تنتمى إليه عشيرته .

وفى حالة الدفاع المشروع عن النفس واتقاء الأذى لايجوز قتل الطوطم إلا إذا تقطعت بالفرد الأسباب ولم يجد سبيلا آخر غير ذلك .

فالعشائر التى تتخذ طواطمها من الحشرات المؤذية مثلا ، لايباح للفرد أكثر من طردها عنه ، مادام طردها يقيه شرها ويدفع عنه أذاها ، وفى كثير من العشائر يتحتم على الفرد فى مثل هذه الضرورات أن يستغفر من ذنبه ويندم على مافعل ، وألا يدخر وسعاً فى تخفيف العذاب عن الطوطم فى حالة قتله أو طرده .

غير أن بعض العشائر غيرت من هذه النظم الأصيلة ما ييسر عليها حياتها فأباح بعضها أكل الطوطم بمقادير خاصة فى غير حالات الضرورة ، وأباح بعضها ذلك على الاطلاق للشيوخ الذين بلغوا منزلة خاصة فى سلم الوظائف الدينية ، ولطبقة السحرة والكهان ، وأجاز بعضها أكل أجزاء خاصة من الطوطم يعتقد أنها أقل قدسية من غيرها .

وجعل بعضها التحريم مقصوراً على الطوطم بعد بلوغه سناً معينة ، وذلك لاعتقادها أن قدسيته تظل ناقصة مادام لم يصل بعد إلى هذه السن . ولا يطبق هذا الحظر ولا هذا التقييد إلا حيال الطوطم الخاص بالعشيرة التى ينتمى إليها الفرد والطوطم العام للاتحاد الذى تنتمى إليه عشيرته . — كما سبق — .

أما الطواطم الخاصة بالعشائر التى تنضوى مع عشيرته تحت اتحاد واحد فيحل له أن يطعم منها ، على أن يتولى الحصول عليها وإعدادها وتقديمها وسيط من اتحاد آخر غير اتحاد عشيرته ، وأما الطواطم الخاصة

بالعشائر الخارجة عن اتحاده والطواطم العامة لإتحادات أخرى غير اتحاد عشيرته ؛ فيباح له أن يطعم منها ، ويسلك حيالها أى مسلك يطيب له بدون قيد ولا شرط (١) .

رأى مخالف :

مما سبق من اللوازم الطوطمية التى استدل بها أصحاب القول بأن الطوطمية أصل المعتقدات الدينية ؛ يستدل المخالفون لهذه الفكرة من الباحثين بنفس الأدلة — من مظاهر التقديس والاستثناءات والمحرمات والمباحات — على أن الطوطمية لم تكن أصل العقيدة الدينية .

لأن الأمور والتى اقترنت بالطواطم تنشأ بعد اتساع القبائل واعترافها بأنظمة الزواج ، وآداب المعاملات ، وليست هذه المرحلة أولى المراحل فى تطور الاعتقاد ، كما جاء فى كتاب « الله » للعقاد الذى علق على ذلك بقوله :

« ولاشك أن الناس قد عرفوا شيئاً يسمى الروح يحل فى جسد الحيوان أو يتلبس به قبل أن يعرفوا الطموطمية ؛ وعرفوا كذلك تقديس الأسلاف قبل أن يعرفوها ، وقد وجدت قبائل شتى تتخذ الطواطم وتعبد أرباباً غيرها ، ووجدت قبائل لاتخلع على الطواطم صفة الأرباب على الإطلاق » (٢)

ويحسن بنا أن ننقل هذا البحث فى تفسير النظام الطوطمى كما أورده الدكتور على عبد الواحد فى كتابه : (الطوطمية أشهر الديانات البدائية) من سلسلة اقرأ ص ٩٥ ومابعدها .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ — ١٧ .

(٢) ص ١٥

تفسير النظام الطوطمى ورجعه إلى أصوله من كتاب « الطوطمية » .

اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً فى تفسير النظام الطوطمى ، وفى شرح ما يتضمنه من عناصر ، وبيان ماعسى أن يرجع إليه من أصول ، وترجع أهم النظريات التى قيلت فى هذا الصدد إلى ثلاث نظريات يعرضها ويناقشها الدكتور على عبد الواحد وافى ، وننقلها كما هى بنصها ثم نعقب عليها :

١ — نظرية تايلور وويلكن

يرى تايلور وويلكن أن الطوطمية قد انشعبت عن عبادة الأرواح ، وأن هذا الإنشعاب قد نشأ عن طريق ما يعتقده كثير من الشعوب البدائية وغيرها من إمكان « تناسخ الأرواح » وحلولها فى غير أجسامها الأولى فأرواح السلف كانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم ، وكانت فى مبدأ أمرها قائمة بذاتها منفصلة عن الأجسام ، ثم أخذ الاعتقاد بتناسخ الأرواح يتدخل شيئاً فشيئاً فى هذا الموضوع حتى انتهى الأمر ببعض الشعوب البدائية إلى الظن بأن هذه الأرواح قد حلت فى أجسام بعض الحيوانات أو بعض النباتات ، فأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات مقر الأرواح السلف من الآباء والأجداد ، واتجه إليها التقديس ، ولكنه كان يتجه إليها بالتبعية ، ويتجه بالأصالة لما تتقمصه من أرواح ومع تقادم العهد تنوسى هذا الأصل ، وأصبحت هذه الحيوانات وهذه النباتات مقدسة لذاتها فنشأ من ذلك مانسميه بالنظام الطوطمى .

وقد أورد تايلور وويلكن لتأييد نظريتهما هذه عدة شواهد اقتبساها من ملاحظة بعض الظواهر الدينية فى جزر جاوة وسومطرة وميلانيزيا .

فمن ذلك مثلا أنه فى بعض هذه الجزر يقدس الناس التماسيح ويقدمون

لها القرابين ، ويعللون مسلكهم هذا بأنهم إنما يقدسون أرواح السلف التي حلت في هذه الحيوانات .

غير أنه يلاحظ أن جميع الشواهد التي قدماها بين يدي نظريتهما مقتبسة من شعوب قد تطورت فيها الطوطمية تطوراً كبيراً حتى خرجت عن أصلها وأخذت تستحيل إلى نظام ديني آخر .

فمن الخطأ النظر إلى شعائر شعوب هذا شأنها على أنها ممثلة لهذا النظام في مبدأ نشأته كما يزعم أصحاب هذه النظرية .

وإن المبادىء الأولية لمناهج البحث العلمي لتقضينا حينما نريد الوقوف على الأصول الأولى لنظام ما ، أن نبحث عنها في أبسط أشكال هذا النظام وأقدمها وأشدها سذاجة وأبعدها عن التطور .

وأبسط أشكال النظام الطوطمي وأقدمها وأشدها سذاجة ، وأبعدها عن التطور هي الأشكال التي كان معمولا بها عند السكان الأصليين لأستراليا في فاتحة كشفها .

وبالبحث عن هذه الأشكال لا نرى فيها أي أثر للاعتقاد بحلول أرواح الموتى في الطواطم من الحيوان والنبات ، صحيح أنه كان يوجد لدى الأستراليين الاعتقاد بحلول بعض أرواح الموتى في أجسام حية . ولكنهم كانوا يعتقدون أن هذا الحلول لا يمكن أن يكون إلا في أجسام الأحياء من الآدميين ، لا في أجسام الحيوانات أو النباتات .

هذا إلى أن الاعتقاد بإمكان حلول روح الإنسان في الحيوان أو النبات يتوقف على الاعتقاد بأنه من الممكن أن تتحد طبيعة الأناسي مع طبيعة بعض الحيوانات أو النباتات ، إذ لا يستساغ أن تحل روح كائن في كائن آخر يختلف عنه في طبيعته ، والاعتقاد بأنه من الممكن أن تتحد

طبيعة بعض الأناسى مع طبيعة بعض الفصائل من الحيوان أو النبات هو قوام الديانة الطوطمية نفسها وأهم دعامة تقوم عليها عناصرها وشعائرها .

وذلك أن الأصل الذى تقوم عليه هـذه الديانة ، تتمثل فى الاعتقاد بأن أفراد العشيرة من الأناسى وأفراد طوطمها من الحيوان أو النبات يؤلفون وحدة اجتماعية ، أو ما يشبه الاسرة الواحدة ، ويرجعون جميعاً إلى طبيعة واحدة وعنصر واحد - كما سبق - فالعقيدة التى يرى تايلور وويلكن أن الديانة الطوطمية قـد انشعبت عنها ، وهى تناسخ الارواح وحلولها فى غير أجسامها الاولى ، تتوقف هى نفسها على وجود الديانة الطوطمية من قبل ، فالادنى إلى المعقول إذن أن يقال : إن هذه العقيدة قد انشعبت عن الطوطمية لا أن الطوطمية قد انشعبت عنها .

وفضلا عن هذا كله فإن نظرية تايلور وويلكن تقوم على فهم خاطىء للديانة الطوطمية ، فهى ترى أن الطوطمية مظهر من مظاهر عبادة الحيوان والنبات ، مع أنه قد ظهر لنا أن الطوطمية تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبادة الحيوان والنبات ، فأفراد العشيرة الطوطمية لايقفون حيال طوطمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده ، فهذا يعد نفسه من طبيعة بشرية تختلف كل الاختلاف عن طبيعة معبوده ، ويعتبر نفسه شيئاً حقيراً إذا قيس بإلهه ، على حين أن النظام الطوطمى يجعل الإنسان نفسه من طبيعة طوطمية ، فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة طوطمها ليست علاقة عباد بآلهة ، بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم ببعض وشيجة الدم ولحمة النسب الوثيق ؛ والتقديس الذى يوجه فى الديانة الطوطمية إلى الحيوان أو النبات فى هذا التقديس جميع مايرمز إلى الطوطم أو يمثل مظهراً من مظاهره بل إن أفراد العشيرة أنفسهم يشاركون الطوطم هذه القدسية لإشتراكهم معه فى طبيعته كما تقدم بيان ذلك ، ولو كانت الطوطمية منشعبة عن عبادة أرواح الموتى للإعتقاد بحلولها فى أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما

يذهب تايلور وويلكن لما ظهرت فى الصورة التى وصفناها . بل اظهرت فى الصورة التى تبادرت إلى ذهنيهما وهى عبادة الكائنات نفسها التى حلت فيها هذه الارواح .

٢ — نظرية جيفونس .

ويذهب جيفونس إلى أن الطوطمية قد انشعبت عن عبادة مظاهر الطبيعة . وذلك أن الإنسان البدائى تحت تأثير الخوف والرهبة من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد ، حرص على التقرب إلى بعضها ليتقى شرها ويضمن نفعها ، ويستدر عطفها عليه ، ولم يكن ثمة وسيلة للتحالف وعقد الذمة غير وسيلة القرابة ، فالقرابة وحدها هى التى كانت فى الشعوب البدائية تحقق التضامن والتكافل والامن والسلام ، فقد كان أفراد العشيرة الواحدة أولياء بعضهم لبعض لصلة القرابة التى كانت تجمع بينهم ، على حين أنهم كانوا ينظرون لغير أقربائهم نظرتهم إلى خصوم وأعداء ، ولذلك اصطنع العقل البدائى صلة قرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة ، ولم يقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد ، وإنما أقامها بين العشائر الإنسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى .

وذلك لان العشيرة هى التى كان لها وجود دائم قوى فى العقلية البدائية ، أما الافراد فلم يكن لهم وجود يعتد به ، فنظر البدائى إلى عالم الحيوان والنبات والجماد نظرته إلى عالم الإنسان ، فلم يعتد بأفراد هذا العالم ، وإنما اعتد بفصائله وأنواعه ، وعمد إلى هذه الفصائل ولانواع فربطها بعشائرها بوشيجة القرابة ولحمة النسب .

ولا تقل هذه النظرية فساداً عن النظرية السابقة ، فهى تصور الطوطمية على أنها ناشئة عن عمل ارادى قصد إليه الافراد لتحقيق غاية نفعية أو وقائية ، وهذا لا يتفق فى شىء مع مانعرفه عن نشأة النظم الاجتماعية ،

فعهدنا بهذه النظم أنها لا تنشأ عن عمل ارادى مقصود ، وانما تنبعث فى صورة تلقائية وتخلقها طبيعة الاجتماع وظروف الحياة .

هذا إلى أنه لو كان الغرض من الطوطمية أن يتقرب الانسان إلى بعض مظاهر الطبيعة ليتقى شرها ، ويضمن نفعها ، ويستدر عطفها عليه ، لعقد هذه الصلة بينه وبين أكبر هذه المظاهر قوة وأشدها بطشاً وإثارة للرهبة والخوف فى نفس الانسان ، مع أن الواقع أن معظم الطواطم تتألف من نباتات وحيوانات ضعيفة لا ترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان .

ولو كان الهدف الذى تقصد إليه العشائر من الطوطمية أن تكون وسيلة للافادة من مظاهر الطبيعة ولا تقاء شرها . لعملت كل عشيرة جهدها على أن تعقد هذه الرابطة مع أكبر عدد ممكن من هذه المظاهر ، حتى تضمن أكبر قدر ممكن من النفع ، ويزداد مبلغ اطمئنانها فى حياتها ، وتكثر وسائل وقايتها من الأخطار ، مع أن الواقع أن الطوطمية كما سبق تقوم على أساس أن كل عشيرة لا يكون لها إلا طوطم واحد فحسب .

* * *

٣ — نظرية دور كايم :

لاحظ دور كايم أن الكائنات التى يتجه إليها التقديس فى الديانة الطوطمية سواء فى ذلك الطوطم نفسه والرسوم التى تدل عليه ، تجمع بينهما صفة مشتركة ، وهى أنها مظاهر للعشيرة نفسها ورموز تشير إليها . فالطوطم هو لقب العشيرة ، وطبيعته من طبيعتها ، والرسوم الخاصة به ترمز إليها .

فالتقديس لا يتجه إذن إلى هذه الأشياء إلا لأنها رمز للعشيرة ، وبعبارة أخرى : إن تقديس هذه الأشياء هو فى حقيقة الأمر تقديس للعشيرة نفسها فالطواطم ورسومها هى بمنزلة الأعلام التى تتخذها أممنا الحديثة رمزاً لها .

فكما أن تقديسنا وتعظيمنا لعلم بلادنا هو فى حقيقة الأمر تقديس وتعظيم لما يرمز إليه هذا العلم ، أى تقديس لأمتنا ومجتمعنا ، كذلك كان شأن البدائيين حيال طواطمهم .

فالاله الذى يتجه إليه التقديس فى الديانة الطوطمية هو العشيرة نفسها أو المجتمع نفسه مرموزاً إليه ببعض رسوم وبعض حيوانات أو نباتات .
ويرى دوركايم أن هذا النظام قد انبعث من تلقاء نفسه من العقل الجمعى وأنه حقق فوائد اجتماعية ذات بال :

فالحياة الاجتماعية لاتستقيم إلا إذا كان المجتمع ونظمه وأوامره ونواهيه موضع تقديس الأفراد وإجلالهم ، والنظام الطوطمى كان وسيلة لتمرين الأفراد وترويضهم على هذا التقديس والاجلال ، لتقوى آصرة ارتباطهم بمجتمعهم ، ويسلس قيادهم للحياة الاجتماعية ، ومانفرضه من نظم ، وتضعه من قواعد تتعارض فى كثير من مظاهرها مع أهواء الأفراد ورغباتهم .

ولما كان دوركايم يرى أن الطوطمية ديانة بالمعنى الدقيق لكلمة ديانة لأنها تقوم بين عالمين : عالم قدسى (الطواطم وما يتصل بها وكل ما هو من من طبيعتها) وعالم عادى ، وهذا هو قوام كل ديانة إنسانية فى نظره ، ويرى أنها تمثل أقدم ديانة إنسانية لإرتباطها بأبسط تكوين اجتماعى ، وهو تكوين العشيرة ، فقد ذهب إلى أن المجتمع نفسه كان أول إله عبده بنو الإنسان .

* * *

وهذه النظرية — على ما فيها من دقة وطرافة وعمق البحث لا يمكن التسليم بجميع ما اشتملت عليه ، فالآثار والنتائج الاجتماعية التى يرتبها دوركايم على الديانة الطوطمية بحسب نظريته لا يمكن التسليم بها إلا إذا اثبت أن البدائيين كان لديهم الشعور بأن مايقومون به حيال الطوطم

ورموزه هو تقديس للمجتمع الذى ينتمون إليه ، مع أن الذى يظهر من بحوث علماء الأثنوجرافيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق السامية ، وأن العقلية البدائية ما كانت لتستطيع أن تسمو إلى مثل هذه الآفاق فى التفكير .

ولا يمكن كذلك التسليم بما ذهب إليه دوركايم من أن الطوطمية تمثل أقدم ديانة إنسانية ، فالطوطمية كانت نظاماً دينيا لبعض شعوب بدائية اكتشفت فى صدر العصور الحديثة .

صحيح أن هذه الشعوب ظلت أمداً طويلا بمعزل عن التيارات الحضارية الكبرى التى توالى ظهورها بين سكان القارات القديمة .

ولكن لا يترتب على ذلك أنها سلمت من التطور ، وأفلتت من قانونه ، وظلت محافظة على أقدم نظام نشأت عليه ، فالتطور هو سنة الاجتماع وناموس الكائنات الحية على الإطلاق .

ولا يمكن أن يفلت منه شعب مهما كان منعزلا عن الشعوب الأخرى وحتى مع التسليم جدلا بأن الطوطمية تمثل أقدم ديانة سارت عليها هذه الشعوب البدائية منذ نشأتها . فإنه لا يوجد دليل يحمل على اليقين ، ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة ، فى فاتحة الإنسانية وجميع شعوبها على الاطلاق .

* * *

وإلى هنا تنتهى النظريات الثلاث وتعليق الدكتور الباحث ذو القدم الراسخ فى البحوث الاجتماعية والدراسات الإنسانية عليها الذى يختتم بحثه قائلا : ومما تقدم يبين أن كثيراً من المفكرين والباحثين قد وقعوا فى خطأ جسيم ، حينما ظنوا أن الشعوب البدائية حرة طليقة لا تخضع لنظام ولا

يقيدها قانون ، أو أن نظمها وقوانينها ساذجة بسيطة تسيرها الغرائز وتحكمها النزعات الطبيعية في الإنسان ، فقد تبين لنا من دراستنا السابقة .

أن النظام الطوطمي الذي يمثل نظاماً من أقدم النظم الإنسانية إن لم يكن أقدمها جميعاً ، وتسير عليه شعوب تعد من أكثر شعوب العالم بدائية وبعداً عن أسباب الحضارة ، يضع لجميع فروع الحياة نظماً وقواعد لا تقل في دقتها وتعقيدها عن نظمنا الحاضرة إن لم تزد عن كثير منها في معظم الشئون .

فالإنسان حيثما يكون ، وفي مختلف مراحل التاريخ ، مدني بطبعه ، أي لا يستطيع أن يحيا إلا في مجتمع ولا تستقيم الحياة في مجتمع ما إلا إذا خضعت أوضاعه جميعاً وخضع أفراده في مختلف شئون حياتهم لما يختاره عقله الجمعي من نظم وقواعد وقوانين .

* * *

هذا ويمكننا أن نضيف إلى وجهة نظر الباحث الدكتور علي عبد الواحد الحقائق التالية :

١ — كما اتخذت اللوازم والمظاهر الطوطمية دليلا على أن الطوطمية أشهر الديانات البدائية أو أصل من أصولها ، اتخذت نفس اللوازم والمظاهر دليلا على عكس هذه الفكرة ، أي على أن الطوطمية لم تكن أصل العقيدة الدينية لأنها نشأت بعد وقت طويل جداً لم يخل من دين ، وذلك قبل اتساع القبائل ومعرفتها للأنظمة الاجتماعية والقواعد الطوطمية العامة .

هذا ويمكن في نفس الوقت الاستدلال بهذه اللوازم والمظاهر على وجود رجعية فكرية ممثلة في الطوطمية سبقها وحي سماوي مسخه عقل الانسان وعواطفه .

فتحذير الوحي لأول إنسان وهو آدم من الشقاء في الدنيا جعله يعامل

الكائنات بحذر شديد (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) وقد ظل الآدميون الذين تلوه يتوارثون هـــذا الحذر من الأشياء حتى أطمأنوا إليها شيئاً ، فشيئاً .

ولا ريب أن الحذر المتوارث يولد مثل هذه اللوازم والمظاهر التى ظن أنها تقديس أو تدين ، وتدل القواعد الاستثنائية للوازم الطوطمية على هذا .

٢ — يستوى القول بأن الطوطمية انشعبت عن عبادة أرواح الموتى كنظرية تايلور وويلكن أو أنشعبت عن عباذة مظاهر الطبيعة تحت تأثير الخوف والرهبة من هذه المظاهر كما يذهب جيفونس .

أو انشعبت عنها (أى عن الطوطمية) جميع الديانات الإنسانية وانبعثت هى من تلقاء نفسها من العقل الجمعى كما يرى دوركايم .

أو كانت نتاج الطبع المدنى للانسان الذى لا يستغنى عن الخضوع لقواعد وقوانين يختارها العقل الجمعى كما ينتهى الباحث الاجتماعى الكبير الدكتور على عبد الواحد : فان هذه الآراء كلها لا تستند إلى ما يقتضى تعميم نتائجها وإن استند إلى بحث لواقع فى بعض الأمم والشعوب والقبائل البدائية ، للتدليل على وجودها أو تفسير الوجود ، فوجود شىء فى ظروف تشبه ظروفاً لم يرها أحد ولم يتأكد منها لا يسمح بتعميم هذا التفسير من وجهة النظر العلمية ، وبالتالى تبقى قضية الإنسان الأول .

والدين الأول ملكا للعالم الخبير المحيط الذى يعلم متى وجد الإنسان وكيف وجد ، ومتى تدين وكيف تدين ، ويبقى وحيه دليل العالم الوحيد على الحقيقة الكبرى .

٣ — على الاستنتاج والتخمين أذن قامت دعوى الأساطير أصل للأديان

ودعوى أن الطوطمية أصل للأديان ، فلم يكن المنهج العلمى هو الموصل إلى هذه الدعوى ولا كان طريقاً إليها ، ويكفى دليلا على ذلك أن أصحاب هذه الدعوى لا يملكون وسائل المنهج العلمى الصحيح من خبرة وإحاطة بالتاريخ الإنسانى والفكر الإنسانى .

٤ — إذا صح شيء من ذلك بالنسبة للمعتقدات التى صنعها البشر لأنفسهم بوحى من الفطرة الدينية التى فطر عليها البشر ، فإنه لا يصح بالنسبه للدين الصحيح الذى كان طريقه الوحى الإلهى ، أو الرسالات .

فالدين الصحيح عرف طريقه إلى البشر منذ آدم حتى قيام الساعة ممثلا فى :

عقيدة مستقيمة قوامها الإيمان بإله خالق مدبر لا شريك له ، أرسل الرسل واتخذ الملائكة وأعد الجنة والنار لاثابة الطائعين وتعذيب العصاة ، وشريعة متطورة تبعاً للطفولة الإنسانية حتى كمالها ، ثم استقرت فى قواعد كلية يمكن فى ظلها تطوير أساليب الحركة والنشاط الإنسانيين ، بالطريقة التى تبقى على الصلة بين الخالق والمخلوق وتسمح بالترقى والتقدم الحقيقيين للمجتمع وبالسعادة للأفراد .

أما المعتقدات التى صنعها البشر أو تدخلوا فى صنعها فلا مانع من البحث فى أصلها وعائداتها وتطوراتها ، والقول بشأنها مثل ما يقال بشأن أية صناعة أو عمل بشرى ، إنما الممنوع هو تعميم ما يستنتج من بحث هذه الصناعات والأعمال ، على ما ليس من صنع البشر أو عملهم ، وهو الوحى أو الدين الصحيح أو الرسالات الإلهية .

أليس هذا هو منطق المنهج العلمى . .

فساد تعميم نتائج بحوث تجرى على صناعات وأعمال بشرية على عمل غير بشرى .
فإذا قيل : ومن أين نعلم أن الرسالات الحقيقية ليست من صنع البشر ؟

قلنا : تعالوا إلى القرآن وأجمعوا لدراسته علماء الأرض لتروا إن كان

من صنع بشر ، أو من وحى إله . مادمتم قد اصطلحتم على اتخاذ المنهج العلمى طريقاً إلى النتائج والحقائق .

إنه لا يعوق الفكر الإنسانى عن الوصول إلى هذه الحقيقة غير الانحراف عن المنهج العلمى سواء بحشر الأهــواء والأغراض ، أو بالتعصب ، أو بالجهل .

وسنتناول فى دراستنا للإسلام كدين بياناً واضحاً لحقيقة الوحى الإلهى فى آخر أجزاء هذا الكتاب إن شاء الله ..

٭ ٭ ٭

نقد نظرية التطور

فى ضوء

معتقدات دول الحضارات القديمة

تمهيد :

كما يستند القائلون بتطور الدين تبعاً للتطور الفكرى والحضارى إلى عينات من الشعوب والقبائل البدائية يدللون بمعتقداتها على بدائية عقائد البدائيين وهمجية عقائد الهمج ، يستندون أيضاً إلى معتقدات دول الحضارات القديمة للتدليل على تحضر المعتقدات لدى المتحضرين من الأمم والشعوب ، فينتهون إلى أن العقيدة الدينية تمر بأطوار تتوافق مع أطوار التحضر الإنسانى ، ويصير بالتالى أمر العقيدة أو الشريعة بوجه عام راجعاً إلى فكر الانسان وصناعته .

فديانة الشمس مثلا : (لم تنتشر فى الأطوار الاولى للعقائد لانها تستلزم درجة من الثقافة العلمية والادبية لا تتيسر للهمج وأشباه الهمج فى أقدم عصور التاريخ ، فلا بد قبل ذلك من نظرة فلكية عالية تحيط بعض الشىء بنظام الافلاك وعلاقة الشمس بالفصول ومواعيد السنين .

وتستدعى ديانة الشمس غير هذا أن يرتفع العقل البشرى بفكر الخلق من أفق الارض القريب إلى الآفاق العليا فى السموات ، فتتسع دنياه وتتعاظم فيها دواعى الحركة والسكون والحياة والموت : ويقترب من الاوج الذى يستوعب فيه الكون بنظرة شاملة ، ويلتمس لها سبباً واحداً « للحصول » كما حصل بعد أن أصبح الكون كله فى حاجة إلى التعليل ، فإنه كان قبل ذلك يعلل حياته بهذه القوة أو تلك من العلل الكونية فإذا بالكون كله لا يستغنى عن تعليل صريح .

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، لأنها أكبر ماتقع عليه العين . وتعلل به الخليقة والحياة ، فإذا دخلت هى أيضا فى عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار ، وينطبق هذا التركيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى . فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون[1] » ويعلق العقاد على ذلك فيقول : ولا تزال بداءة التوحيد من طريق تأليه الشمس مسألة تخمين لامسألة يقين فالحضارات القديمة فى الدول قد عمت الاقطار الشرقية بين مصر وبابل وفارس والهند منذ ثمانية آلاف سنة أو تزيد ، وكلها قد عبدت الشمس وميزتها بالعبادة فى دور من الادوار ، فأيها هى الأمة السابقة إلى التوحيد . إلى أن يقول : وجملة القول أن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة فى جميع الامم ولا فى جميع الازمان ، ولكننا إذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الارواح لم تفارق أطوارها الاولى وأن عبادة الاسلاف امتزجت بعقيدة الارواح ، ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى التمس لها علة فى السماء ، فكانت الشمس هى أكبر مارآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى ، فهى القنطرة الاخيرة بين العدوتين : عدوة التعديد وعدوة

---

(١) الأنعام آية ٧٩ — ٨٦ .

التوحيد(١) .

* * *

ويبدو أن القرآن فى حديثه على لسان إبراهيم عليه السلام قد أوضح الفرق بين فكر الإنسان ووحى السماء ، بين امكانيات العقل البشرى مع الدافع الفطرى الباحث عن الإله المعبود أو الذى يجب أن يعبد ، وبين امكانيات الوحى التى يعتمد عليها فى الهدى إلى الصراط المستقيم .

فإمكانيات الفكر أو العقل الإنسانى لا تعدو المظاهر والمرئيات إذا استقل بالعمل وحده اعتمد على وسائله المعروفة وهى السمع والبصر والحس كى توصله إلى الحقيقة الإلهية ، وهى وسائل عاجزة لايمكنها أن تصل إلاإلى امكانياتهامن المظاهر والمحسوسات، فكان كل تحصيلها فى ميدان العقيدة والالوهية ، فى حالة الاستقلال عن الوحى ، لايعدو ذلك التحصيل الطبيعى المتطور ، تبعا لتطور الحالة الفكرية ، ولذلك خاطبهم إبراهيم عليه السلام وكأنه يقول لهم : لقد عجز فكركم عن الوصول إلى الحقيقة التى تطلبونها مدفوعين نحوها بالدافع الفطرى فقال لكم هذا الفكر إن النجم هو هذه الحقيقة — هو الإله — فلما تبين خطأه من أفول النجم وتغيره . والذى يأفل ويتغير عاجز عن البقاء عاجز عن أن يحافظ على حاله ، فلابد له من مؤثر فيه ، كان القمر ، فكان حاله كذلك ، ثم كانت الشمس ، نهاية ما وصل إليه العقل الإنسانى حتى ذلك الحين ، وكلها تخضع للتغيير فمن يغيرها ؟

أما الوحى فانه ينبه مدارك أخرى للقلب الإنسانى يمكنها أن تطمئن إلى حقائق تبعد عن الحس والمظاهر ، ولكنها لاتبعد عن الادراك القلبى،

---

(٢) الله ص ٢٩ — ٣٠

ذلك الادراك الذى يتخذ وسائل أخرى بالاضافة إلى السمع والبصر والحس، إنه ينبه حاسة الايمان . وبحاسة الايمان فطرية موجودة ضمن مدركات القلب الانسانى أو العقل ولذلك قال لهم إبراهيم « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » ووسيلة تنبيهها الوحى الذى يخاطب العقل حسب قدراته فالايمان بغير تحكيم العقل لايعدوا انسياقا وراء العادة أو التقليد أو الهوى .

فمثل العقل فى محاولاته للوصول إلى حقيقة الالوهية مدفوعاً بفطرته التى فطره الله عليها ، كمثل سفينة مجهزة بأحدث وسائل العمل والحركة المناسبة للوقت والمكان ولاتحتاج إلا إلى ربان يحدد لها الاتجاه الصحيح وشرط الربان عندئذ أن يكون على علم كامل وخبرة وإحاطة شاملين بكل ماتحويه السفينة من عناصر وأجهزة وماتحتوى عليه من حمولة وأشياء ، وماتواجهه من أحوال وأماكن فضلا عن قدرة لاريب فيها من ناحية الادارة والتوجيه . سواء كان على ظهر السفينة . أو كان يوجهها من خارجها بالوسائل العلمية .

فربان العقل المحيط الخبير القادر هو صانعه ومجهزه . وخالقه . والعليم بأسراره . فإذا وجهه كان ذلك التوجيه هو أصح التوجيهات بلاجدال من الناحية العلمية .

أما إذا تدخل فى توجيهه جاهل بأى جزئية من جزئيات العقل وقدراته وطاقاته بان أثر جهله فورا فى انحراف العقل عن الطريق المستقيم وإذا عجز العقل وحده عن الوصول إلى بر الايمان الصحيح ، لم يكن هذا دليلا على انعدام البر . ولا دليلا على انعدام الربان . إنما يكون دليلا على عجز سفينة العقل عن العمل مستقلة عن توجيه الربان الخبير العليم القادر .

وإذا كان الكيان المادى للإنسان أعجز من أن يتعرف على مابداخله من أسرار . فكيف يستطيع أن ينصب نفسه ربانا لهذا الجهاز الدقيق .

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يقول كل هـذا من خلال عبارات القرآن المعجزة التى حكت هذا على لسانه ، وانتهت إلى إسناد الحق لصاحبه فقالت (وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون) ،

فلما كان شأن العقل كذلك عاجز عن الوصول إلى بر الايمان الصحيح من غير ربانه الخبير بأسراره العليم بتكوينه وقدراته وطاقاته . كان توجيه الربان الحكيم بين الحين والحين يتمثل فى وحيه وإرساله الرسل . وكان تنبيهه لمدارك هذا العقل — ذلك الجهاز الدقيق — بما يتوافق مع قدراته وظروفه وأحواله فيتنوع ويختلف . إلا أنه يتفق فى كشف قدرات هذا العقل ، ويبين أن هناك قدرة أقوى منه وأقدر على اعجازه . هى قدرة ربانه الخالق له . الذى سواه فأحسن تسويته . فهل يستطيع العلم أن يقول إن السفينة بحرية أو برية أوجوية يمكنها أن تعمل المطلوب منها بلاتوجيه العالم الخبير المكلف بها . بلاريب لا . .

وهذا شأن الوحى مع العقل . أو شأن العقل مع ربانه . إن استغنى السفين عن الربان ضل واختل . وإن أشرك معه غيره خسر وفشل . وإن أعطى قياده لغير العليم الخبير المحيط به . فسد واعوج .

* * *

فى ضوء هذا الادراك نضع معتقدات دول الحضارات القديمة موضع الدراسة . ذاكرين آراء الآخرين كعادتنا مناقشين لها .

الفصل الرابع

نقد نظرية تطور العقائد فى ضوء معتقدات قدماء المصريين

- كيف نفسر وصول المصريين إلى التوحيد
- كيف نفسر عقيدة البعث والحساب لدى المصريين

معتقدات قدماء المصريين

تعد مصر من أقـــدم أقطار الأرض حضارة ومدنية ، ويعد الإنسان المصرى من أول أبناء الإنسانية الذين وصلوا إلى الاعتقاد بالإله الواحد ، والحساب فى اليوم الآخر. ويفسر هـذا فى ظل القول بتطور الاعتقاد تبعا لتطور الفـكر الإنسانى والحضارة الإنسانية : على أنه توافق طبيعى .

خاصة وأن تتبع التاريخ المصرى القديم يفيد أن أطوار الاعتقاد قـد مرت بجميع المراحل من أسفلها إلى أعلاها ، كما يرى العقاد ، ويؤيد هذا الرأى بقوله :

(فشاعت فيها الطواطم فى كلا الوجهين قبل اتحاد المملـكة المصرية على يد مينا) وبعد هذا الاتحاد ، ويظن الكثيرون من علماء الأديان أن تقديس الصقر والنسر وابن آوى والقط والنسناس والجعل والتمساح وغير ذلك من فصائل الحيوان هى بقايا « طوطمية » تحولت مع الزمان إلى رموز ، ثم فقدت معنى الرموز واندمجت فى العبادات المترقية على شكل من الأشكال .

وشاعت فيها عقيدة الأرواح ، فـكان المصريون من أعرق الأمم التى آمنت بالبعث ، والثواب والعقاب بعد الموت ، ورمزوا للروح « كا » تارة بزهرة ، وتارة بصورة طائر ذى وجه آدمى ، وتارة بتمساح أو ثعبـان ؛ وقالوا إن الروح تتشكل بجميع الأشكال ؛ ولـكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح ، ولعل اختلاف الرموز من بقايا اختلاف الطواطم فى زمان سابق لزمان والاعتقاد بالبعث والثواب والعقاب .

أما أثبت العبادات وأعمها وأقواها وأبقاها إلى آخر العصور ، فهى

عبادة الموتى والأسلاف دون مراء ؛ فان عناية المصرى بتشييد القبور وتحنيط الجثث وإحياء الذكريات لاتفوقها عناية شعب من الشعوب ، وقد بقيت آثار هذه العبادة إلى مابعد بزوغ الديانة الشمسية ، وتمثيل أوزوريس بالشمس الغاربة ، ثم تغليبه على عالم الخلود وموازين الجزاء .

فقصة أوزيريس هى قصة آدمية تشير إلى واقعة قديمة مما كان يحدث فى الأسر المالكة فى تلك العصور السحيقة ، وهى قصة ملك أحبه شعبه ثم نازعه أخوه « ست » عرشه فقتله ، وجاءت زوجته « ايزيس » بعد ذلك بابن سمته « جوريس » أخفته فى مكان قصى حتى بلغ الرشد ، فرشحته للملك فساعده أنصار أبيه على بلوغ حقه فى العرش ؛ وعاد « ست » ينازعه هذا الحق أمام الآلهة ويدعى عليه أنه ابن غير شرعى من أب غير أوزيريس ، فلم تقبل الآلهة دعواه ، وحكمت لحوريس بالميراث .

وتقول الأسطورة . . إن إيزيس جمعت أعضاء أوزيريس التى فرقها ست بين البقاع وتعهدتها بالصلوات والأسحار حتى دبت فيها الروح من جديد وحملت منه بحوريس الذى قدح عمه فى نسبه ؛ وقد حاول أوزيريس أن يعود إلى الملك فأخفق وقنع بالسيادة على عالم المغرب حيث تغيب الشمس وتنحدر إلى عالم الأموات) (١) .

ويبدو أن المصريين قد بذلوا الكثير من الجهد والمال والوقت والفكر فى سبيل عقيدة عبادة الموتى والاسلاف ، والإيمان بالحياة بعد الموت وبالثواب والعقاب حيث كلفتهم تلك العقيدة أوهذا الإيمان أوكلاهما ، وضع الادوات التى كانوا يستعملونها أثناء الحياة مع موتاهم عند دفنهم ، فاعتادوا على ذلك قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بآلاف السنين ، ولذلك اضطرتهم هذه العادة أن يعتنوا بتشييد القبور وتأثيثها على نحو خاص ، وأن

---

(١) الله ص ٥٠ — ٥١

يحتاطوا فى دفن موتاهم والأدوات التى يستعملونها فى أماكن لاتنالها عوادى الزمن وفى ظروف لاتسمح للصوص بسرقة شىء من هذه الأدوات ، فتطور الاحتياط حسب التقدم الحضارى للمصريين . منذ كانوا يسكنون وادى النيل ويعيشون كصيادين بدائيين ، ويدفنون موتاهم ومعهم أسلحتهم وأوانى مأكلهم ومشربهم ، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونه مع موتاهم ؛ فزادت عنايتهم واحتياطاتهم ، فبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الأثاث الجنازى الكثير .

وضوح التدخل البشرى فى هذه العقيدة :

على الرغم مما وصل إليه المصريون من إيمان بالبعث والحساب والثواب والعقاب . فإن العقل البشرى العاجز وحده عن الوصول إلى الحقيقة فى هذه الشئون قد ظهر تدخله وعجزه ، حينما استطاع المصرى أن يعتقد أن الموتى سيحيون حياة أخرى فى مكان بعيد عن القبر ، وبعيد عن الجسد الموسد فيه ، ولم يستطع أن يتصور عودة الجسد وإمكانية محاسبة الإنسان بعيداً عن جسده الأصلى الذى يدفن فى القبر ، كما لم يستطع أن يتصور الخلود للموتى أو لأرواحهم دون أن يكون لجسدهم الاصلى وجود .

ولعل هذا يفسر سر حرص المصريين على سلامة أجسام موتاهم ودفن حاجاتهم معهم ؛ فكان تفننهم فى المحافظة على الجسد الاصلى حتى وصل بهم الامر إلى المشيدات الضخمة المبنية بالاحجار وعلى رأسها الأهرامات ، كما وصل بهم إلى تحنيط الجثث وحفظها وإحاطتها بالاسرار السحرية التى لازالت تثير قلق علماء الآثار الغربيين ويسمونها لعنة الفراعنة .

وللعلماء فى تحليل هذه العقائد وآثارها آراء تتفق فى كثير من الاصول وتختلف فى قليل من التفاصيل إلا أنها تلتقى فى توضيح التدخل البشرى فى صنعها ويحسن أن نعرض بعض هذه الآراء على سبيل المثال .

١ — ما يقوله « جيمس هنرى برستد » فى كتابه انتصار الحضارة ترجمة الدكتور أحمد فخرى :

(لكى نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود بذاكرتنا إلى الوقت الذى كان يعيش فيه الصيادون فى العصر الحجرى ، ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم ، وأصبحوا يزرعون الأرض ، ويحصلون منها على القوت ، فلاشك أن الزرع الأخضر الذى نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير فى أصل الحياة — فى اعتقاد المؤلف — وكان لهذا التغيير فى حياتهم من صيادين إلى زارعين فى الأرض أثره فى عقيدتهم الدينية . ولم يكن هذا قاصراً على المصريين فحسب بل كان عاماً فى شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة فى حياتهم . وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون فى حياتهم على ثمرات الارض ، وكان كفاحهم لاجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تمدهم به من حاصلات ، وبث فيهم هذا الإحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل ، وأدخل على دياناتهم لوناً جديداً .

وهذه الروح الجديدة هى الاساس الذى تقوم عليه عقائد هنود أمريكا الشمالية . بل أنها فى الواقع مازالت ذات أثر كبير فى دياناتنا حتى اليوم ، وقد ورثناها كإحدى النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغيير عندما تركوا حياة الصيد إلى الحياة الزراعية (١) ويواصل الكاتب تفصيل رأيه فيقول :

رأى الزراع أن تلك الحبة التى بذرها نبتت واخضرت وأتت ثمارها ،

---

(١) يلاحظ أن الكاتب لم يحاول أن يبحث عن أصل آخر للأديان غير الفكر الإنسانى وقد عمم اعتقاده على جميع الاديان بما فيها الاديان السماوية وسنفرد مكاناً لمناقشته وأمثاله بعد قليل إن شاء الله .

ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة ، وفكر فى تلك الحياة المتجددة التى لا يمكن أن تموت موتاً نهائياً ، وكان من الطبيعى أن يدخل فى روعه الاعتقاد بأن هذا الشىء الحى الذى لا يموت يجب أن يكون إلها.

وسمى المصريون هذا الإله باسم « أوزوريس » واعتقدوا أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض . وكانوا يرون هذه النباتات المخضرة تذوى كل عام ، ويتراءى لناظرها كأنها ماتت وفارقت الحياة ، ولكنها كانت تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها ، وانتشرت مثل هذه العقيدة على طوال الجانب الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، وامتدت إلى الخليج الفارسى ، وكان هذا الإله يسمى فى غرب آسيا أحياناً باسم تموز ، وأحياناً باسم « أدونيس » كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد إلى آخر ، لذلك نرى فى قصة « أوزوريس » أحب الآلهة إلى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم بعث بعد الموت ، وهذا هو ماحدث لجميع الآلهة المحلية فى غرب آسيا وبخاصة فى سوريا وفلسطين وآشور وبابل .

ولم ينس المصريون هذه الصلة القديمة التى تجمع بينهم وبين آسيا فى العقيدة فنقرأ فى أسطورة « أوزوريس » أنه مات ثم سبح جسده حتى استقر أخيراً فى جبل (مدينة بيبلوس Byblos القديمة وتقع على الشاطىء شمال مدينة بيروت الحالية) على الشاطىء الفينيقى حيث عادت إليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى .

وكانوا يرمزون فى غرب آسيا للحياة المتجددة بشجرة ، وكانوا يقيمون فى كل عام احتفالا كبيرا ينصبون فيه شجرة ويزرعونها ثم يزينوها ويكسونها بالأوراق الخضراء ، وورث الغربيون هذه العادة ، ومازالوا يحتفلون بها عندما يقيمون عامود شهر مايو Maypo:e الذى ينصبونه ويزينونه ويقيمون المآدب ، ويرقصون حوله احتفاء بعودة الربيع .

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة ، وذلك التجديد الذى آمدهم بالقوت الذى يحصلون عليه من حقول الحبوب ، وبعبارة أخرى كان مظهرا دينيا لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم .

ولم يكن لهذا الاعتقاد تأثير يقود الناس إلى الإيمان بحياة ينعمون بها بعد الموت فى العالم الآخر .. أما فى مصر فإنهم فضلوا أن يؤمنوا بأن أوزيريس لم يكن القوة التى تمدهم بالحياة وتعطيهم القوت فى هذه الدنيا فحسب ، بل أنه كان يعنى بهم أيضاً فى الحياة الأخرى فيعيشون سعداء عندما يأتى اليوم الذى يموتون فيه ، وتستقر أجسادهم فى القبور التى يدفنون فيها على حافة الصحراء .

آمن الناس إيماناً قوياً بأن عقيدتهم فى أوزيريس تيسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر ، وكانوا يرون فى هذا الإله رمزا للموت ثم الحياة مرة أخرى ، وكانوا يرمزون له بشجرة فى بعض الأحيان ، وفى الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التى تخرج منها الحياة المخضرة ، ويرسمون سنابل الحب وهى تنبت من جسده ، ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتى ثمارها إلا إذا روتها مياه النيل ، فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل ، وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم وأرضهم الخصبة التى ترويها مياهه ، والحياة المخضرة التى تزدهر بسببه ليست إلا شيئا واحدا هى إله واحد هو أوزيريس الذى كانوا يرون فيه رمزا لحياة الأرض التى لا تفنى .

واعتقد المصريون فى آلهة كثيرة ، ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى ، أحدهما أوزيريس الذى لم يقهره الموت ، والآخر هو الشمس التى تبهر البصر بضيائها فى سماء مصر الصافية ، هذا هو

الإله « رع » الذى كان أعظم الآلهة المصرية كإله للأحياء ، والذى أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم . ولم يكن الهرم إلا رمزاً مقدسا له .

رمز المصريون للكثير من آلهتهم ببعض الحيوانات ، وقد سبب ذلك وقوع بعض الناس فى الخطأ ، فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن فى أصل دياناتهم وإنما دخل عليهم فى أيام اضمحلالهم ، وفى بعض الوقت الذى بدأت فيه دياناتهم فى الاحتضار فى العصر الرومانى . كما كان كل من قرص الشمس المجنح والهرم رمزا لإله الشمس (١) .

يرجع « برستد » عقيدة الحياة بعد الموت عند المصريين إلى الفكر المصرى الذى تأثر ببيئته الزراعية ، وطبيعة الأرض من حوله ، ويرى الكاتب أيضا أنه كما تأثر اعتقاد المصريين بالبيئة والطبيعة ، أثر هذا الاعتقاد فى المصريين أنفسهم فجعلهم يفضلون أن يؤمنوا بأن أوزيريس سيعنى بهم فى الحياة الأخرى فيعيشون سعداء كما عنى بهم فى الدنيا ، وسييسر لهم حياة مباركة فى العالم الآخر .

كما تطور هذا الاعتقاد وتطورت آثاره بحيث انتقل من التعدد باعتقاد المصريين فى آلهة كثيرة إلى إيثار عبادة اثنين أحدهما أوزيريس والآخر هو الشمس (رع) وكانت رموز المصريين الكثيرة من الحيوانات لآلهتهم سببا فى الظن بأن المصريين عبدوا الحيوانات .

وقد عمم المؤلف تأثير البيئة على الفكر الإنسانى والاعتقاد الدينى ، وسحب هذا التعميم وهذا التأثير على الأديان السماوية ، غير مفرق بين مافعله البشر ، وما أوحت به السماء .

---

(١) ص ٨٩ ٩٢

٢ — ما يورده العقاد فى مؤلفه « الله » فيقول :

(وللخصب شأن لا يستغرب فى ديانة مصر القديمة ، فهم يرمزون إلى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم ، أو بامرأة تنحنى على الأرض بذراعيها ، ويسندها « شو » إله الهواء بكلتا يديه ، وأقدم ماتخيلوه فى أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة عظيمة خرج منها رب الشمس ، وأنجب أربعة من الأبناء هم « شو » و « يفنوت » القائمان بالفضاء و « جب » رب الأرض ، و « توت » رب السماء ، ثم تزاوجت السماء والأرض فولد لهما أوزيريس وإيزيس وست ونفتيس ، فهم تسعة آلهة فى مبدأ الخليقة ، نشأوا من تزاوج الأرض والسماء ، ثم استقر الأمر لثلاثة من هؤلاء هم أوزيريس وإيزيس وحورس ، وهناك صيغة أخرى من قصة الخلق فحواها أن « رع » نفسه إله الشمس كان ملكا على مصر فى زمن من الأزمان ، ويستدلون على ذلك بخلاصة قصته المتداولة فى الأساطير وهى أن رع ملك الدنيا قبل سكانها من البشر فتمرد عليه رعاياه فسلط عليهم ربة النقمة « حاتحور » ثم أشفق عليهم من قسوتها فاعتزل الدنيا وحملته بقرة السماء على ظهرها ، فأقام هناك واندمج شخصه بعد حين بشخص أوزيريس .

وقد فعل غربال الزمن فعله فى تصفية هذه العقائد والأرباب ، فنسى أوزيريس السلف المعبود ، ورسخ فى الأذهان وصف أزويريس الشمس القائمة على المغرب أو عالم الأموات ، وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعيدها . وجمعت بينها كلها عبادة « آمون » ثم عبادة « أتون » .

وعبادة « أتون » هى أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

فلم يكن المراد بأتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون ، ولكن الشمس نفسها كانت رمزا محسوسا للإله الواحد الأحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء . . وإنما جاء هذا التطور بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر ولم تتهيأ لغيرها من الدول الكبرى في تلك الفترة . . فكانت في أقاليم القطر قبل ظهور عبادة أتون ثلاث عبادات شمسية ، تتنافس في المبادىء الروحية ووسائل النفوذ التي تتغلب بها على النظراء .

فكانت منف تدين لإله الشمس باسم فتاح . . وكانت عين شمس أو « هليوبوليس » تدين له باسم رع ، وأحيانا باسم « أتوم » ، وكانت طيبة تدين له باسم (أمون) .

. . . ويرى المؤرخ الكبير (برستيد) أن عقيدة (فتاح) هي أساس مذهب الخلق بالكلمة Logos عند الأغريق الأقدمين ، فلاحاجة بالخالق إلى أداة للخلق غير أن يشاء ويأمر فإذا بما شاء موجود كما شاء — لما أضفى على فتاح من تنزيه وتعظيم وقوة الكلمة — ومن المحتمل جداً أن كهان تلك العصور تدرجوا إلى فهم قوة الكلمة الإلهية من فهمهم لقوة الكلمة على لسان الساحر ، وقوة الكلمة على لسان المبتهل بالصلاة .

ونسج كهان عين شمس على منوال كهان منف في تنزيه رع وتجريده من ملابسات الحس والتجسيد ، ولاسيما بعد تفرغهم للعبادة الروحية وإنصرافهم إليها ، كما تعاظم سلطان الكهان في طيبة وتفاقمت سيطرتهم على مناصب الدولة ، وهم كهان آمون .

وقد توطدت كهانة آمون بتوطد أركان المملكة الوسطى ، وبلغت أوجها بعد عهد تحوتمس الثالث أكبر ملوك الاسرة الثانية عشرة . . . فكان إتساع الافق في السياسة مقترنا باتساع الافق في تصور العالم وما ينبغي لخالقه من التعظيم والتنزيه ، فارتقى الفكر الإنساني في هذا العهد من البيئة المحلية إلى بيئة عالمية ، ثم إلى بيئة أبدية تنطوي فيها أبعاد المكان والزمان .

وطغى نفوذ الكهان الأمونيين على كل نفوذ فى البلاد من جراء هذه القربى بينهم وبين الملك العظيم ، فاستأثر رئيسهم بلقب « الرئيس » فى أنحاء الديار ، وضيقوا الخناق على كهان رع وفتاح . . . ثم طمعوا فى نفوذ الملك بعد اطمئنانهم إلى نفوذ الدين . .

ومن هنا خطر للملوك خاطر الخلاص من هذا النفوذ ، فتكلم أمنحتب الثالث عن أمون . . باسم آخر : هو أسم « آتون » .

وساعد على هذا التبديل الطفيف أن صفات الإله فى أذهان المصريين كانت أقرب إلى صفاته عند كهان منف وعين شمس ، وأن مسالك الكهان الدنيويين من شيعة آمون لم تكن وفق الآداب والعادات التى استلزمها ارتقاء المصريين فى فهم كمال الإله .

فلما تولى الملك أمنحتب الرابع أو اخناتون كما تسمى بعد ذلك كان التمهيد للعبادة الجديدة قد بلغ مداه ، وكان اتساع الأفق فى النظر إلى الدنيا والنظر إلى صفات خالقها قد وسع له المجال للابتكار والتجديد وأعان عبقريته على التدعيم بعد التمهيد .

. . . فقمع الأمونيون قمعاً شديداً ، ومحا اسم آمون من كل مكان بلا استثناء ، وجهر بعبادة « آتون » دون سواه . . . وألغى جميع الأرباب وأعوانهم من الأرواح والجنة وأولهم الرب القديم أوزوريس .

* * *

إلى هنا يبدو ما أورده العقاد فى مؤلفه « الله » متفقا فى تعليل تطور العقيدة لدى المصريين بالبيئة وآثارها وإن أعطى السياسة فاعلية أكثر فى بعض الأحيان ؛ واهتم بتفصيل كثير من شئونها فى مرحلة ماقبل التوحيد

حتى كان الوصول إليه على النحو المذكور (وسنفرد لعقيدة التوحيد مكاناً خاصاً لنعطيها ما تستحقه من بحث وتمحيص ودراسة) .

* * *

٣ — ما أورده عبد القادر حمزة فى كتابه الذى أصدرته مطابع الشعب بعنوان على هامش التاريخ المصرى القديم مجيباً على الأسئلة التالية :

(ا) هل كان المصريون يعتقدون أن للإنسان روحاً ؟ وهل كانوا يعتقدون أن هذا الروح لايموت بموت الجسم ؟

(ب) وهل كانوا يرتبون على ذلك أن الانسان يحيا بعد موته حياة أخرى يحاسب فيها على أعماله فى الحياة الدنيا ، وتوزن فيها حسناته وسيئاته ، فمن رجحت حسناته استحق الثواب ، ومن رجحت سيئاته استحق العقاب ؟

(حـ) وماذا كانوا يفهمون الثواب والعقاب ؟ وكيف كانوا يتخيلون دار النعيم فى الحياة الأخرى للأتقياء الصالحين ، ودار العذاب للأشرار المفسدين ؟

(د) وهل عرفت أمة أخرى من الأمم ما عرفه المصريون من ذلك كله فى الوقت الذى عرفوه فيـــه ، أم كانوا هم الذين سبقوا الأمم كلها إليه ؟

وقد أجاب على السؤال (ا) بالإيجاب وذهب يبحث عما إذا كانوا قد رتبوا على هذا الاعتقاد نتيجته الضرورية . فرتبوا على بقاء الروح حياة أخرى يحياها الإنسان بعد موته ، وفيها يحاسب على أعماله فى دنياه فيثاب على الحسنات ويعاقب على السيئات وخرج من هذا البحث بالإجابة على السؤال (ب) بالإيجاب أيضاً معددا الأدلة والأسانيد إلى أن يقول : ويحسن هنا

أن نعرف كيف كان تأثير هذه العقيدة فى نفوس المصريين ؟ (وهذا مايهمنا ذكره فى هذا المجال) يقول مجيباً على ذلك : « فلنستعرض شيئاً مما كتبوه فى ذلك فى قبورهم ، تعريفاً بأشخاصهم وبسلوكهم فى الحياة .

فى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة (١) أى فى الوقت الذى كانت تنقش فيه نصوص الأهرام ، نقش أحد الأعيان على لوحة حجرية نصبها لنفسه :

« لم أسيء إلى أحد فى حياتى لأنى أريد أن تسير الأمور كلها سيراً حسناً حينما أكون أمام الإله الكبير » ، إنه يريد أن تجد محكمة أوزيريس أنه لم يذنب فتجعل الثواب نصيبه .

وكتب حاكم أقليم من أقاليم الوجه القبلى يقول :

« أطعمت الجائعين ، وكسوت العارين ، ولم أمس قط شيئاً لغيرى بحيث لم يشكنى أحد قط إلى مدينتى . . ولم يحدث فى عهدى أن شكا أحد إلى الآلهة من اعتداء قوى عليه » .

وكتب حاكم لإقليم أسيوط يقول :

« كانت عندى غلال وافرة ، فلما حلت بالبلاد المجاعة ، وزعت منها على المدينة مكاييل مكاييل ، وسمحت لكل إنسان بأن يأتى ليأخذ غلالا من عندى ، وأعطيت الزوجة والأرملة والولد ؛ وأعفيت الاهالى من جميع الضرائب المتأخرة عليهم والتى كان آبائى قد سجلوها فى دفاترهم » .

---

(١) الاسرة الخامسة حكمت من نحو سنة ٢٦٨٠ إلى نحو ٢٥٤٩ قبل الميلاد والاسرة السادسة حكمت من نحو ٢٥٥٠ إلى نحو ٢٣٦٠ ق — م (المؤلف عبد القادر حمزة ص ٥٤) .

وكتب حاكم لاقليم أدفو يسمى « بيبي نيفر » قصة حياته فذكر أن أباه أرسله إلى بلاط الملك « بيبي الاول » ليتربى فيه مع أبناء حكام الاقاليم ، ثم عينه الملك مرنرع (هو أحد ملوك الاسرة السادسة) أميناً لمحصولات الوجه القبلي ثم مديراً للمعابد فى أقليم أدفو ، وبعد ذلك أخذ « بيبي نيفر » يصف أعماله فى مناصبه وسلوكه فى حياته الشخصية فقال :

« من منتجات هذا الاقليم (أدفو) أطعمت الجائع ، وكسوت العارى ووزعت أقداح اللبن ، ومن غلال الاوقاف الأبدية (هى الاملاك التى كانت محبوسة على المعابد والآلهة وغيرذلك من الاغراض الدينية) أعطيت الجائع وأصلحت شأن كل رجل وجدته عائشاً من غلال غيره ، وجهزت الدفن كل ميت ليس له ولد . . وقد أنقذت الفقير من يد الغنى وأصلحت بين الاخوة المتنازعين » .

كل هذا فى عهد الاسرتين الخامسة والسادسة :

ثم يطوى المؤلف هذا العهد وينتقل إلى عهد الاسرة الثانية عشر (من سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ١٧٨٨ قبل الميلاد) فيقول :

فى عهد الملك أمنمحت الاول كان حاكم الاقليم السادس عشر (حيث توجد الآن قبور بنى حسن فى مديرية المنيا) أميراً يسمى أمينى ، وقد حدثنا هذا الحاكم فقال : إنه كان قائدا لجيش هذا الاقليم ، ثم قائدا لحملة حاربت فى النوبة ، ثم لما عاد عين حاكما للإقليم ، وحينئذ أخذ يحدثنا عن سيرته فى محكوميه فقال :

« بينما كان الإقليم كله فى حركة دائبة تدر الخير العميم ، وبينما كان زمام السلطة فى يدى ، لم أعتد على بنت من بنات الشعب ، ولم أضطهد أرملة ولم أرد زارعاً ، ولم أحبس راعياً ، ولم يقع قط أن أجبرت عمالا على أن يتركوا عمل سيدهم ليعملوا عندى .

لم يوجد فى زمنى بائس ولا جائع ، وقد كنت فى سنى الجدب أحرث جميع أرض الإقليم إلى حدوده الجنوبية والشمالية ، وأحرص على أن أجعل أهله يعيشون ، وأسعى فى إيجاد العيش لهم حتى لم يوجد جائع .

وقد أعطيت الأرملة كما أعطيت المرأة المتزوجة ، ولم أحاب كبيراً لأظلم صغيراً فى كل ما أعطيته ، وفى السنين التى كان النيل فيها يأتى عالياً فيحمل للناس المحصولات والغنى ، لم أطالب بالمتأخرات من الضرائب » .

ثم يعلق الكاتب على ذلك بكلام له ولغيره نذكر منه قوله :

والذى لم يبق فيه ريب بعد هذه الشواهد هو أن المجتمع المصرى كان يدين بعقيدة الحساب بعد الموت ؛ ويدين بأن من وراء هـذا الحساب ثواباً وعقاباً .

وكان يتأثر بهذه العقيدة إلى حد بعيد ، وفى ذلك يقول برستيد :

« إن هذا الفهم لقواعد السلوك يبلغ من السمو حداً بعيداً ؛ وهو أول أبراز للفكرة القائلة بأن مصيرنا فى الحياة الاخرى متوقف على أعمالنا فى الحياة الدنيا .. ومجموع هذا النظام القائم على الحساب بعد الموت يستحق أن ينوه به لانه يسبق بألف سنة كل فكرة من هذا النوع عند أية أمة من الامم الاخرى ، فقد كان البابليون والإسرائيليون فى الوقت الذى اهتدى فيه المصريون إلى هـذه العقيدة ، ينزلون جميع الاموات فى مكان مظلم لاتفريق فيه من أحسنوا ومن أساءوا » (١) .

---

(١) وقد سبق أن عرضنا تعليل برستيد لظهور هذه العقائد فى حياة المصريين وتطورها فإذا كان المؤلف قد انتهى إلى ما انتهى إليه برستيد دون تصويب أو تغيير يصبح معتنقاً لآرائه واتجاهاته فى تطور المعتقدات تبعاً للتطور الفكرى والحضارى وتأثير البيئة لتكون كلها صناعة إنسانية فى الاصل وفى التطور .

ثم ينتقل إلى جانب آخر من جوانب البحث ليجيب على السؤال (ج) فيستدل بنصوص تصور دار النعيم للشابين الذين يصعدون إلى السماء ويقيمون فى جزر فيها حقل يسمى حقل الطعام ، ومن هذا الحقل يتناول المجدون أطعمة شهية مختلفة تتجدد ولا تنفذ . وهناك حقول أخرى يجالس فيها الآلهة ، يجالسون المجدين تحتها ويأكلون منها معاً .

وليس هذا كله مافى النعيم السماوى ، بل فيه إلى جانب ذلك أن السماء (نوت) والثعبان الذى يحمى الشمس يعطيان الصاعد إلى السماء حين وصوله إليها ثدييهما ليرضع منهما ، فتى رضع عاد صبياً . . ؟

هذا ماتقوله نصوص الأهرام أما كتاب الموتى فيذكر من مظاهر الثواب أن الميت يجلس فى قاعة أمام أوزيريس ويخرج إلى حقل بارو أو يالو (على خلاف فى اللفظ) ويأكل خبزاً أو فطائر ، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، وخدام حوريس يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه ، وله أن يدخل العالم السفلى ويخرج منه ، وله أن يقيم فى حقل يارو أو فى حقل الطعام ، وفيهما يكون مجداً يزرع ويحصد وتكون له نساء يتمتع بهن ، ويعمل كل ما كان يعمله على الأرض .

وقد ترك بعض المصريين كتابات عبروا فيها عما يتمنونه من أنواع السعادة الأخروية . . ويلاحظ أنها تميل فى كثير من جوانبها إلى جعل الجنة على مثال السعادة التى يتمناها المصرى لنفسه فى الدنيا .

كحقل الطعام ذو الاطعمة الشهية التى تتجدد ولا تنفد ، وشجرة الجميز التى تسمى شجرة الحياة ، والخبز والفطائر ، وحقل القمح والشعير الذى يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع .. ألخ .

أما العقاب فمن صوره ، الوحش الذى له رأس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب ، والنار التى يلقى فيها ، أو يبقى المذنب فى قبره فريسة للجوع والعطش ، محروماً من رؤية الشمس ، وفى بعض الأحيان يكون مع القضاة الأثنين والأربعين الذين يجلسون مع أوزيريس فى محكمته سيوف يضربون بها المذنبين .

أو يكون العذاب بتركيز محور باب على عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل أو الميت يصيح من الألم كلما فتح أو أقفل ، أو بتعليق طعام فوق رءوس المعذبين ، وهؤلاء المعذبون يقفزون ليحاولوا الوصول إليه فيبعد عنهم . .

* * *

ويعلق على هذه الإجابة بقوله :

وهنا نقف لحظة لنشرف على هذا المجهود الجبار الذى بذله المصريون فى القول بخلود الروح وبالثواب والعقاب بعد الموت ، فلا يسعنا (أى الكاتب) إلا أن نعترف بأنه مجهود جبار خطا بالإنسان خطوة واسعة فى سبيل تهذيب النفس ، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الله ، فى وقت كان الإنسان فيه لا يزال قريباً من الحياة الوحشية .

نعم هو مجهود جبار — فى نظره — والعلماء الأجانب كلهم يعترفون به ، ويقدرون فضل مصر فيه [1] .

---

(١) يلاحظ أن صاحب كتاب على هامش التاريخ المصرى القديم يواصل تأييد وجهة نظره المتفقة مع وجهة نظر برستيد وغيره من الأجانب الذين يستندون إلى هذه الأشياء ويستدلون بها على أن الإنسان هو —

ولكن هل كان ممكناً أن يسلم هذا المجهود من نقص يعلق به إلى أن يمحصه الزمن فيسقط ويبقى الجوهر سليما ؟

يجيب صاحب كتاب « على هامش التاريخ المصرى القديم » على ذلك قائلا :

ليس من سنن الأشياء أن تخلص الحقائق الكبيرة للإنسان من غير أن يتعثر فى سبيل البحث عنها .

بل التعثر هو السنة الطبيعية ، وقد جرت هذه السنة على المصريين ، فقام فيهم قوم يقولون : إن الصيغ السحرية تستطيع أن تجنب الميت جميع المخاوف التى يستهدف بها بعد مماته ، وتستطيع أن تؤتيه الحكم بالبراءة من محكمة أوزيريس مهما تكن ذنوبه ، ، وتستطيع أخيراً أن تعطيه النعيم الخالد ولو كان لا يستحقه ، وكانت الأمم كلها فى ذلك الوقت تؤمن بالسحر وتكاد تراه فى كل شىء وكانت تجعل للساحر قدرة على تسخير الآلهة لإرادته .

ولكن الكاتب ينبه فى بحثه إلى أن السحر لم يعطل القوة التهذيبية لعقيدة الحساب ، ولم يؤثر فى نفوس الشواذ الذين يميلون إلى الشر وهم موجودون فى كل زمان .

أما السؤال (د) فلا حاجة لنا بالإجابة عليه بالتفصيل الآن وقد عرفنا الإجابة الإجمالية ، وهى أن أحداً لم يسبق المصريين إلى عقيدة الحساب والروح (١) « فى نظر المؤلف ومن سار سيره .

ـ الذى اخترع الدين والمعتقدات ولذلك يعدون هذه الجهود الإنسانية أصلا ونهاية جهودا جبارة وسنناقش كل هذه الآراء جملة بعد الانتهاء من عرضها . . .

(١) صفحات ٥١ — ٦٨

وهكذا يرى الكاتب أن المصريين سبقوا أمم الأرض إلى عقيدة الحساب والإيمان باليوم الآخر ، ويعلل ذلك بالمجهود الجبار الذى بذله المصريون فى سبيل تهذيب النفس ، ووضع المعاملات والأخلاق على أساس من التقوى والخوف من الإله ، فكان لهذا أثره الكبير فى تفكير وسلوك الإنسان المصرى ، فيما عدا شواذ الناس الذين حاولوا هدم هذه القواعد بعلم السحر الذى برعوا فيه .

٤ — أما هندريك فان لون فى كتابه قصة الجنس البشرى فيمهد لمعتقدات المصريين المتطورة بقصة التطور العضوى رابطاً بين الإثنين فى صراحة ووضوح قائلا :

« سأقص عليك كيف مهد المسرح لنشأة الإنسان معتمداً على أصدق الروايات (١) . . لقد كان الإنسان آخر من وفد على الأرض من المخلوقات ولكنه كان أول من استعمل عقله فى التغلب على قوى الطبيعة . .

فى البدء كان الكوكب الذى نعيش عليه ، فيما بلغ إليه علمنا كرة ملتهبة ، أو قل غمامة من الدخان (٢) تسبح فى محيط الفضاء الذى لايتناهى ، ثم احترق سطح هذا الكوكب خلال ملايين من السنين حتى همد وغطته طبقة رقيقة من الصخور ، وانهمر المطر على هذه الصخور الجدباء سيولا لاتنقطع ، أخذت تعرى أحجار الجرانيت حاملة معها الغرين إلى الأودية

---

(١) ، (٢) واضح أنه اختار رواية من الروايات المختلفة يصفها بأنها أصدق الروايات من وجهه نظره طبعا وهذه بداية تدل على افتقاد المنهج العلمى مع ادعائهم أنهم يسيرون على المنهج العلمى ، فشأن المنهج العلمى أن يتخذ من العناصر لبحثه ماهو معلوم ومتيقن من صدقه . لا المرجح صدقه من وجهة نظر خاصة ولا المشكوك فى صدقه كما فعل هذا الكاتب وغيره كما سبق بيانه .

الكامنة بين الصخور الشاهقة القائمة على الأرض التى كان البخار لا يزال يتصاعد منها .

وأخيراً حانت ساعة بزوغ الشمس من خلال السحب ، فطلعت على هذا الكوكب الصغير ، فإذا هو مغطى بقليل من برك موحلة قدر لها أن تتطور فيما بعد ، فتستحيل إلى المحيطات المترامية الأطراف فى مشارق الأرض ومغاربها .

ثم وقعت فى يوم من الأيام عجيبة العجائب ، ، فانبعثت الحياة مما كان ميتاً وطفت الخلية الحية الأولى فوق مياه البحر ، وظلت هذه الخلية ملايين السنين يتقاذفها التيار على غير هدى ، ولكنها كانت خلال ذلك العهد الطويل تكتسب صفات خاصة من شأنها أن تيسر لها سبيل البقاء على هذه الأرض ،

وكان بعض هذه الخلايا أسعد حالا فى أعماق البحيرات والبرك المظلمة فقد تأصل هذا البعض فى الرواسب الغرينية التى انحطت من أعالى الهضاب ، ثم أصبح نباتاً ، وآثر بعضها التنقل من مكان إلى آخر فنمت له أرجل عجيبة ذات مفاصل أشبه بأرجل العقارب ، وأخذ يدب هنا وهناك على طول قاع البحر بين النباتات والكائنات الخضراء الباهتة . . ثم أخذت هذه الكائنات على مر الأيام تعمر المحيطات بعشرات الآلاف من الأسماك . وكانت النباتات فى ذلك الوقت قد ربت وتكاثرت فلم تجد بدأ من أن تبحث عن أماكن أخرى تستوطنها ، ولم يعد قاع البحر يتسع لها جميعاً ، فتركت البحر كارهة واتخذت لها مواطن جديدة فى المستنقعات وعلى الجسور الموحلة فى سفوح الجبال . .

وقضت قروناً طويلة فى محاولات التواؤم واختيار الأحسن حتى كانت الأشجار التى عرفت آخر الأمر كيف تتفتح عن زهر . . . يجذب النحل والطيور ..

على أن بعض الأسماك بدأ يغادر البحر ، وتعلم كيف يتنفس برئتيه ، فكانت الحيوانات البرمائية كالضفادع ، وأخذت هذه الحيوانات تهيء نفسها شيئاً فشيئاً للحياة على اليابسة ، فكانت الزواحف والحشرات ، ثم المخلوقات هائلة الجثة ، ثم انقرضت الزواحف بعد أن عمرت مليوناً من السنين ، ثم سكن العالم كائنات أخرى تختلف عن الزواحف ، كانت مخلوقات انحدرت من هذه الزواحف ولكنها كانت بعيدة الشبه منها أطلق عليها العلم الحديث « الثدييات » ... إلى أن يقول وتستطيع أن ترى من أبناء عمومتك حيوانات لم تألفها الفك بغيرها ، قابعة وراء القضبان فى حديقة الحيوان .

ثم ينتهى إلى أنه لاهو ولا غيره يعرفون إلا النزر اليسير عن الإنسان الحقيق الأول ، ومع هذا يرجح أن يكون الانسان قد تطور من حيوان آخر مجهول .. لكنه يعترف بأن معلوماته التى وصل إليها أو وصلت إليه من خلال البحوث التاريخية والتنقيبات الأثرية أقل من الكفاية سواء بالنسبة له هو شخصياً أو بالنسبة لغيره ، أما الباقى فهو فى طى المجهول ، إلى آخر هذا الكلام الذى لا يمكن أعتماده علمياً ، ولا يصح الارتكان إليه بصفة نهائية مسلمة ، كما أشرنا إلى ذلك وناقشناه من قبل .

لكن الذى يلفت نظرنا ، ويهم بحثنا هو استمرار الكاتب فى تتبع هذا المجهول حتى يصل إلى قصة مصر ، ويكتشف من خلالها الظواهر الدينية ، معتمداً على التاريخ والآثار فيقول :

« كان الإنسان فيما قبل التاريخ مضطراً إلى إنفاق ست عشرة ساعة كل يوم سعياً وراء طعامه وطعام أسرته ، أما الفلاح المصرى وساكن المدن المصرية ، فقد كان لديهما فراغ ينفقانه فى صنع أشياء كثيرة .. ولم يقتصر الأمر على هذا فقد اكتشف المصرى فى يوم من الأيام أن عقله يستطيع أن يسلك جميع ضروب التفكير التى لاتتصل بمسائل الطعام والنوم والمأوى

« بسبب وجود النيل » فبدأ يتدبر .. ويتساءل : من أين أتت النجوم ؟ ومن ذا الذى صنع الرعد الذى كان يفزعه أشد الفزع ؟ ومن ذا الذى جعل النيل يفيض فى مواسم معينة .

سأل المصريون هذه الأسئلة الكثيرة ، وتصدى بعض الناس عن طيب خاطر للإجابة عنها بقدر ما يستطيعون ، وقد سماهم المصريون « الكهنة » وأصبح هؤلاء هداتهم .

ثم ينتهى الكاتب إلى أن عقيدة المصريين نشأت وتطورت بالتدريج حتى عرف المصريون اليوم الآخر متأثرين فى ذلك بالبيئة ومحتوياتها كالنيل وغيره .. إلخ » (١) .

٥ — ويعالج « ول ديورانت » فى مؤلفه قصة الحضارة جـ ٢ ص ١٥٥ وما بعدها « يعالج معتقدات المصريين القدماء على نحو لا يختلف كثيراً عما سبق عرضه ، إلا أنه يتردد فى نهاية معالجته لقضية الألوهية والتوحيد لدى المصريين تردداً يفتح مجالا جديداً أمام الباحثين .

ويلخص مذهبه هذا بقوله :

لقد كان الدين فى مصر من فوق كل شىء ومن أسفل منه ، فنحن نراه فى كل مرحلة من مراحله ، وفى كل شكل من أشكاله ، من الطوطم إلى علم اللاهوت ، ونرى أثره فى الأدب وفى نظام الحكم ، وفى الفن ، وفى كل شىء فضلا عن الأخلاق ، وليس هو مختلف الصور والأنواع فحسب ، بل هو أيضاً غزير موفور ، ولسنا نجد فى بلد من البلاد ، إذا استثنينا بلاد الرومان والهند . ما نجده من الآلهة الكثيرة فى مصر .

---

(١) ص ١٧ — ١٨ .

يقول المصرى : إن بداية الخلق هى السماء ، وقد ظلت هى والنيل أكبر أربابه إلى آخر أيامه ، ولم تكن الأجرام السماوية العجيبة فى اعتقاده مجرد أجرام ، بل كانت هى الصور الخارجية لأرواح عظيمة ، لآلهة ذوات إرادات — لم تكن متفقة على الدوام — توجه حركاتها المختلفة المعقدة وكانت السماء قبة تقف فى فضائها الواسع بقوة عظيمة هى الآلهة « حتحور » والأرض من تحت أقدامها ، وبطنها يكسوه جمال عشرة آلاف نجم ، وكانت للمصريين عقيدة أخرى « لأن الآلهة والأساطير كانت تختلف من إقليم لإقليم » تقول أن السماء هى الاله « سيبو » النائم فى لطف .

ومن عقائدهم أن الأبراج والنجوم قد تكون آلهة .. وكان القمر إلها ، ولعله كان أقدم ما عبد من الآلهة فى مصر ، ولكن الشمس فى الدين الرسمى كانت أعظم الآلهة ، وكانت تعبد فى بعض الأحيان على أنها الاله الأعلى رع أو ، رى . . الأب اللامع الذى لقح الأرض بأشعة الحرارة والضوء النافذة ، وكانت تصور أحياناً على أنها عجل مقدس . . أو أن الشمس كانت هى الاله « حورس » مصوراً فى صورة باشق رشيق .

وكان رع أو الشمس هو الخالق على الدوام . . إلى أن يقول : وقصارى القول أن هذه الأساطير كانت فى جملتها أساطير دالة على الذكاء تعبر فى تقوى وصلاح عن اعتراف الانسان بفضل الارض والشمس .

وأخيراً يصل ول ديورانت إلى أن الآلهة صارت فى آخر الامر بشراً أو أصبح البشر آلهة ، حتى رأى إخناتون أن الألوهية أكبر ما تكون فى الشمس وهنا يتردد ول ديورانت فى تعليل رأى إخناتون فيقول :

ولسنا نعلم هل أخذ اخناتون نظريته عن بلاد الشام أو ابتدعها ؟ خصوصاً إذا كان قد حقق بها الوحدانية العامة ، وأصدر أوامره بمحو أسماء الآلهة الأخرى تماما ... حتى يعد ديورانت من مآسى التاريخ أن اخناتون

بعد أن حقق خلم الوحدانية العامة لم يترك ما فى دينه الجديد من صفات نبيلة يسرى فى قلوب الناس بتؤده . فكانت الردة بعد ذلك بسبب تشدده فى فرض دينه الجديد على الناس .

والمجال الجديد الذى ينفتح أمام الباحثين هو تساؤل « ول ديورانت »

هل أخذ اخناتون نظرية : أن الألوهية أكبر ماتكون فى الشمس عن بلاد الشام أو ابتدعها . خصوصاً وقد كشف عن عبادة المصريين للنجوم والقمر والشمس والبشر .

وهى من العبادات التى حاول إبراهيم عليه السلام هدمها ونقضها كما أشار إلى ذلك القرآن فى مواضع عديدة ، مما يفيدنا فى مناقشة هـــذه المذاهب .

* * *

مناقشة هذه المذاهب :

هذه المذاهب والآراء فى بحث معتقدات المصريين القدماء وتعليل نشأتها بالبيئة ، وتعليل تطورها بالتدرج الطبيعى تخدم أنصار مذهب التطور التصاعدى للدين تبعا للتطور الفكرى والحضارى أو هكذا يدعون .

وكأن الإنسان المصرى كأى إنسان آخر خضع فى فكره وتصرفاته أى فى ثقافته العامة للبيئة والظروف الطبيعية المحضة . ولادخل لشىء آخر فى هذه الثقافة بوجه عام ، وكأن الدين كجزء من هذه الثقافة خاضع لما خضعت له .

فوصل الإنسان المصرى إلى التوحيد على سلم التدرج الطبيعى مبتدئا بالأسطورة أو بالخرافة أو بالطوطم وبكثرة الآلهة ، ثم بقلتها ، أو بالثنائية حتى وصل إلى التوحيد ، فلما انتكست مصر سياسيا من جراء الأحداث التى أحاطت بالدولة انتكست دعوة اخناتون إلى التوحيد ، وعادت الوثنية .إلخ . فالتقدم فى العقيدة رهن بالتقدم فى مجالات الحياة كلها .

هذه النظرية سادت أوربا فى القرن التاسع عشر ، وحاول تطبيقها على تاريخ الأديان عدد كبير من العلماء منهم سبنسر Spencer وتيلور Tylor وفريزر Frazer ودوركايم Durkheim وغيرهم وإن اختلفت وجهات نظرهم فى تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها كما يقول دراز (١) .

لكن فريقاً آخر تصدى لهذه النظرية وذهب إلى إبطالها بالبحوث والدراسات العملية المشابهة لدراسات القائلين بالتطور محاولا إثبات أن عقيدة التوحيد المنزهة عن كل نقص هى أقدم ديانة ظهرت فى البشر ، مستدلا بأنها لم تنفك عنها — أى عن عقيدة التوحيد الكاملة — أمة من الأمم فى القديم والحديث ، فتكون الوثنيات أو الخرافات وغيرها من النقائص المنافية لعقيدة التوحيد أعراضاً طارئة ، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

إلا أن طريقة الفريقين ينقصها المنهج العلمى المستقيم ، أو العالم الذى يحيط بالمسألة إحاطة تامة ولا يحكمه هواه ، ولا ينقصه شىء من ضرورات المنهج العلمى الصحيح .

وتساوى الفريقين فى هذا الشأن يمكن كلا منهما من العثور على الأدلة المؤيدة لمذهبه ، انطلاقا من قاعدة الافتراض والتخمين والخيال أو اعتماداً على التاريخ والآثار وهما عرضة للتغيير والتبديل كلما ظهر اكتشاف جديد مما لا يصل إلى درجة اليقين العلمى — كما سبق — على أن المنهج العلمى الصحيح لابد أن يهدينا سواء السبيل ، وهو المنهج الذى ملك وسائله العالم المحيط الخبير بأسرار الكون والنفس الانسانية ونظم الاجتماع فى الماضى والحاضر والمستقبل . فقدم على أساس من هذا المنهج قواعد التحضر

---

(١) الدين ص ١١٢ .

الإنسانى ، وحقيقة الدين فى بدايته ، وصورته مع الإنسان طوال تاريخه ، منذ الطفولة الإنسانية التاريخية إلى اليوم .

فإذا كان كتاب العالم المحيط الخبير وهو الكتاب المعتمد الذى لم تتدخل فيه يد البشر بتغيير أو بتحريف قد أخبر بأن عقيدة التوحيد النقية هى بداية العقائد الإنسانية منذ الطفولة ، ثم انحرف بها الإنسان فخلط بها الشوائب والأباطيل ، وأخضعها لأهوائه وقصوره وعجزه . ثم كانت الرسالات تخلصها من الانحرافات الإنسانية ، وهكذا كانت سنة التطور فى الدين غير خاضعة لسنة التطور الحضارى أو الثقافى .

إذا كان العالم قد قال هذا وأخبر به فإن أقل مايجب على الإنسان ، أن يضع هذا القول أو الخبر موضع الافتراض العلمى ثم يبحث عما يوصله إلى اليقين .

* * *

والسؤال الآن : كيف نفسر إذن معتقدات قدماء المصريين على هذا الأساس ؟ .

إن الإجابة لاتحتاج إلى جهد كبير إذا اصطحبنا منطق المنهج العلمى الصحيح وهو منطق النظر فى قول العالم الخبير المحيط ، ووضعه موضع الافتراض العلمى باعتباره أصدق الأقوال من وجهة النظر العلمية المحضة ، وباعتباره أخبار عالم له كتاب لو وضع فى ميزان المقارنة مع أى كتاب آخر لتميز عنه ، بل ولدل على أن صاحبه أعلم بمادة بحثه من أى موجود آخر .

وقد راعى هذا الكتاب - القرآن - أثناء رصده لتجارب وخبرات الأمم والحضارات السابقة ، أن يقدم عائد هذه التجربة ونتائجها ، والتفاعل الذى

تُرتب على جريانها — أو إجرائها — مع التعرض للظروف والأحوال التى وقعت فيها التجربة بالقدر الذى يفيد الإنسانية ويعود عليها بخيرة نافعة وهو فى هذا يؤكد حق الإنسانية الناضجة فى الاستفادة من تجارب الأجيال وفى نفس الوقت يعرف الطريق الصحيح إلى هذا الحق حين يحدد اهتمامات الناس وما يجب على العقلاء أن يهتموا به وما لا يصح الاهتمام به أما ما يجب الاهتمام به فهو التجربة وعائدها وأما ما لا يجب الاهتمام به فهو اسم المكان أو الشخص أو الأشخاص أو عدد الناس أو التاريخ أو غير ذلك مما يتصل بالتجربة ولا يفيد فى مسائل التقدم والرقى ، وهناك أمور يصح الاهتمام بها ولكن القرآن لا يتناولها بالتفصيل لإعطاء العقل الإنسانى فرصة البحث والتأمل حين يكون ذلك ضرورة من هنا كانت قصص القرآن عرضا لتجارب وناتج كل تجربة ، ومع كل عملية لها حصة من العطاء النافع حين التعرض لموقف معين يكون وضع القصة أو الموقف بحيث يؤدى هذه الفائدة وهكذا يظهر من التجربة ما يجب أن يظهر ويبقى فى الغيب ما يجب أن يبقى .

الأمور العلمية الكثيرة ومنها :

(أ) حث النفس الإنسانية على البحث فى المجال الذى يقود إلى تحصيل عدد منافع مادية ومعنوية للبشر ، كالبحث فى طبقات الأرض والبحوث الحيوية ، والتاريخية ، وغير ذلك مما يحقق للإنسانية تقدما ماديا .

(ب) ترك المسائل كل الاجتهاد الإنسانية الحركة البشرية العقلية للإنسان لأن الفصل فيها يفتح عدة أبواب للفتن والخلافات ، فالإنسان لن يوقف عقله عن العمل فى مثل هذه المسائل حتى لو قيلت فيها كلمة فاصلة ولأن العقول تختلف من شخص إلى آخر ، كما تختلف من وقت إلى وقت ، فاحتمالات التناقض هنا لا تحد بحدود ، ولا يوجد ما يمنع من ذلك مطلقاً .

(جـ) نظر الاحتمال اجتماع فئة على كلمة كاذبة أو خبر مزيف باسم

العلم أو باسم غيره خصوصاً فى ظروف التخصصات الدقيقة ، تلافى ذلك وهو احتمال قائم يؤدى حتما إلى تكذيب الحقيقة ، مما يسمح بهدم نسبة الكتاب إلى العليم الخبير المحيط . كذبا وادعاء أو يفتح مجالات من الصراع ، الإنسانية فى غنى عنها .

كل هذه الأمور وغيرها كانت تحت عين الكتاب الناطق بالحقيقة . فلم يتعرض للتأريخ لحدث بالسنة واليوم والساعة ، كما لم يتعرض لتحديد منطقة التجربة بالحد الجغرافى أو اسم البلد إلا إذا كان الأسم فائدة وأهمية خاصة بلحظة التجربة أو الحدث لأن مثل هذا التعرض قد يواجه باجتهاد إنسانى يناقضه ، ويدعى الصدق لنفسه والكذب لغيره ، وهى أمور يصعب الاتفاق عليها ، فتركها أولى من التعرض لها فإذا ما اتفق بشأنها على شىء لم يكن الاتفاق مناقضا لدعوى الكتاب الناطق بالحقيقة المجردة . وهذه قصة أوردها صاحب كتاب « على هامش التاريخ المصرى القديم » نلخصها للقارىء ليرى حكمة العالم صاحب الكتاب العلمى « القرآن » وإن كنا لا نحتاج إلى أدلة خارجة عنه ، لكنها بمثابة أدلة للذين لا يؤمنون بهذا الكتاب تدلهم على مدى علميته ودلالته على صانعه خصوصاً إذا كنا قد ارتضينا أن نضع قوانين هذا الكتاب موضع الافتراض العلمى .

معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية :

قامت بين سنه ١٧٩٤ وسنة ١٨٨٠ معركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية شغلت بها أوربا فى هذه المدة الطويلة . وكان منشؤها أن الكنيسة وقسسها وقعوا فى خطأ ألبسوه ثوب الدين وجعلوا منه عقيدة من أنكرها خرج على الكنيسة وكفر بالدين . وكان كثير من البحث العلمى فى ذلك الوقت واقعا فى أيدى القسس ، فما عرض واحد منهم لهذه العقيدة إلا وهى عنده من الحقائق الثابتة التى لا يرقى الشك اليها . ومازالوا كذلك حتى هب عليهم علم الآثار المصرية فثار بهبوبه غبار ، ثم اشتد هذا الغبار فتحول

إلى معركة حامية تقف منها الكنيسة وقسسها فى جانب ، وتقفه الآثار المصرية فى جانب آخر ، إلى أن انهزمت العقيدة بعد حوالى تسعين سنة . وحينئذ أفاقت الكنيسة وأفاق قسسها فاعترفوا جميعا أنهم مخطئون وأن الآثار المصرية انتشلتهم من باطل كانوا فيه مخدوعين .

وموضوع هذا الخطأ أن فى التوراة ، أو « كتاب العهد القديم » ، نصوصا عن خلق العالم وتسلسل الأجيال من آدم « عليه السلام » إلى نوح « عليه السلام » ، وقد ذكرت التوراة فى هذا التسلسل أعمار الأشخاص واحداً بعد الآخر ، فكان من السهل على الذين يجمعونها أن يحددوا الزمن الذى مضى على خلق الإنسان . ونذكر هنا شيئاً من نصوص التوراة على سبيل المثال .

ففى « الإصحاح الخامس » من « سفر التكوين » ما نصه :

هذا كتاب مواليد آدم يوم خلق الله الإنسان على شبه الله . عمله ذكرا وأنثى ، خلقه وباركه ودعا أسمه آدم يوم خلق ، وعاش آدم مائة وثلاثين سنة وولد ولدا على شبهه كصورته ودعا أسمه شيثا . وكانت أيام آدم بعد ما ولد شيثاً ثمانمائة سنة . وولد بنين وبنات . فكانت كل أيام آدم التى عاشها تسعمائة وثلاثين سنة ومات ،

« وعاش شيث مائة وخمس سنين وولد أنوش : وعاش شيث بعد ما ولد أنوش ثمانمائة وسبع سنين وولد بنين وبنات ، فكانت كل أيام شيث تسعمائة واثنتى عشرة سنة ومات . . الخ . . الخ » .

وتستمر النصوص على هذا المنوال حتى تصل الى نوح ثم الى ابراهيم . فعلى هذه النصوص استند الذين قدروا عمر الإنسان على الأرض ثم لما كانت هذه النصوص قد اختلفت باختلاف النسخ فقد اختلف تبعاً لذلك تاريخ خلق الإنسان . وذلك أن هناك ثلاث نسخ للتوراة كل واحده منها اعتبرتها الكنيسة مقدسه : نسخة عبرية ونسخة سامرية ونسخة سبعونية .

ففي الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم الى ابراهيم ٢٠٢٣ سنة . وفي الثانية تبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٣٤ سنة . وفي الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة . أما المدة من ابراهيم الى عيسى « عليه السلام » فهي ٢٢٠٠ سنة . وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الإنسان الى رسالة عيسى هي ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلما بها ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة . فانتشرت في المؤلفات الدينية وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التي ألفها القسس . وهذا هو الخطأ الذي أخذ العلم المصري بصدمه منذ سنة ١٩٧٣ ، فثارت الكنيسة وثار معها أنصارها في أوربا كلها على مصر والعلم الذي يأتي منها ، فتغلبوا في بدء المعركة ، ولكن الصدام استمر ، فكان العلم المصري ينهض يوما ويكبو يوما ، وبلغ من حمو المعركة أن أشترك فيها أكبر العلماء من الجانبين ، وأشتغل بها رجال الدين ورجال العلم ورجال السياسة ، لا بل اشتغل بها البابا بيون الثاني عشر نفسه . وأخيراً انتصر العلم المصري فقضى على الخطأ واعترف بانتصاره الذين حاربوه .

وعادت الكنيسة إلى التوراة ترجع البصر فيها ، ففكرت وفكرت ، ثم اهتدت فجأة إلى أنها أخطأت في اعتبارها تلك الأرقام التي فيها مقدسة وفي استخراجها منها الحساب الذي استخرجته . ولا يتسع المقام هنا لشرح جميع الأسباب التي بنت الكنيسة عليها نظريتها في هذا الخطأ ، فيكفي أن نذكر منها سببين .

الأول : أن كل نسخة من نسخ التوراة الثلاث اختلفت الأرقام فيها عن الأخرى في جملتها وفي تفصيلاتها ، فهذا الاختلاف وحده يمنع من أن تكون مقدسة .

والثاني : أن التوراة حينما تقول إن فلانا ولد فلانا لا يكون مرادها أن الثاني ولد للأول غير أن يكون بينهما جيل أو أجيال ، بل المراد فقط أن الثاني نسل للأول بحيث قد يكون حفيداً له أو أبعد من حفيد . وإذن يكون من الخطأ أن تجمع الأرقام التي في التوراة ليقال إن مجموعها هو الزمن الذي

انقضى بين آدم ونوح ، ثم بين نوح وإبراهيم ، ثم بين إبراهيم وعيسى ، ثم ليقال فى النهاية أن هذا هو الزمن الذى انقضى على خلق الإنسان .

وبهذا التفسير الأخير خرجت الكنيسة من التصادم مع العلم المصرى . وبه أيضاً أعلنت أنها كانت على خطأ فى تحديدها السنين التى كانت تحددها لخلق الإنسان . وبه أخيراً اعترفت بهزيمتها أمام الآثار المصرية . ولكن اعترافها هذا لم يأت إلا بعد معركة حامية شغلت بها أوربا كما رأيت من سنة ١٩٧٣ إلى سنة ١٨٨٠ (١) .

ومن هنا يظهر لنا مدى الحكمة فى عزوف القرآن عن مثل هذه الامور وعدم التعرض لها . لما تجره من صراع وما يترتب على هذا الصراع من خسارة مادية ومعنوية تنعكس حتما على النظام تخلفا وانحطاطا .

معتقدات المصريين والمنطق العلمى :

ومن هنا أيضاً يكون المنطق العلمى قاضيا بعدم دلالة معتقدات المصريين القدماء على التطور التصاعدى للدين تبعاً للتطور الثقافى أو الحضارى ، وإنما يهيىء الدين الصحيح أو الدين المقنع فرص التقدم الحضارى أو الثقافى لما يمنحه للنفوس المقتنعة والمؤمنة من راحة وعدم قلق ، فتنشط النفس وتنتج فى ميادين الحياة المتنوعة ، لأن الاستقرار العقائدى يؤدى إلى صرف الجهود البشرية فيما يؤدى إلى التقدم والرقى . أما التقدم الحضارى والرقى المادى فقد يؤديان إلى الانصراف عن الدين وعدم الاهتمام بالعقيدة .

ولعل هذا الخيط الرفيع هو سر الخلط والربط بين التقدم فى الدين والوصول إلى مرتبة الوحدانية ، وبين التقدم فى جوانب الحياة الأخرى .

فالنفوس حينما تستقر فى معتقداتها التى تمدها بقواعد الفكر والسلوك المنضبطين تزحف مطمئنة نشطه إلى كل ميادين النشاط الحضارى أما إذا كانت النفوس مترددة قلقة فى معتقداتها انعكس هذا القلق وذلك التردد على كافة الانشطة الإنسانية الأخرى تخلفا وفساداً .

---

(١) ص ٤١ — ٥٠

والنتيجة أن الحضارة أو الثقافة عائد الدين وللاعتقاد ، وهى التى يجب أن تقاس بالدين فتخضع الثقافة أو الحضارة لنوع الاعتقاد وقدرته على بث الطمأنينة فى النفس وتنشيط قواها وحفزها على العمل فى ميادين الحياة ، فالدين يسبق جميع الأنشطة الانسانية فاذا صح أدار الحياة إدارة نشطة صالحة مستقيمة ، وإذا فسد أدار الحياة إدارة خاطئة فاسدة .

* * *

ومن هنا أيضا يكون المنطق العلمى قاضيا بعدم دلالة الوصول إلى التوحيد من جانب المصريين بهذا الطريق التدريجى على أن الدين كله من صنع الإنسان ولا صلة له بالوحى .

لأن التوحيد سبق هذه المعتقدات كلها ، وعرفته الإنسانية . منذ آدم ، ثم عبثت أهواء البشر ونزعاتهم الظالمة بالاعتقاد الصحيح .

فلما عاد التوحيد المصرى بصورته هذه لم يكن إلا اقتباسا من دين صحيح سواء جاء هذا الاقتباس من طريق قراءات اخناتون واطلاعه على معتقدات قديمة ، أو من بلاد الشام حيث عاصر اخناتون دعوة نبى من الأنبياء أو وصلته دعوته ، ويرجح ذلك أمور :

الأمر الأول : بشرية التوحيد الذى فرضه اخناتون حيث لم يفارقه عجزه البشرى فلم تخلص وحدانيته من شوائب النقص ، إذ اختار الشمس إلهاً أكبر ، بالرغم مما أضفى على إلهه من صفات هى أعلى صفات الكمال فهو الحى المبدىء الحياة ، الملك الذى لاشريك له فى الملك ، خالق الجنين من النطفة التى ينمو منها الجنين ، نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق ، قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير فى الهواء وترقص الحملان من مرح فى الحقول فهى تصلى له وتستجيب لأمره ، ويسمع الفرخ فى البيضة دعاءه فيخرج إلى نور النهار واثبا على قدميه . قد بسط الأرض ورفع السماء ، وأسبغ عليهما حلل الجمال ، وهو ملء البصر وملء الفؤاد ، وهو الوجود ، وواهب الوجود وشعوب الأرض كلها عبيده لأنه هو الذى أقام كل

شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الاحد آتون « الشمس » .

وقد عقد كل من هنرى برستيد وأثرويجال مقارنة بين صلوات اخناتون وأحد المزامير العبرية فاتفقت المعانى بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد الخواطر المصادفات .

ومن أمثلتها قول اخناتون : « إذا ما هبطت فى أفق المغرب أظلمت الارض كأنها ماتت .. فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها» .

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه « .. تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه يدب كل حيوان الوعر ، الاشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها، تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض ، الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء . ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت ، ملآنة الارض من غناك ، هذا البحر الكبير الواسع الاطراف ، هناك دبابات بلا عدد ، صغار حيوان مع كبار ، هناك تجرى السفن ولوياثان (أى التمساح) هذا خلقته ليلعب فيه ...» (١) .

ومثله فى صلوات اخناتون : « ما أكثر خلائقك التى تجهلها أنت الإله الاحد الذى لا إله غيره ، خلقت الارض بمشيئتك ، وتفردت فعمرت الكون بالانسان والحيوان ، والكبار والصغار » .

« تسير السفن مع التيار وفى وجهه ، وكل طريق ينفتح للسالك ، لانك أشرقت فى السماء ، ويرقص السمك فى النهر أمامك ، وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار » .

« وتضىء فتزول الظلمة ، وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسعون ويرفعون أيديهم إليك .. ويمضى سكان العالم يعملون» (٢) .

وفى هذا ما يدل على أن ما وصل إليه اخناتون مما سمى توحيداً ، لم يزل يشاب بالنقص ، بل يبتعد بعدا شاسعا عن التوحيد الحقيقى المنزه .

---

(١) الكتاب المقدس ص ٩٠٥ - ٩٠٦ (٢) الله - العقاد ص ٥٦ - ٥٧

كان توحيد اخناتون مجرد نزعة بشرية دفع اليها معارف ومعلومات تميز بها اخناتون نتيجة لكثرة اطلاعه وبحثه ، فاقتبس له صفات الكمال الالهى من معتقدات قديمة أومعاصرة ـ لها مصدر صحيح من الدين أوالوحى ، لكنه عجز — أى اخناتون — عن التعرف على الاله الحق الذى يجب أن يتصف بصفات الكمال هذه:

فكانت الشمس أورع بديلا لعجزه مع ماعرف عن اخناتون من عكوف على التفكير والخلوة والتأمل والتفقه والرغبة فى الابتكار .

الأمر الثانى من الامور التى تدل على أن ماوصل المصريون أواخناتون اليه من توحيد لم يكن صعوداً على سلم التطور الطبيعى، كالم يكن كله من صنع الانسان ، بل كان خليطا من فكر الانسان والاقتباس من وحى أودين سماوى قديم . وجود رسالات سماوية سابقة أغفلها دعاة مذهب التطور وأنصارهم عمدا ومن غير دليل علمى على إنتفائها ، بل قام الدليل العلمى على وقوعها . ما بين القرنين السابع عشر والثالث عشر ق م تقريبا .

مثل : دعوة رسل الله إبراهيم ويوسف وموسى ، وهى الدعوة التى عاشها المصريون أنفسهم ، ودعاهم إليها الرسل السابقون وتحمل فى مجملها توحيد الاله الخالق وتنزيهه قبل اخناتون بمئات السنون وكان لابد أن تترك أثرها التاريخى والفكرى فى البحث والدراسة . فإذاثبت عكوف اخناتون على القراءة والبحث والتفكير ، كان طبيعيا أن يتأثر بذلك التراث الدينى القديم ، وأن يأخذ منه بالقدر الذى يستطيع فهمه واستيعاب أهدافه ، وهو ماحدث ، وتدل عليه أيضا الرجعة الفكرية والدينية أو الانقلاب على أفكار اخناتون بعد وفاته مباشرة .

فلأن اخناتون فهم ولم يعط غيره فرصة الفهم، وأدرك كثيراً من الأشياء، ولم يمكن غيره من هذا الادراك ؛ فربط فهمه وإدراكه بإله يستوى فى نظر الفكر المصرى العام بالآلهة المعبودة الأخرى . ولم يجدوا تعليلاعقليامقبولا

لأفراد الشمس بالعبادة لم يكن بد من الردة الدينية العملية السريعة والانقلاب إلى التعدد بدلا من التوحيد الاخناتونى .

* * *

الأمر الثالث: من الامورالتى تدل على أن ماوصل للصريون أوماوصل اخناتون إليه من توحيد لم يكن صعوداً على سلم التطور الطبيعى ، كما لم يكن كله من صنع الانسان بل كان خليطا من فكر الانسان والاقتباس من وحى أودين سماوى قديم ، وجود الدعوات الدينية الرافضة لعبادة الأوثان والكواكب والارواح وملوك البشر والحيوانات والنباتات . أى وجود الدعوات الدينية الصحيحة الرافضة لنفس الاشياء التى عبدها المصريون والداعية الى عبادة الاله الحق الواحد المنزه عن جميع النقائص .

فلا مجال لادعاء أن الانسان هو الذى وصل بفكره إلى الدين الصحيح المنزه ، ولامجال لادعاء أن التطور كان سلم الانسان الطبيعى للترقى فى عباداته وصعوده من الكثرة إلى القلة ثم من القلة إلى الأقل حتى وصل إلى التوحيد .

فالتوحيد عرفه الإنسان الاول وهو أبونا آدم عليه السلام وتناقلته الدعوات الدينية الصحيحة ، ولم يكن المصريون أول من عرف التوحيد فحتى توحيد المصريين لايمكن أن يسمى توحيداً بالمعنى الصحيح إلا إذا أنكرنا الواحد الحقيق ، وهو الله الخالق فاطر السموات والارض ، وإذا ماوصل أخناتون إلى إفراد رع أو الشمس بالعبادة وإضفاء صفات الكمال عليها فلايدل هذا إلا على أن التوحيد عقيدة تقدمية راقية فإذا ماصار توحيدا عن منزها النقائص ، أصبح عقيدة أكثر تقدمية ورقيا . وهذا لايمنع من وجود التوحيد مع أول انسان أوحى اليه وتتبعه الله بالوحى ، وبالحماية والرعاية ، حتى تكاثرت أجياله ، وأصبح قادرا على العيش وسط وحوش الطبيعة وهوامها : فلما انقطع الوحى مدة . وتدخلت أهواء الناس وأغراضهم بدأت الردة الدينية ، وشيبت العقائد الصحيحة بالزيف البشرى

هذا هو التفسير الصحيح لوجود العقائد على هذا النحو أو ذاك .

الامر الرابع : عالجت الكتب المقدسة قصة العقيدة الصحيحة فأشارت الى وجودها منذ آدم أصل البشرية .

وقد أحيطت هذه المعالجة بالدقة والخبرة والاحاطة والعلم ، لانها من قبل العالم الخبير المحيط كما سبق أن قررنا ، وسنعود الى شرح هذه المعالجة عند حديثنا عن معتقدات القدماء من القرآن الكريم .

خلاصة القول :

أن العقيدة الصحيحة بوجه عام عرفها آدم عليه السلام منزهة عن كل النقائص والشوائب ، وكلمـــا تعرضت للردة الفكرية وتدخل الاهواء والغرائز البشرية للتحريف والابهام والكفر جاء الرسل لتنقيتها ، ولأن الفطرة الإنسانية مرتبطة دائماً بقوة عليا ترى فيها القدرة على التنظيم الصحيح للعلاقات الانسانية بعضها مع بعض ومع الكون ، فإن استقامة هذه الفطرة ترتبط بالوحي الذي يهدى الفطرة العاقلة إلى العقيدة الصحيحة التي هي في الأساس منطلق السلوك الصحيح .

أما الانحراف فيجيء بتدخل الأغراض والأهواء البشرية ، ومحاولة خروج الإنسان من القيود التي تفرضها العقائد الصحيحة عـــلى الغرائز والاهواء ويتطور الانحراف حتى يصل إلى انكار الإله الخالق أو الاشراك به ولهذا لا تجد دينا يصنعه البشر أو يتدخلون لتحريفه يعتمد على اقناع العقل السليم والمنهج العلمي ، بل لابد أن تجد فيه ما يتنافر معهما وصدق الله العظيم (لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

وفي ضوء هذه القاعدة كانت عقائد المصريين أثناء التعدد وبعد التعدد وعند عبادة شيء غير الاله الخالق الحقيقي ، صورة من الانحراف عن الفطرة

المستقيمة والوحى الصحيح ، أى ردة دفع إليها الهوى والغرائز البشرية بادىء ذى بدء ثم تطورت إلى صورها المختلفة وأشكالها العديدة التى طالعناها ، وكان توحيد اخناتون محاولة بشرية مميزة اختلط فيها الفكر الانسانى بالدين الصحيح فجاء على هذه الصورة الناقصة غير الكاملة . .

تفسير عقيدة البعث والحساب :

وعلى نفس الطريقة وبنفس المنهج يمكن تفسير عقيدة البعث والحساب ، فالايمان بالبعث والحساب حقيقة دينية وصلت إلى المصريين من طريق دين صحيح ، لولا أن عبث بها الفكر الانسانى البشرى ، وخالطها التحريف ، فحول صورة البعث إلى خيال بشرى وقضية على مستوى الادراك الحسى للبشر .

فنزلت من مستوى الادراك الايمانى السامى إلى هذه الصورة التى عرضت وهى صورة ناقصة تدل على عجز العقل حين يكون وحده وبلا وحى عن الوصول إلى حقائق هذه الامور .

الفصل الخامس

نقد نظرية التطور فى ضوء
معتقدات قدماء الهنود

الدين الطبيعى ـ البرهمية ـ الجينية ـ البوذية ـ تفسيرها فى ضوء التطور

معتقدات قدماء الهنود

لايكاد يختلف اثنان على وجود النزعة الفطرية التى تلتمس الألوهية فيما وراء الطبيعة ، أو فى الوصول بالطبيعيات حجارة أو أشجارا أو بشرا إلى مرتبة من المثالية تساوى القول بما وراء الطبيعة .

وقد حفلت الهند بهذه النزعات المتنوعة المختلفة إلا أن الخلاف بيننا وبين علماء مقارنة الاديان إنما هو فى القول بأن هذه النزعة كانت أصلا للعبادات والأديان التى تطورت من عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة إله واحد .

فالأصل عندنا هو عبادة الإله الواحد ، ثم الانحراف والردة إلى عبادة مظاهر الطبيعة وقواها ، ولعل ذلك الانحراف كان تقربا بها إلى الإله الحقيقى ابتداء ثم إلى تأليهها هى دون الإله الخالق .

وأمامنا الآن حقل جديد للدراسة والبحث وتفسير المعتقدات الإنسانية هو معتقدات قدماء الهنود .

الأديان الهندية :

مادمنا نستمد أصول الحديث فى هذه الأمور من مصادر بشرية ، فإن مدى علمنا بالحقيقة لايعدو الاستنتاج والافتراض .

من هنا سنفترض أن المكتشفات الاثرية القليلة التى عثر عليها حديثا ، وغيرها من دراسات ، تدل على أن سكان الهند عرفوا من الأديان .

١ — الدين الطبيعى : أى تقديس وعبادة مظاهر الطبيعة . مباشرة أو بواسطة الرموز والتماثيل والطواطم .

فمثلا كانوا يعبدون آلهة من إناث البشر والحيوان ، ويعلل الدكتور

« عثمان عبد المنعم عيش » مؤلف كتاب « الأديان والمذاهب الشرقية » يعلل لهذا بقوله « ولعل ذلك يرجع إلى رؤية الرجل البدائى أن الأنثى فى المخلوقات الحية هى المصدر المباشر لتكاثر الأنواع ورعايتها .

ويقول الدكتور أحمد شلبي فى كتابه « أديان الهند الكبرى»[1] عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات، وبخاصة البقرة ، كما عرفوا عبادة الطبيعة .

وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق ويشارك العقاد فى التعليل لظهور هذه المعتقدات قائلا[2] « وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمى ، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى فى بعض الأحياء فيحل فيها ، فيحتمل حلوله فى هذا الحيوان أو ذاك ، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديما أو صديقا عائدا إلى الحياة » .

وقد حظيت البقرة من الحيوانات بقدسية خاصة بقيت لها حديثا كما كانت قديما . حتى يقول عنها المهاتما غاندى (عندما أرى بقرة لا أعدنى أرى حيوانا ، لأنى أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع[3]) .

٢ — الديانة البرهمية :

من أقدم الديانات فى الهند « الديانة البرهمية » التى يرجع وجودها إلى نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ويعتنقها الآن معظم سكان الهند وبعض سكان الباكستان ، كما يقرر عالم الإجتماع الكبير الدكتور على عبد الواحد وافى الذى يرى أن الديانة البرهمية تنسب للاله براهما

---

(١) ٢٨ نقلا عن Wech فى كتابه The peoples and Religions of india

(٢) ص ٢٨ المرجع السابق .

(٣) ص ٣٢ المرجع السابق .

وهو عند معتنق هذه الديانة اسم للاله الخالق ، ناقضا بذلك
بذلك ماذكره الشهرستانى فى الملل والنحل من أنها تنسب إلى رجل عظيم منهم يقال له براهم ، وما قاله غيره من أنها تنسب إلى إبراهيم عليه السلام .

٣ - الجينية :

نشأت كنوع من رد الفعل للبرهمية ، وتزعمها مهاويرا الذى قاد فكرة نفى الآلهة والاعتقاد بأن الموجودات تحمل فى تركيبها المادة والروح ، وأن كل روح من هذه الأرواح خالدة يجرى عليها التناسخ الذى أقرته البرهمية .

٤ - البوذية :

حركة ثانية من رد الفعل للنظام الذى فرضته البرهمية وقاد هذه الحركة « سيذاتا جوتاما بوذا » أحد أبناء عائلة من النبلاء وقد رفض نظام الطبقات ولم يعترف بالآلهة التى أوردتها الكتب المقدسة للبرهمية .

وسنتناول بالشرح والتحليل هذه الديانات وقصة تطورها على هـذا النحو الغريب .

العقيدة أصولها وتطورها فى بلاد الهند من خلال الفكر الإنسانى .

تمهيد :

يبدو من العرض المبسط الذى ذكرناه ، أن ماشغل بال الهنود كبشر - يتميزون عن بقية الكائنات بالفطرة العاقلة الباحثة عن إله خالق للكائنات يبدو أن ماشغل بالهم هو عملية التكاثر التى تتم بين المخلوقات بطريقة تتوافق مع مواسم معينة وخلال دورات منظمة تجعل المفكر الخالى الذهن يبحث عن أسباب هذه العملية ومقننها ، فذهبت بعض الأفكار إلى إثبات متوسطات غيبية ، وذهبت بعض الأفكار الأخرى إلى الأنثى يرون فيها ذاتية خالقة لعملية التكاثر ، فكانت المتوسطات الغيبية شيئا منزها عن كل مايتصف به المخلوقين مما يتصل بهذه العملية فلا يولد ولا ينكح ولا يطعم ولا يشرب ، ولا يهرم ، ولا يموت . . فليكن شخصا أو ملكا روحانيا أو غير ذلك

وكانت الأنثى مثلا أعلى لهذه العملية التناسلية المنتظمة فعبدت لذاتها وكانت البقرة أوضح هذه الأمثلة وعبد غيرها تبعا لاختلاف الأفكار والمدارك ..

إلا أن تداخل عملية الخلق والتكاثر تدخلت فى كل المعتقدات الهندية تقريبا فإذا عبدت مظاهر الطبيعة فلأنها مصدر يؤثر فى هذه العملية، كالشمس وإله السماء وإله المطر والمياه والأنهار . . إلخ .

وإذا قيل بالتناسخ فلأن العقل عجز عن الإجابة على عملية التجدد والخلق مع الموت . . . وكثرت الأديان والمعتقدات حول هذه المعانى والأفكار إلا أن البرهمية استطاعت أن تحتوى غالبية الهنود وتحمل اتجاهاتهم وأفكارهم .

ودراسة البرهمية هى السبيل لالقاء الضوء على المعتقدات الهندية .

يظهر أن البرهمية مرت بمراحل عدة ، فاشتملت فى بدايتها طرقا مختلفة للعبادة ، وعددا من الآلهة فى العقيدة ، وقواعد متغايره للسلوك والشريعة وخليط من أفكار الهنود وأفكار غيرهم من الغزاة الآريين وغيرهم من المهاجرين ، فكانت تمثل صورة المجتمع الهندى المتعدد البيئات والاجواء واللغات والعادات والتقاليد ومدى قوة تأثير الغزاة المهاجرين .

يقول العقاد فى كتابه الله لو اشتملت البرهمية القديمة على عبادة الاسلاف كما اشتملت على عبادة المظاهر الطبيعية ، فتقديس الملك عندهم إنما هو تقليد موروث من تقديس جد القبيلة تحول إلى تقديس الرئيس الاكبر فى الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلى الامة ، ويحسب العلامة البوت سميث كما قال فى كتابه « المبادىء » The Beginning ـ أن مراسم تقديس الملك التى لا تزال مرعية فى جوار الهند كانت تحاكى مراسم قصة الخليقة كما تخيلها المصريون.. فلم يكن حق الملك مستمدا من الجلوس على العرش أو من البناء بالملكة التى تنقل إليه حقوقه الملكية ، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه فى حفل

يمثل قصة الخليقة ، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقديس قدرته على الخلق ومنح الحياة ، وهى قدرة لاغنى عنها لاضطلاعه بالمراتب الملكية .

وقصة الخليقة فى الهند تشبه قصة الخليقة المصرية فى أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة : فالحياة خرجت من بيضة ذهبية كانت تطفو على الماء فى العماء ، والاله الأكبر كان ذكراً وأنثى فهو الأب والأم للأحياء كما جاء عن « رع » فى بعض الأساطير المصرية ، وبناء العالم من صنع بناء ماهر فى أساطير مصر والهند على السواء ، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الاله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة . . فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور إلى حيز الوجود . ويواصل العقاد حديثه فيقول : وتعززت فى الهند عبادة الطواطم بعقيدتهم فى وحدة الوجود وتناسخ الارواح كما تعززت بعقيدة الحلول — فعبدوا الحيوان على اعتباره جدا حقيقيا أو رمزياً للأسرة ثم للقبيلة .

ثم تخلفت عبادة الحيوان حتى آمنوا بأن الله يتجلى فى كل موجود أو يخص بعض الاحياء بالحلول فيه ، وآمنوا بتناسخ الارواح لجاز عندهم أن يكون الحيوان جدا قديما أو صديقا عائدا إلى الحياة فى محنة التكفير والتطهير .

فعاشت عندهم الطوطمية فى أرقى العصور كما عاشت فى عصور الهمجية ، بهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم لكنهم خلصوا كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الإيمان بالإله الواحد (١) وإن اختلفوا

---

(١) سبق أن قررنا خطأ هذا الاتجاه وبينا أن الإيمان بالإله الواحد نشأ مع أول إنسان ثم كانت الردة وتدخل الاهواء فكان التحريف . . . .

في المنهج الذى سنذكره فلم يكن إيمانهم به على الاساس الذى قام عليه إيمان الشعوب الاخرى بالتوحيد .

فهم قد بدأوا بإبطال جميع المظاهر فنسبوا إليها التعدد والاختلاف لانها تتكرر وتزول وتستتر من ورائها الحقيقة الابدية التى لاتتكرر ولا تزول . وتلك هى حقيقة القضاء والقدر ، التى تقدر للآلهة وتقضى عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضى عليها فى أجلها المحدود .

وهنا ذهب حكماؤهم إلى مذهبين غير متفقين ، فبعضهم تمثل تلك الحقيقة إلهاً واحداً قريباً من الإله الواحد فى أكثر ديانات التوحيد ،

أما الفريق الثانى فالحقيقة الأبدية عنده معنى ليس له قوام من الذات الواعية ، وإنما هو قانون يقضى بتلازم الآثار والمؤثرات ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالاديان الكتابية إلا أنه قضاء يسرى على الآلهة كما يسرى على البشر ويتغلغل فى طبائع الخالقين كما يتغلغل فى طبائع المخلوقات ، وحكمه الذى لا مرد له هو حكم التغيير الدائم والفناء ، وحكم الإعادة والإبداء . » .

ويحسن بنا أن نستعرض الكتب والأسفار المقدسة للبرهمية ، وأن ماتشتمل عليه من عقيدة وشريعة وعبادات وأخلاق ، حتى تتيسر مهمتنا فى تحليلها وتعليل وجودها على هذا النحو فى ضوء منهجنا العلمى ، .

. . . والتبديل والرجعية الفكرية . وعندما تعود الإنسانية إلى الإيمان المنزه لايكون ذلك بطريقة انسانية بحتة ، بل يكون اقتباسا من وحى أو دين صحيح سابق أو معاصر . فلا يصح ادخال الإيمان المنزه ضمن حلقات التطور الفكرى الإنسانى . لان تعزيز هذا الرأى يخدم القوم بأن . . .

أصل البرهمية ومراجعها :

تختلف علماء مقارنة الأديان فى تاريخ نشأة البرهمية فنهم من يقرر وجودها بين سنتى ٨٠٠ ثمانمائة و ٦٠٠ ستمائة قبل الميلاد (١) ومنهم من يرجع بها إلى زمن أبعد بكثير حيث يصل إلى ألف وخمسمائة قبل الميلاد (٢) أحياناً وأكثر من ذلك (٣) .

ولعل سر الاختلاف يرجع إلى عدم معرفة الوقت الذى دونت فيه كتبها المقدسة بدقة . وعدم معرفة واضعها الحقيقى .

وسميت البرهمية نسبة إلى إلهها براهما Brahme واسم براهما نفسه مأخوذ من معانى المعبود والعبادة ومرجع هذه الديانة الكتب المنسوبة إلى الفيدا ومن هذه الكتب استخرجت وكذلك استمدت منها « قوانين مانو » التى تنسب إلى مشرع هندى قديم يسمى « مانو » وتفسر وتبين ما اشتملت عليه كتب الفيدا من عقائد وعبادات وشرائع وأخلاق وقصص

وهذه الكتب وقوانين مانو مقدسة لدى البرهميين ، ويعتقدون أنها من وضع الآلهة المنبثقين عن الإله الخالق « براهما » وهو أى واضع « الفيدا » أزلى فى نظرهم وهلهم .

. . . الإنسان هو الذى صنع الأديان أو القول بأن العقل كاف للتوصل الى الإيمان المنزه فلا حاجة للرسل . . . الخ .

(١) الأديان والمذاهب الشرقية د . عثمان عيش ص ٢٧ .

(٢) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للاسلام وعلى عبد الواحد وافى ص ١٠٦ .

(٣) الله — العقاد ٦١ .

الكتب الفيدية ومشتملاتها اجمالا :

يطلق البرهميون اسم « الفيدا » على مجموعة كتب دينية يعتقدون أنها وحى من الإله براهما « نفسه وقد جمعها حكيم من حكمائهم اشتهر باسم فيدا فياسا » أى جامع الفيدا (١) وتضم أخبار وأحوال الآريين فى الهند فى عهدهم القديم ومقرهم الجديد ، حلهم وترحالهم ، دينهم وسياستهم حضارتهم وثقافتهم، معيشتهم ومعاملاتهم « مساكنهم وملابسهم مهنهم وأعمالهم ، مراحل تدرجهم العقلى ابتداء من سذاجة البدوى إلى شعور الفلسفى ، وتدرجهم الدينى من أدعية ابتدائية تنتهى بالارتياب ، إلى ألوهية ترقى إلى وحدة الوجود (٢) .

١ — « الريج فيدا » أو « ريتش فيدا Rig Veda (ومعناها المعارف النارية المنسوبة للنار) ويعد أشهر الكتب الفيدية الأربعة وأهمها وأشملها .

وهى قسمان : قسم يشمل أدعية وأناشيد وأوراداً منظومة يتلوها أتباع البرهمية أمام الآلهـــة تضرعا فى بعض المناسبات ، وتيمنا فى مناسبات أخرى متعددة تزيد عن الثلاثين إلهاً ، وأشهرها هو الإله « أندرا » إله الآلهة ويتلوه فى الدرجة « أغنى » إله النار وراعى الأسرة ثم الإله « فارونا » .

فالإله سوريه (الشمس) وغيرهم . ويسمى هـذا القسم « منترا » .

وقسم يشمل تعاليم وشرائع تتعلق بالعبادات والمعاملات الدينية بطقوسها وشعائرها وطريقة ممارستها ويعد أهم مرجع فى دراسة الدين البرهمى ويسمى هذا القسم « برهمانا » أو برهماناس .

---

(١) الأسفار المقدسة . عبد الواحد وافى / ١٥ .

(٢) أديان الهند الكبرى د . أحمد ص ٤٢ .

٢ — ياجورفيدا أو ياجرش فيدا Yadjour veda (ومعناها المعارف والعلوم الهوائية أى المنسوبة للهواء) وهى أيضاً قسمان وكل قسم ينقسم هو الآخر إلى قسمين .

القسم الأول ويسمى « ياجور فيد البيضاء » هذا القسم يشمل جزءه الأول أدعية وابتهالات يتجه بها الأتباع إلى الآلهة فى بعض المناسبات (منترا) ويشمل جزءه الآخر تعاليم تتعلق بالطقوس والشعائر الدينية وطريقة ممارستها (براهمانا) .

وماصح بالنسبة للقسم الأول يصح بالنسبة للقسم الثانى — « ياجور فيدا السوداء » ، من ناحية التقسيم . حيث يشمل جزؤه الأول أدعية وابتهالات ويشمل جزؤه الثانى تعاليم تتعلق بالطقوس والشعائر الدينيه وطريقة ممارستها .

وطقوس الياجورفيدا تتضمن طريقة تقديم الضحايا والقرابين التى تحفظ الناس من الشياطين والأرواح الخبيثة التى يتوقعون شرها .

٣ — ساما فيدا Samaveda ، ومعناها المعارف الشمسية أى المنسوبة إلى الشمس ، وهى أيضاً قسمان : قسمان : قسم يشمل أغان وترانيم دينية يتغنى بها الأتباع فى بعض المناسبات الدينية ، وقسم يشمل تعاليم الطقوس والشعائر الدينية وطريقة ممارستها .

آثار فيدا Atharveda وتشمل فى أحد قسميها أدعيه وأناشيد للاستغفار والرقى ضد السحر وضد الأرواح الشريرة خاصة ما يتصل بالعلاقات الاجتماعية وتقسيمها إلى طبقات وتحديد الصفات التى تعين كل طبقة ومركزها ووظائفها عند البرهمين .

كتب مقدسة أخرى

ويضاف إلى مجموعة الكتب الأربعة كتابا يلحقه بعضهم بالكتب

الفيدية فتصبح خمسة ، ويسمون هذا الكتاب « الفيدا الخامس » ويضم سفرين أو قسمين هما « الايتهازا » و « اليورانا » .

ولكن الصحيح كما يقرر ذلك الدكتور على عبد الواحد وافى (١) أن هذين السفرين وأسفارا أخرى مثل « السوترا » و« البرهمانا » و« اليوبانيشاد » و « الفيدانتا » و « الأرانيا كاس » هى شروح وتعليقات على الفيدا ، وليست من أسفار « الفيدا نفسها » ، أنها قد ألفت فى عصور متأخرة عن العصور التى ظهرت فيها أسفار الفيدا الإصلية .

فالبرهمانا » مثلا وهو أقدم هذه الشروح والتعليقات يمثل تفسيرا مفصلا لقسم « الياجورفيدا » ويشتمل على مقالات تفيض فى شرح الطقوس والشعائر الدينية التى يمارسها الكهنة ، ومن ثم كان من أهم مايرجع إليه فى دراسة الدين البرهمى .

أما « الأرانيا كاس ، فيحتوى على الأسس والقواعد والتعليمات الفنية التى يجب على الكهنة مراعاتها أثناء الطقوس الدينية ، كما يشتمل على نصائح موجهة إليهم فيما يتعلق بالزهد والنسك واعتزال الحياة .

وكذلك « الأوبانيشاد » وهوأحدث تلك الكتب فيحتوى على الأفكار الفلسفية والنظرية التى أبدعتها تلك الديانه ، وطريقة عرضه على منهج السؤال والجواب بين تلميذ هو « شيلا » ، وأستاذ هو « جورو » حول تساؤلات عقلية هامة ، كالحقيقة الواقعية ، والمظاهر الخداعة التى لاتمثل الحقيقة ، وصدور التعدد عن الواحد وتخلص الإنسان من الكثرة وتفانيه فى الواحد إلى غير ذلك .

ومن الكتب المقدسة الهامة فى الديانة البرهمية « قوانين مانو » أو « ما نافادها رماساسترا » الذى يحتوى تفصيلا شاملا للدين البرهمى ،

---

(١) الأسفار المقدسة ص ١٥٩ .

عقائده وعباداته ، ومعاملاته ونظامه الاجتماعية - سياسه واقتصادا وتربية وقضاءاً وحربا وقوانين مدنية وعقوبات ونظم تربية وأخلاق وعلاقات أسرية ، - كما يشتمل على تاريخ نشأة الكون وخلق الإنسان وتقسيم الطبقات .

وهذا الكتاب يعد لدى البرهميين من الكتب المقدسة ذات المنزلة الخاصة التي تصل إلى الاعتقاد بأن مؤلفها أحد الآلهة الستة المنبثقين عن الإله الخالق أو المطلق « براهما » .

كما يعد من أهم المراجع للباحثين في الدين البرهمي لاستيعابه جميع نواحي هذا الدين وشموله لجميع فروع الحياة ، واستمداده الأحكام من الكتب الفيدية نفسها كما أكد مؤلفه نفسه في مقدمته .

وينسب إلى مشروع قديم أسمه « مانو » أو « مانافا » ولا يعلم تاريخ تدوينه على وجه الدقة ، وأرجح ماقيل في هذا الصدد من آراء أن مؤلفه عاش حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد (١) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٦١ — ١٦٢

مشتملات الكتب المقدسة البرهمية تفصيلا

تشتمل الكتب المقدسة البرهمية – كما رأينا إجمالا – جميع جوانب الحياة البشرية . فتعرض لكل جانب منها بالتشريع والتقنين والواجبات . ولا تكاد تدع فرعا من فروعها إلا وتعرض له بشيء من ذلك . وقد آثرنا أن نعرض لهذه الجوانب على النحو التالى :

١ – العقائد . تفصيلا لأهميتها وصلتها بموضوعنا .

٢ – العبادات – إجمالا

٣ – الشرائع – إجمالا

٤ – الأخلاق – إجمالا

العقيدة البرهمية فى كتبهم المقدسة :

مغالطة علمية :

لست أدرى كيف غفل علماء مقارنة الأديان خاصة القائلين منهم بتطور العقيدة من التعدد إلى التمييز والترجيح ثم الوحدانية تبعا لتطور العقل الانسانى ورقى معارفه .

كيف غفل هؤلاء عن الوحدانية المنزهة التى عرفها الهنود قبل جمع وتدوين الريجفيدا فقبل ذلك كما يقول « ماكس موللر » الثقة الحجة فى اللغات الآرية . . « أيا كان العصر الذى تم فيه جميع الأناشيد المسطورة فى الريجفيدا فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذى لا هو بذكر ولا بأنثى ، ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الانسانية ، وارتفع شعراء الفيدا فى الواقع إلى أوج فى إداركهم لحقيقة الربوبية لم يترق اليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الاسكندرية المسيحيين، ولكنه فوق

هذا لايزال أرفع وأعلى مما يليق بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين(١).

كيف يفسر أصحاب اتجاه تطور العقيدة تبعا لتطور الحضارة والثقافة هذا الايمان المنزه، فى وقت لم يكن العقل الهندى العام فيه قد تخلص من تشبثات الأطفال، فلا تزال توجد مع هذا الايمان طوطمية يقول عنها العقاد (فعاشت عندهم الطوطمية فى أرقى العصور كما عاشت فى عصور الهمجية(٢).

ولن يستطيع أحد من القائلين بتطور العقيدة الانسانية ووصولها إلى مرتبة التوحيد على سلم التطور أن يعلل الامتزاج بين الطوطمية كعقيدة بدائية وبين التوحيد كعقيدة هى قمة الرقى العقائدى.

لن يستطيع أحد أن يعلل ذلك تعليلا علميا، إلا أن يعبر على مغالطة مشوبة بغشاء من الظلمة الفكرية، كما فعل العقاد بقوله « ولكنهم خلصوا — كما خلص غيرهم من هذه العبادات إلى الايمان بالاله الواحد.

قال هذا فى نفس الصحيفة التى قال فيها (فعاشت عندهم الطوطمية فى أرقى العصور كما عاشت فى عصور الهمجية(٣).

فليس أمامنا إلا منهجنا الذى سرنا عليه فى بحوثنا فى هذا الكتاب، فلندرس العقيدة فى كتب الدين البرهمى من خلال منهج علمى بحت.

تقوم العقيدة البرهمية فى كتب الفيدا وقوانين منو على الأسس التالية.

١ — توحيد الله مع تعدد أسمائه وصفاته:

اتجهت الكتب الفيدية إلى توحيد الله الخالق وتنزيهه عن النقص والشرك،

---

(١) الله للعقاد ص ٦٤ (٢) المرجع السابق ٦٣

(٣) ص ٦٣ الله

وإن ذكرت له عدة أسماء وكثيرا من الصفات : فهو وحده الموجود بحق ؛ ولا تمثل هذه الكائنات إلا مظاهر ، وآثارا صدرت عنه ، وقد سرت منه روح فى الجماد والنبات والنبات ، وهو فى النهاية « براهما » الفاعل المطلق ، والخالق الأزلى الأبدى المتصف بكل صفات الكمال الإلهية ،

وإليه وحده « براهما » يتوجه الأتباع بالعبادة « إندرا » .

وهذه أبيات من قصيدة مترجمة عن السنسكريتية من الريج فيدا أوردها الدكتور أحمد شلبي فى أديان الهند الكبرى ص ٤٥ . تقول :

هو الأهل من كل شىء وهو الأسنى	إله الآلهة ذو القوة العليا
الذى أمام قدرته الغالبة	ترتعد الأرض والسموات العالية
أيها الناس استمعوا لشعرى	إنما هو إندرا له الكسوف

* * *

هو الذى قهر الشياطين فى السحاب	وأجرى الأنهار السامية الصافية الكبار
واقتحم كهوف الكآبة والأكدار	وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام
وأضاء النار القديمة من البرق فى الغمام	ذلك هو اندرا البطل الجسور

* * *

الجيش المتقدم للهيجاء	ينادية للضوء يوم الحرب
الاعزاء بصيته الذائع يهتفون	والأذلاء يذكرون أسمه بشفاهم ويهتفون
وقائد الجيش على العجلة الحربية	يدعو ويستنصر إندرا إله الحرب

* * *

الارض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله
والجبال المرتعدة تخرله وتسجد لجلاله
هو الذى يرسل صواعق السماء على أعدائه
فلتهد إليه الكتائب المقدسة

ويورد الدكتور علي عبد الواحد فى « الأسفار المقدسة » ص ١٦٣ هذه الكلمات التى تقولها أسفار الفيدا على لسان براهما .

« إننى أنا الله نور الشمس وضوء القمر « وبريق اللهب » ، ووميض البرق وصوت الرياح ، والعرف الطيب ينبعث فى الأرجاء ، والأصل الأولى لجميع الكائنات ، وحياة كل موجود « إننى صلاح الصالح ، أنا الأول والآخر ، أنا الحياة والموت لكل كائن ، إننى أنا الله الذى لا إله غيرى ، رب الارباب مالك السموات والارض » .

ويقول أبو الريحان البيرونى فى كتابه « الفلسفة الهندية » .

« واعتقاد الهند فى الله سبحانه : أنه الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء المختار فى فعله القادر الحكيم الحى المحيى المدبر المبق ، الفرد فى ملكوته - أى المنزه - عن الاضداد والانداد لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء(١) » .

هذا وتتضح عقيدة التوحيد فى أثرين من شروح الفيدا وهما اليوبانشاد الفيدانتا

وهذه العقيدة - أى عقيدة التوحيد - يتشكك البعض فى وجودها على على الحقيقة فينقل الدكتور أحمد شلبى فى كتابه « أديان الهند الكبرى » رأيا للويس رينو فى كتابه Hinduism, Ed يقول فيه : « ولكنهم فى وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحيانا للتوحيد أو اتجاه قريب منه ، فكانوا إذا دعوا إلها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان : أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجل ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والارباب » ويعلق

---

(١) ص ٣٠ وما بعدها تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود . وهذا الكتاب قسم من ثلاثة أقسام من كتاب البيرونى المشهور « تحقيق ما للهند من مقولة - مقبولة فى العقل أو مرذولة » .

على هذا القول بكلام لمؤلف كتاب فلسفة الهند القديمة محمد عبد السلام الذى يصل الحديث بقوله « ويصير إلههم هو ذلك الاله لاغير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كماليه ، ويخاطبونه برب الارباب وإله الآلهة تعظيما وإجلالا لاتحقيقا وإيقانا ، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموه مقام الاول وجعلوه رب الارباب وإله الآلهة ، فهذا التعبير « رب الارباب أو إله الآلهة » كان أولا يدل على العظمة والجلال ، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلا أن وصف الآلهة رئيسا ومرءوسين وآمرا ومأمورين ، وأن الرئيس والآمر هو وحده رب الارباب وإله الإلهة ، وهذا وصف ثابت له لاينتقل إلى سواه ، والكائنات كلها تحت يده ، وسائر الآلهة تحت أمره(١) وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد اتجه فكر الكهنة الهنود إلى ابراز هذه النتيجة التى تقرب من التوحيد أو تصل اليه ، فقد جمعوا الآلهة فى إله واحد ، وقالوا انه هو الذى أخرج العالم من ذاته ، وهو الذى يحفظه إلى أن يهلكه ويرده اليه ، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو براهما من حيث هو موجد ، وفشنو من حيث هو حافظ ، وهو سيفا من حيث هو مهلك(٢) »

تفسير ذلك :

وفى اعتقادنا أن التوحيد المنزه سبق التوحيد المشوب بالريب . وأن الدافع إلى التشكيك فى حقيقة التوحيد الهندية انما هو منهج القول بالتطور العقائدى والاصرار عليه فلما خالف توحيد الهنود قاعدتهم لم يجدوا إلا التشكيك فى حقيقته ليصح منهجهم ، وهذه مغالطات علمية مكشوفة

---

(١) أنظر ص ٤٧ ـ ٤٨ اديان الهند الكبرى .

(٢) المرجع السابق نقلا عن كتاب دروس فى تاريخ الفلسفة ليوسف وابراهيم مدكور .

فالتوحيد المنزه وجد لدى الهنود وغيرهم ، لأنه يكون وحيا أو قاعدة لدين صحيح أو اقتباسا منهما يصل إلى الناس فى أى وقت ومع أى ظروف بيئية أو ثقافية ، ولا يخضع أبدا لقاعدة التطور العقائدى التى وضعها علماء مقارنة الأديان . هذا هو التفسير الصحيح لوجود التوحيد عقب ومع وقبل خضم التعدد والتشبيه والطوطمية وغيرها .

فلا عجب أن نجد التثليث بعد التوحيد كردة عقائدية وتحريف لحقيقة الإيمان نتيجة تدخل الأهواء والنزعات البشرية .

وهذا ماحدث فعلا للبرهمية التى كانت فى أصلها وكما يبدو من نصوص كتبها المقدسة ديانة توحيد . لكنها تغيرت وحرفت على مر الأيام لأنهم زعموا أن براهما كان الوجود فى فضاء لانهاية له ، فرغب أن يكون كثيرا ، فخلق العالم بقوة إرادته وبفيض من ذاته ، وسمى نفسه الخالق ؛ ثم انبثق منه إلا له المدمر ، وهو الإله « سيفا » الموكل بالخراب والفناء ، فلا يمر من شىء أتى عليه إلا جعله كالرميم ، ولو ترك هذا الإله وشأنه لفنيت السموات والأرض ومن فيهن ، ولهذا انبثق من براهما إلاه ثالث حافظ مجدد وهو الإله « فيشنو » وبذلك أمحت عقيدة التوحيد الأصلية فى الدين البرهمى ، واستبدل بها هذا الثالوث كما يقرر ذلك الدكتور على عبد الواحد وافى (١) .

٢ — وحدة الوجود :

تقرر الكتب المقدسة للدين البرهمى ؛ أنه صدرت عن الله الواحد ، جميع الكائنات ، وسرت منه روح فى الجماد والنبات والحيوان ، فالموجود بحق هو الله وحده وليست هذه الكائنات إلا مظاهر منه ، وهذا مايعبر عنه

---

(١) راجع الأسفار المقدسة ص ١٦٦ وما بعدها .

بنظرية وحدة الوجود التى انتقلت إلى التصوف الإسلامى ونظريات رجاله وخاصه ابن عربى والحلاج (١).

فالفناء فى هذا المطلق، والاتصال بهذه الروح العامة، يمثل فى نظر الهندى هدفاً أساسياً فى حياته إن لم يكن هدف حياته كلها، فعرف الهنود من قديم الزمان الزهد المفرط، وجهاد النفس بالصوم وأرق الليل وتعذيب الجسد، كطريق فناء فى المطلق والإتصال بالروح العامة.

وفى «الفيدانتا» تظهر فكرة وحدة الوجود التى يقوم عليها الدين البرهمى وتتضح الى حد لا يحتمل الجدل من خلال اشارات صريحة بأن الله والنفس الإنسانية وجميع الكائنات شىء واحد. مثل هذه العبارة «هذا الكون كله ليس الا ظهورا للوجود الحقيق الأساسى، وان الشمس والقمر وجميع جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق، ان الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الاصيلة، وان الجبال والبحار والأنهار.. تفجر من ذلك الروح المحيط الذى يستقر فى سائر الأشياء (٢).

٣ ـ انكار النبوة :

ذكر الشهرستانى فى الملل والنحل القسم الثانى أن من عقائد البرهميين انكار النبوة، ونسب ذلك الى رجل منهم يقال له «براهم» مهد لهم نفى النبوات أصلا، وقرر استحالة ذلك فى العقول بوجوه منها أن قال: ان الذى يأتى به الرسول لم يخل من أحد أمرين: اما أن يكون معقولا، واما أن لا يكون معقولا، فإن كان معقولا فقد كفانا العقل التام بادراكه والوصول اليه فأى حاجة لنا الى الرسول.

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٣.

(٢) الفيدانتا ص ٤١، ٤٣ نقلا من أديان الهند الكبرى د. أحمد شلبى ص ٦٨

وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا ، إذ قول ماليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية ودخول فى حريم البهيمية (١) إلى غير ذلك من محاولات ادعاء قدرة العقل الإنسانى على معرفة العقيدة الصحيحة والشريعة الصحيحة وقد رد عليه الشهرستانى فى كلمات قليلة مبينا قصور العقل الإنسانى عامة عن المعرفة الكاملة ، والهداية التامة ، وحاجة الإنسانية إلى رحمة الله بالنبوة مع العقل .

ونضيف أن « العقل » كما سبق أن قررنا يمثل قدرة معدة للادراك والعمل كمثل سفينة حديثة مجهزة بأحدث أساليب الحركة والاتجاه والعمل ، فكل منهما لكى يصل إلى هدفه بدقة يحتاج إلى موجه يحدد المسار والطريق المستقيم الموصل إلى الهدف ، ولا يستغنى عن ذلك أبدا خصوصا وقد تعددت المسالك والطرق ، واختلفت المدارك والعقول ، فضلا عما وجد فى الكيان الإنسانى بجوار العقل من جانب حيوانى ، يعاونه الهوى ، ويغذيه الغرض الذاتى . والدليل على ذلك مخالفة ما قرره منكروا النبوة للعقول أو لبعض العقول بشأن هذا الإنكار نفسه .

فلا يعقل أن تصل جميع العقول إلى إدارك شرع الله .

كما لا يعقل أن تصل الى تنزيه الله ونفى الشريك والند والولد مجتمعة ، من غير وحى يتلقاه فرد لا جميع الأفراد .

فالعقل يحكم بضرورة النبوة والرسالة ، والهوى هو الذى ينكر النبوة . والرسالة .

ولا ريب أنه ان صح هذا بالنسبة للبرهمية كان دليلا على انحرافها بعد استقامة خصوصا وأن الشهرستانى نفسه يقول (ومن أهل الهند جماعة أثبتوا

---

(١) ج ٢ ص ٢٥٨ — ٢٥٠ الطبعة الثانية من سلسلة فى الدراسات الفلسفية .

المتوسطات روحانية . يأتونهم بالرسالة من عند الله عز وجل فى صورة البشر ، من غير كتاب . فيأمرهم بأشياء ، وينهاهم عن أشياء ، ويسن لهم الشرائع ، ويبين لهم الحدود . وإنما يعرفون صدقه بتنزهه عن حطام الدنيا ، واستغنائه عن الأكل والشرب والبعال — أى الجماع — (١) .

٤ — تناسخ الأرواح :

يجتمع البراهمية على الاعتقاد بتناسخ الأرواح بمعنى أن الأرواح الجزئية لا تفنى بالموت ، ولكنها تبقى بعد مفارقتها للجسد الذى كانت فيه تنتقل إلى جسد آخر ، وهكذا تظل متنقلة من جسد إلى جسد فى طريقها إلى نهايتها الأخيرة ، وهى العودة إلى أصلها الذى صدرت عنه وهو (براهما) والاتصال به .

وأصل الاعتقاد بالتناسخ هو الاعتقاد بأن الروح الإنسانية ، هى الإنسان بالحقيقة ، وأما الجسد فهو زيف باطل ، ومن ثم فهى خالدة لا يصيبها الفناء الذى يصيب الجسد .

وسبب الاعتقاد بالتناسخ وعلته فى نظرهم أولا أن ما يأتيه الانسان فى حياته من أفعال يستتبع نتيجته بالضرورة : وذلك بما ينال روحه من النقص أو الكمال ، ومن السعادة أو الشقاء ، فإن لم ينله شىء من ذلك ، فى دور حياته الذى وقع فيه ذلك الفعل ، ناله فى أدوار تالية ، تتناسخ فيها روحه ، سواء فى أجساد إنسانية أو حيوانية حسب صلاح أعماله أو فسادها . حتى تتطهر الروح من شهواتها وأهوائها الفاسدة ، ونتائج أعمالها الناقصة ، وتكون بهذا التطهر مستعدة للاتصال ببراهما ، وانتهاء دورتها من الحياة الدنيا . ويعبرون عن هذه الفكرة بكلمة « كارما » .

---

(١) ج ٢ ص ٢٦٣ .

ثانيا : أن الروح بعد خروجها من الجسم تبقى لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادى ولم تتحقق خلال دور وجودها فى جسدها ، وإذا كانت الميول قد خلقت لتستوفى ، فإذا لم تستوف فى دورة وجودها فى جسدها كان لابد أن تستوفى خلال التناسخ حتى تكتمل الميول ولا تبقى للانسان شهوة ماحتى تنجو روحه وتنطلق لتتصل ببراهما .

(من الشروط اللازمة لتجوال الروح وخلاصها على هذا النحو أن الروح فى عالمها الجديد لاتذكر شيئاعن عالمها السابق ، فكل دورة متقطعة تماما بالنسبة للروح عن سواها من الدورات[1]) .

ومنزلة التناسخ وتجوال الارواح (الكادما) لدى البرهميين كمنزلة الشهادة عند المسلمين ، والتثليث لدى المسيحيين ، والأسبات عند اليهود ؛ كذلك التناسخ عند البرهميين ، فمن لم ينتحله لم يك ولم يعد فى جملتها .

(ويؤيد البيرونى هذه القضية بنصوص من كتبهم فيقول : حقيق علينا أن نورد من كتبهم شيئاً من صريح كلامهم فى هذا الباب . . . قال باسديو لارجن يحرضه على القتال وهما بين الصفين : « إن كنت بالقضاء السابق مؤمنا ، فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معا بموتى ، ، ولا ذاهبين ذهابا لارجوع معه فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة ، التى عقباها موت البدن ثم العود » .

وقال له : « كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة . لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها . ولا ماء يغصها ولا ريح تيبسها ، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق

---

(١) أديان الهند الكبرى ص ٦٤ .

نحو آخر ليس كذلك ، كما يستبدل اللباس إذا خلق فما غمك لنفس لا تبيد ، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تغتم لمفقود لا يوجد ولا يعود ، فإن كنت تلمح البدن دونها وتجزع لفساده فكل مولود ميت عائد ... إلخ (١) .

وواضح أن عقيدة البعث والإيمان بالثواب والعقاب قد انحدرت وتراجعت فى العقيدة الهندية حتى صارت على هذا النحو ، فالموجود منها الآن صورة مشوشة لعقيدة البعث والإيمان بالجزاء الصحيحة وسيتضح هذا أكثر عند حديثنا عن الجزاء الأخرون ، فى الفقرات التالية :

٥ — عودة الأرواح إلى مصدرها الأول وهو الله .

تنتهى العقيدة البرهمية إلى تقرير : أن روح كل كائن تعود فى نهاية مطافها إلى مصدرها الأول الذى صدرت عنه وهو الله ، ومادام الإنسان أحد هذه الكائنات ، فإن مايجرى على الكائنات يجرى عليه . إذا تمت دورة روحه ، وخلصت من تكرار المولد وتطهرت ، كان هذا إيذانا بامتزاجها « ببرهما » ويعبرون عن هذه الحالة بالانطلاق ، ويقصدون الامتزاج ببرهما كما تنطلق قطرة الماء عند ارتباطها بالمحيط ، لأن الانفصال يعد قيودا على الروح التى هى قطرة من نور الله . انفصلت عن الله إلى أجل لتعود على طريق التناسخ إلى الله أى إلى تحرير الروح بالاتصال بالمطلق العام .

٦ — الجنة والنار .

يكون طبيعيا مع ماتقدم من معتقدات البراهمة خاصة الاعتقاد بالتناسخ وعودة الروح إلى خالقها ، ألا يكون هناك جزاء أخرون غير هذه الدورة التناسخية والنهاية إلى الاتصال بالله إلا أن الذى يثير التساؤل ويبعث على الغرابة أن يعتقد البرهميون فى الجنة والنار فكيف ذلك .

---

(١) البيرونى الفلسفة الهندية تحقيق د . عبد الحليم محمود ص ٥٣ وما بعدها .

يقول البيرونى شارحا عقيدة البرهمين فى الجنة والنار : المجمع يسمى « لوك » والعالم ينقسم قسمة أولية إلى علو وسفل وواسطة فيسمى العالم الأعلى « سفولوك » وهو الجنة ، والعالم الأسفل « نا كارك » أى مجمع الحيات وهو جهنم ، ويسمى أيضاً نزلوك وربما سموه « بافال » أى أسفل الأرضين ، وأما الأوسط للاكتساب ، والأعلى للثواب والأسفل للعقاب وفى هذين الاخيرين يستوفى جزاء العمل من استحقهما مدة مضروبة بحسب مدة التمل ، والكون فى كل واحد منهما للروح وحدها مجردة عن البدن ، وللقاصر عن السمو إلى الجنة أو الرسوب إلى جهنم (لوك) آخر يسمى (ترجلوك) وهو النبات والحيوان غير الناطق يتردد الروح فى أشخاصهما بالتناسخ إلى أن ينتقل إلى الإنس على تدريج من أدون المراتب النامية إلى عليا المراتب الحساسة ، وكونها فيه على أحد وجهين : إما لقصور مقدار المكافأة عن محلى الثواب والعقاب ، وإما لرجوعها من جهنم ، فعندهم أن العائد إلى الدنيا (من الجنة) متأنس فى أول حالته : والعائد إليها من جهنم متردد فى النبات والحيوان ، إلى أن يبلغ مرتبة الإنسان(١)) .

وهكذا تم التوفيق بين عقيدة التناسخ وعقيدة الإيمان بالجنة والنار ، فأرواح الناس فى حياتهم الأولى تكون فى المنزلة الوسطى منزلة العمل والكسب فإذا ماتوا ذهبت أرواح الخيرين منهم إلى المنزلة العليا (الجنة) تستوفى فيها جزاء اكتسابها مدة معينة تساوى قيمة العمل والاكتساب .

أما أرواح الشريرين فتذهب إلى المنزلة السفلى (جهنم) تستوفى فيها جزاء ما كسبت مدة معينة تساوى قيمة العمل والاكتساب .

وبعد ذلك تتوزع الأرواح أرواح الخيرين تنتقل إلى آدميين أخرين أى ترجع إلى المنزلة الوسطى وأرواح الشريرين تنتقل إلى الحيوان والنبات ثم تتدرج بالتناسخ وهكذا .

---

(١) الفلسفة الهندية ص ٥٩

فالجنة والنار عند البرهميين على هذا يكونان للروح وحدها مجردة عن البدن ويكونان مؤقتين لمدة معينة ، ويكونان فى الدنيا .

وهم يكثرون من عدد الجهنمات وصفاتها وأسمائها ويفردون لكل ذنب محلا حتى يصلون بها إلى ثمانية وثمانين ألفا ، ذكر البيرونى منها ثلاث عشرة بأسمائها وما خصصت له (فرود) مثلا للكاذب وشاهد الزور ومن يعينهما على ذلك والمستهزى بالناس و (رودة) لسافك الدم بغير حق وغاصب حقوق الناس ، والمغير عليهم وقاتل البقر . . . الخ . .

ويذكر البيرونى أيضا مذاهب أخرى للبرهميين فى الجنـــة والنار والجزاء . منها الاكتفاء بالتناسخ وهذا مايراه بعضهم من أن جهنم ليست شيئا آخر غير الانحطاط عن البشرية وتردد روح الخاطىء فى الحيوان والنبات (١) .

فالديانة البرهمية كانت فى أصلها وكما يظهر من نصوص كتبها المقدسة ديانة توحيد منزه عكر صفوها وحدة الوجود (وقد زعمها بعض متصوفة المسلمين كالحلاج) وتناسخ الأرواح ورجوع الكائنات للاتصال بالخالق .

ولكنها تغيرت وحرفت على مر الأيام ، وحلت محلها عقيدة التثليث بزعمهم أن براهما كان قبل الوجود فى قضاء لانهاية له ، فرغب أن يكون كثيراً لخلق العالم بقوة إرادته وبفيض من ذاته (نظرية وحدة الوجود) وسمى نفسه الخالق ، ثم انبثق منه الإله المدمر سيفا الموكل بالخراب والفناء فلا يذر من شىء أتى عليه إلا جعله كالرميم ، ولو ترك هذا الإله وشأنه

---

(١) راجع الأسفار المقدسة للدكتور على عبـــد الواحد ص ١٦٩ والفلسفة الهندية للبيرونى ص ٥٩ وما بعدها .

لفنيت السموات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ مجدد وهو الإله « فيشنو » .

وبذلك انمحت عقيدة التوحيد الأصلية فى الدين البرهمى . واستبدل بها هذا الثالوث . ويتجه البرهميون الآن بمعظم عبادتهم إلى الإله « فيشنو » أصلهم جميعاً فيزعمون أنه قد أدى وظيفته وهى الخلق ، وأنه ينعم الآن بالراحة المطلقة الكاملة .

وقد سرت صفة القداسة عندهم مع تقادم العهد إلى بعض الأنهار والجمادات وبعض الحيوانات وعلى الأخص فصيلة البقر التى ينزلونها منزلة كبيرة من القداسة تقرب من درجة العبادة ويحرمون ذبحها . ويعتبرون لها بأذى من أكبر الجرائم .

وسرت إليهم كذلك عبادة الأصنام التى ترمز إلى الآلهة أو إلى الملائكة أو إلى الكواكب أو إلى القديسين ، وتفننوا فى صنعها ، ووضعوا لنحتها قواعد ومقاييس مضبوطة تختلف باختلاف ماترمز إليه ، وأعطوا كلا منها اسما خاصا وتقربوا إليها بالصدقات والقرابين ، كما ذكر الشهرستانى إنكارهم للنبوة كما سبق .

* * *

كل هذا يدل على أن التوحيد والتنزيه والعقيدة المستقيمة تتحول بتدخل البشر وأهوائهم إلى مثل ما رأينا من تراجع وردة دينية ، كما يدل على أن تطور العقيدة لا يخضع لناموس التطور الطبيعى إلا إذا كانت العقيدة من صنع البشر إما إذا تدخل الوحى فلا مانع من وجود التوحيد المنزه وسط خضم من الظلمة الفكرية والتخلف المادى .

العبادات فى كتب البرهميين المقدسة

يتضح مما سبق عرضه حول العقيدة البرهمية الاتجاه العام الذى يحكم العبادة فى الدين البرهمى وهو الاتجاه إلى الفناء فى الله والامتزاج بالخالق المطلق وعلينا الآن أن نبحث عن الأمور التى تحقق هذا الاتجاه وتخدم هذه الغاية .

١ — الصوم :

فإذا وجدنا الصوم والدعوة إلى الاكثار منه عرفنا أن البرهمية أدركت أن الصوم يساعد على كسر حدة الشهوة الحيوانية للجسم وإضعاف القوى الجسمية وإضعاف سيطرتها على الإنسان . لتصفو الروح ففرضته على جميع الطبقات أو على بعض الطبقات فى مناسبات عدة .

فمن ذلك أنها تفرض الصوم على طبقة رجال الدين الذين يطلق عليهم اسم البرهمانيين فى أوائل فصول الخريف والربيع والشتاء والصيف وفى اليومين الأول والرابع عشر من كل شهر قمرى وروى فى أسفارهم المقدسة كذلك أنه فى أثناء كسوف الشمس يجب الكف عن الأكل والشرب والاتصال الجنسى ، وهذا فيما يتعلق بالطبقات الدنيا وأما الطبقات العليا ، فلا يقتصر واجبهم على ما تقدم . بل يحرم عليهم الانتفاع بشىء من الأطعمة التى تكون بمنازلهم وقت الكسوف ويجب عليهم التصدق بها على غير أفراد طبقتهم بعد تحطيم الآنية التى كانت بها ، وتوجب قوانين مانو على طبقة السيناتا Sinata (وهم كبار رجال الدين من البرهمانيين) أن يكفوا عن الأكل والشرب والنوم والسفر من غروب الشمس إلى غروب الشفق الأحمر كل يوم .

وهذا فيما يختص بالصيام المفروض على بعض الطبقات والصيام الذى يؤدى بمناسبة كسوف الشمس .

وأما الصيام العام فقد ذكر البيرونى أنه عندهم تطوع ونوافل ، وليس شيء منه مفرضا ، وذكر له أنواعا كثيرة ، تختلف باختلاف مواقيتها الفلكية ومناسباتها الدينية .(١) .

وخلاصة القول أن البرهميين يميلون إلى التقشف والورع والزهد فى متع الحياة جملة ويعملون على ترويض الجسم وقمع شهواته بكل أساليب الحرمان .

٢ — الصلاة :

والصلاة تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الابهامين من الراحتين الملصقتين نحو الشمس فإنها القبلة أينما كانت عدا الجنوب فليس يعمل شيء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ولا يتقدم إليها إلا فى كل شيء ردىء .

٣ — الحج :

وزيارة المواضع المعظمة عندهم واجبة على البرهمانيين أما العوام فتطوع وفضيلة . وهو أن يقصد الحاج أحد البلاد الطاهرة ، أو أحد الأصنام المعظمة أو أحد الأنهار المطهرة فيغتسل بها ويخدم الصنم ويهدى إليه ويكثر التسبيح والدعاء ويصوم ويتصدق على البراهمة والسدنة وغيرهم ويحلق رأسه ولحيته وينصرف .

٤ — ويشتمل الدين البرهمى بجانب ذلك عبادات أخرى ، منها مايشبه الصوم فى تعلقه بالجسم ، ومنها ما يتعلق بالصوت ، ومنها ما يتعلق بالقلب .

أما العبادات المتعلقة بالجسم فمن أهمها الصلاة وخدمة الملائكة وعلماء البراهمة ، وتنظيف البدن واحترام الحياة الانسانية واحترام الأعراض .

---

(١) راجع الأسفار المقدسة وعلى عبدالواحد ص ١٧٠- ١٧٢ والفلسفة الهندية ص ١٣٠ وما بعدها .

وأما العبادات المتعلقة بالصوت فمن أهمها ، قراءة الأوراد والدعوات الدينية والتسبيح والصدق وملاينة الناس فى الحديث وإرشادهم وأمرهم بالمعروف وأما العبادات المتعلقة بالقلب فمن أهمها تقويم النية وترك الكبرياء ولزوم التأنى ، وجمع الحواس مع انشراح الصدر .

الشرائع

أبرز شرائع الدين البرهمى النظم الطبقية التى تقسم المجتمع إلى فئات متفاوتة لكل فئة وظائف خاصة بها يتوارثها الأبناء عن الآباء .

تضمن ذلك كتب الفيدا وقوانين مانسو .

فتذهب إلى أن الاله براهما قد خلق الناس من أربع طبقات حيث أنشأ كل طبقة من طبيعة خاصة ، ومن موضع خاص من جسمه . فالبرهمانيين (رجال الدين) من فمه ، والكشتريين (رجال الحرب) من ذراعه ، والفيسائيين رجال التجارة والأعمال من فخذه ، والشودرا أو المنبوذين من قدمه .

وتقسم الوظائف الاجتماعية بحسب منزلة كل طبقة وحسب شرف الوظيفة نفسها وأهميتها فالبرهمانيين المخلوقين من أشرف جزء من الإله وهو الفم أرقى الوظائف وهى الوظائف الدينية ، فلهم وحدهم حق المنح والمنع والقبول والرفض ، وللكشتريين المخلوقين من الذراع الذى هو أقل مرتبة من الفم الوظائف الحربية وحماية الشعب والذود عن حياض البلاد والمحافظة على الأمن وللفسائيين المخلوقين من الفخذ الأقل مرتبة من الذراع والفم القيام بتربية الأنعام وفلح الأرض وشئون التجارة ، وأما الشودرا المنحدرين من القدم الذى هو أحط جزء فى جسم الإله براهما فليس لهم غير وظيفة الخدمة للطبقات السابقة . وهم مع ذلك رجس ونجس لا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهرتهم ولا الارتباط بهم إلا برابطة السيد والمسود وفى أحياء كثيرة من الهند يعتبر مجرد لمس المنبوذ دنسا ورجسا وفى أحياء أخرى يلحق الدنس

والرجس بالشخص إذا مر به المنبوذ على بعـــد بضعة أمتار وديانة المنبوذين غير ديانة بقية الشعب وتنحصر فى عبادة الأرواح وأعظم آلهتهم يظهر فى شكل كومة من الآجر أو فى هيئة أخرى ساذجة . وكما يتوارث الأبناء عن الآباء طبقتهم يتوارثون وظيفتهم .

وقد حاول غاندى أن يقضى عن هذه الفوارق فلم ينجح » ويروى البيرونى أن العائق الذى يحول بينهم وبين نظام الإسلام الذى يسوى بين الناس ولا يفضل أحد على أحد إلا بالتقوى .

وتوجد طبقات أخرى فرعية ذكرها البيرونى فى قسم الفلسفة الهندية ص ٩١ وما بعدها (١) .

ومما تعنى به شريعتهم نظم الزواج والأسرة حيث يعتبر الزواج واجبا على كل قادر وتنظر إلى الأعزب نظرتها إلى عنصر فاسد حقاد ، ويعتقد البرهميون أن من يموت بدون عقب تتخبط روحه كمن يتخبطه الشيطان من المس (٢) .

وتبيح هذه النظم الاستيلاء على المرأة بالقوة لاتخاذها زوجة كما تبيح أن يلحق الولد بجده لأمه نسبا إذا اشترط ذلك فى العقد . كما تبيح للمرأة الاتصال بزوج أختها لتحمل منه إذا كان زوجها عقيما . وتبيح أيضا اتصال المرأة برجل قوى نجيب لتأتى لزوجها بأولاد نجباء بإذنه ، وأن يشترك فى المرأة عدة أزواج وخاصة إذا كانوا إخوة . ولا يزال هذا الاشتراك متبعا إلى الوقت الحاضر فى الهند فى عدة مناطق . وأما تعدد الزوجات للزوج الواحد فقد أباحته جميع كتبهم المقدسة .

---

(١) الأسفار المقدسة ص ١٧٥ — ١٧٦

(٢) قصة الزواج والعزوبة فى العالم د . على عبد الواحد وافى ٩ — ١٠

وتضع كتبهم المقدسة قيودا كثيرة على الطبقات حتى لاتتزاوج طبقة من طبقة أخرى (١).

الاخـلاق

كما عنيت العبادات الهندية البرهمية بالكيفية التى تحقق خلاص الروح وانطلاقها . عنيت الأخلاص بذلك أيضا فكان الحرص على اعتزال الحياة وعلى الزهد فى الدنيا كما كان الحرص على السلوك الفاضل الذى يمثل فى جملته عشرة دعائم أساسية هى الوصايا العشر التالية ، مرعاة الكائن الإلهى ، ومقابلة الاساءة بالإحسان والقناعة والاستقامة والطهارة ، وكبح جماح الحواس ، ودراسة الفيدا ، والصبر والصدق واجتناب الغضب .

بالإضافة إلى اجتناب الرذائل التالية : وهى الكذب وشهادة الزور وسفك الدم بغير حق ، والاستهزاء بالناس وغصب حقوقهم والسرقة وقتل البقر والزنا وجماع المرأة فى الأيام المعظمة وإتيان والبهائم ، والأغضاء على فاحشة الزوجة طمعا فى منفعة والاحتيال والغدر وعقوق الآباء والأجداد والشح والبخل على النفس وإخفاء المال طمعا فى صلات الأمراء وإحراق بيوت الناس وقطع الأشجار وتقصير الأمراء فى واجباتهم نحو رعاياهم (٢) .

---

(١) الأسرة والمجتمع د . على عبد الواحد ص ٧١ - ١٢٤ والبيرونى ص ٩٧ — ٩٨

(٢) راجع الفلسفة الهنـــدية للبيرونى ص ٧١ والأسفار المقدسة د . على عبد الواحد ١٨٠ - ٨١

ويبدو أن الأخلاق البرهمية فى جملتها تدعو إلى كثير من الفضائل التى يدعو إليها الدين السماوى وتنهى عن كثير مما ينهى عنه الدين السماوى من رذائل، مما يدل على أن لها أصلا صلة بدعوة دينية قديمة ثم أصابتها يد التحريف ففرقت بين الناس ووضعت قواعد التفرقة العنصرية إلى غير ذلك من رذائل ينهى عنها الدين الصحيح .

الجينية والبوذية

أو المراحل الجديدة للبرهمية

ظهرت الجينية والبوذية كحركتين مضادتين للبرهمية خاصه فيما يتعلق بنظامها الطبقي وتفرقتها العنصرية ، فقد حول هذا النظام طبقه البرهمانيين إلى طبقة مستبدة ظالمة عانى من إستبدادها وظلمها الشعب بأسره وطبقة الشودرا خاصة ، حتى قاد هذه الثورة النفسية مصلحان أحدهما « مهاويرا » قائد الحركة الجينية وثانيهما « جوتاما بوذا » اللذان حولا ثورة النفس إلى ثورة فى الواقع والحقيقة .

مهاويرا والجينية :

ينحدر مهاويرا من أسرة من طبقة الكاشتريا التى تسيطر على شئون السياسة والحرب ، وتحس باستبداد وظلم البرهمانيين للشعب الهندى عامة ولطبقة الشودرا خاصة .

وكان ميالا إلى رفض الترف والملاذ المتوفرة لأسرته راغباً فى الرهبنة والتبتل والزهد إلا أن مكانة أسرته لم تسمح له بالتعمق فى الرهبنة والخوض فى أسرارها التى احتكرها البرهمانين .

فكان يغرق فى المراقبة إلى حد يجعله لايحس بنفسه ، ولا يشعر بشىء عما حوله ، وذهب يتجول فى البلاد ، حتى تهيأت له المكانة التى يستطيع أن يبدأ بها دعوته ، فبدأ بأسرته وأهل مدينته الذين استجابوا لدعوته ، وأخذت دعوته تنمو بين الملوك والأمراء والقواد الذين رأوا فى هذه الدعوة تعبيرا عما يجول بنفوسهم من رغبة فى الثورة على البرهمانيين .

وظلت دعوته تواصل نجاحها حتى قضى نحبه سنة ٥٢٧ ق م وحيدا فى خلوته .

ويقال بأن مهاويرا كان آخر أربع وعشرين داع للجينية وأن الجينية مذهب قديم جداً (١).

عقائد الجينية تحررت الجينية من سلطان الكتب الفيدية المقدسة وخرجت عليها ، علم يعترف مهاويرا بالآلهة ظنا منه أن هذا هو الطريق لرفض طبقة البرهمانين ، وبالغ فى هذا ، شأنه فى ذلك شأن الحاقدين الذين ملأ الحقد قلوبهم وسيطر على عقولهم ، فراحوا يرفضون الشيء وما يتصل به إرضاء لحقدهم ، ولهذا قرر مهاويرا أنه لايوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ، وسميت الجينية بهذا دين الحاد رفض صاحبه طبقة البرهمانيين ، ورفض معهم الآله إلا أنه أبقى بعد ذلك كل ما يتعارض مع عواطفه المتقدة بالحقد فلا يزال الاعتقاد بالتناسخ ، ولايزال بالزهد طريق الخير ، والسلام شعار الجينية حتى تبالغ فى البعد عن العنف ، لدرجة يكرهون معها قتل الهوام والحشرات . وعدم العنف عهد من العهود الأربعة التى وضعها بارسوانات وهو جينا الثالث والعشرون ، وعلى طريق المسالمه هذه أعترف الجينيون بآلهة الهندوس فيما عدا الثالوث واحترموها للمجاملة والمسالمة .. كما احترموا طبقة البرهمانيين تقديرا لمكانتهم عند الهنود لكن الفطرة الانسانية لاتستغنى عن الاله والعقل الانسانى لا يستريح للانكار التام للألوهية ، فانتهت الجينية إلى اعتبار مهاويرا إلها : بل عدوا الجيناوات الأربعة والعشرين آلهة لهم .

وطبيعى أن يؤدى إنكار الاله إلى إنكار الصلاة وإلغاء القرابين ، ولا يعترفون بالطبقات ، ولا بما تدعيه لنفسها الطبقة العليا فى النظام الهندوسى وهى طبقة البرهمانيين من امتيازات واستثناءات .

---

(١) راجع الأديان الكبرى فى الهند (أحمد شلبي ص ١٠٧ - ١١٢) .

وأباحوا الانتحار بل اعتبروه غاية أو جائزة لاتتاح إلا لخاصة الرهبان الذين اتبعوا الجينية كما أباحوا العرى .

وكأن الماركسية المعاصرة واقع جديد للجينية ستنتهى إلى عبادة ماركس ولينين وغيرهم من أقطاب النظام الشيوعى . لا فرق بينهما إلا أن الجينية لأنها لم تعتمد على الإكراه ولم تستغل ظروف المجتمعات الفقيرة لم يزد أتباعها عن المليون وكلهم فى الهند .

أما الماركسية فتستغل الفقر وتمنى أصحابه بحال أحسن من حاله ، كما تحاول أن تساهم فى إفقار الدول لتجد قبولا للماركسية . مما ساعد على كثرة أتباعها . فالماركسية كالجينية — ثورة حاقدت ضد طبقة فاسدة أنكرت بوحى من حقدها الأديان وتعاليمها إجمالا وتدينت بالماركسية وهادنت الأديان والطبقية فى المجتمعات غير الشيوعية مسالمة . . . إلخ .

بوذا والبوذية :

أما جوتاما بوذا فقد كان أحد أبناء عائلة غنية تحكم مقاطعه صغيرة على منحدارت الهملايا ، وقد تسللت الى عقله أفكار اختلطت بمرارة الواقع الطبقى حينما التقى برجل من أولئك الزهاد الذين يكثر وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه ، والذين يتبعون فى عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون معظم أوقاتهم فى التأمل والوعظ والمناقشات الدينية التى تحيى أعماق النفس الانسانية وتنبه العقل الباحث عن الحقيقة .

فاستولت على جوتاما رغبه شديدة وملحة فى الجرى وراء الحقيقة وشعر أن الحياة التى يحياها ليست هى الحياة الحقة ، وأن ماقضاه منها كان عطلة دامت أكثر مما ينبغى . فقرر هجرها والانطلاق وراء البحث والاحتذاء حذو الزاهد .

تقول القصة كما يرويها « ه . ويلز(١) » إنه كان يتفكر فى هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته الجميلة وضعت بكر أبنائه ، فقال جوتاما : « وتلك رابطة أخرى لامفر من فصمها » .

عاد إلى القرية بين تهاليل أبناء عشيرته ومظاهر إبتهاجهم ، وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات إحتفالا بميلاد هذه الصلة الجديدة ولكن جوتاما استيقظ فى أعماق الليل والألم الروحى العظيم يلذع فؤاده « وكأنه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار فى منزله » .

فصمم على أن يهجر منذ اللحظة حياته المرفهه التى لاهدف لها ، إلى حياة البحث والشقاء لتحقيق هدفه .

فتسلل إلى غرفة زوجته ، فرآها على نور قنديل زيت صغير وهى ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعيها طفله الرضيع ، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويعانقه عناقا يكون هو الأول والأخير ، ولكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك ، وأخيراً ولى ظهره وخرج إلى ضياء القمر الهندى الساطع وامتطى جواده وانطلق إلى العالم .

سار فى تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضى عشيرته ، وترجل على ضفة نهر رملية ، وهناك قطع بسيفه ذوائبه المتهدلة وأماط عنه كل حلية ، وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله ، ثم واصل سيره حتى التقى — للوقت — برجل فى أسمال وتبادل وإياه الثياب ، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق الدنيوية ، أصبح حرا فى متابعة بحثه وراء الحكمة .

واتجه جنوباً إلى مثوى للنساك والمعلمين يقوم على طنف (ماتنامن جبل)

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ١٢٢ ومابعدها .

بين التلال بجبال الفندهيا . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء فى منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لمستلزماتهم البسيطة ، ويدلون شفوياً بما لديهم من المعرفة لكل من يعنى بالحضور إليهم . وأصبح جوتاما ضليعا فى كل علوم ماوراء الطبيعة فى عصره ، غير أن ذكاءه الوقاد لم يقنع بالحلول التى قدمت إليه .

والعقل الهندى ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليها بالزهد المفرط أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس .

فلجأ جوتاما إلى اختبار هذا الاعتقاد ، وانطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة ، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكير ، وطار صيته وذاع

بيد أن ذلك لم يقنعه ولم يجلب عليه أى شعور بالفوز بالحقيقة . وبينما هو يسير ذات يوم ذهابا وإيابا ، محاولا أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب عن وعيه فجأة ، حتى إذا أفاق من غشيته ، تجلت أمام ناظريه سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فألقى الرعب فى أفئدة رفاقه بطلبه الطعام العادى ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبلوغ أية حقيقة هى العقل الجيد التغذيه فى جسم سليم .

وكانت مثل هذه الفكرة غريبة غرابة مطلقة على أفكار البلاد والعصر بل ضد ميراث طويل من الاعتقاد فى الزهد كطريق يحقق القوة والمعرفة — فهجره تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس فى حالة حزن وقنوط ، وأخذ جوتاما يتجول بمفرده .

والعقل عندما يصطرع مع مشكلة عظيمة ومعقدة ، فانه يتقدم فى سبيل الفوز خطوة فى أثر خطوة — أى ببطء — دون أن يدرك إلا قليلا قدر

المكاسب التى أحرز ، فاذا هو يدرك نصره ويحققه على حين بغتة ، مع احساس بالاستنارة المفاجئة ، وهذا هو ماحدث لجوتاما ، فانه جلس يتناول طعامه فى ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشعور بالرؤية الصافية يحل به ، فلاح له أنه يرى الحياة نقية واضحة ، ويقال أنه جلس طيلة نهاره وليله فى تفكير عميق ، ثم قام ليبلغ العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد فى البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديدة ، فشادوا لأنفسهم فى حديقة الغزلان الملكية ببنارس أكواخا ، وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

تعاليمه :

وكانت نقطة البداية فى تعاليمه هى السؤال الذى وجهه لنفسه كشاب حالفه التوفيق : « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » .

وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس ، لكنه يختلف اختلافا كبيرا - فى النوع - عن حب الاستطلاع الصريح المنطوى على نسيان الذات والتوجه نحو العالم الخارجى ؛ حب الاستطلاع الصريح الذى كان طاليس وهيرا قليطس يحاولان به تفهم مشاكل الكون . كما يختلف كثيرا عما يعادل ذلك من نسيان للذات يتجلى فى صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذى كان أواخر الانبياء يفرضونه فى العقل العبرانى فرضا (كما يقول هجويلز) (١) .

فالمعلم الهندى لم ينس « النفس » بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدمرها ، وعلم الناس أن كل ما يعانيه الفرد يعود إلى رغباته المشوهة ..

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ١٢٤ .

فحتى يخضع المرء تلهفاته الشخصية فحياته متاعب ونهايته شجن .

والتلهف على الحياة يتخذ أشكالا رئيسية ثلاثة كلهن شر ، فأولها حب الشهوات والشراهة وجميع أنواع الاحساسات الجسدية (الغرائز) وثانيها الرغبة في الخلود الشخصي والأنانى، وثالثها التهافت على النجاح الشخصي وحب الدنيا وما إليه ، ولابد من التغلب على أنواع هذه الرغبات ، التماسا للفرار من محن الحياة وأشجانها ، فإذا تم قهرها واختفت النفس تماما ، بلغ المرء مرتبة « النرفانا » أى صفاء النفس وهى أعلى درجات الخير ، تلك خلاصة مذهبه يعلق على ذلك ه . ج . ويلز قائلا : ولا شك أنه مذهب خفى جدا وميتافيزيقى وهو لايكاد يدانى فى سهولة الفهم وصية الفسلفة الاغريقية التى تدعو الناس أن ينظروا ويعرفوا بلاخوف ، وبالطريقة الصائبة ، ولاالوصية العبرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر .

كان تعلمنا يعلو كثيرا على فهم تلاميذ جوتاما المتصلين به اتصالا مباشرا فلا عجب إذن أنه ما كاد نفوذه الشخصى يزول حتى داخل المذهب الفساد والغلط ، وكان أهل الهند يعتقدون فى ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة ، وأنها تتجسد فى شخص مختار يسمى « البوذا » وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يقم أى دليل على أنه هو نفسه قبل اللقب ، ولم تكد تنقضى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تنسج من حوله . ومع ذلك فان العالم فاز بكسب جوهرى .. فى اعتقاد ويلز فان الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئا من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثمان » وهذا الطريق ينطوى على الإصرار على الاستقامة الذهنية وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب وعلى السلوك الصائب ، والتعيش الشريف » وبفضله تم انعاش الضمير ، وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة المنطوية على نسيان الذات فقال بوذا بالغاء الطبقات ، ولم يعترف بهذا التقسيم الطبقى ، وهاجم

المعتقدات والطقوس التى تتبع فى هذا الشأن ، وأعلن أنه اكتسب الحكمة بجهود جبارة فيما سبق له من الحياة على هذه الارض دهورا وأحقابا بتعدد المواليد ، وهو يرشد أتباعه إلى نظام يضمن الرقى الاخلاقى ولا يدعوهم إلى دين كسائر الاديان ، يكشف لاتباعه سبيلا ولا يقرر عقيدة . . . فبوذا يؤسس دعوته على حصوله على المعرفة أو بعبارة أخرى على تجربته الروحية التى لا يمكن بيانها بالالفاظ فدعوته حكاية عن تجربته ، وعن الطريق المؤدى إليها ، وهو يقول إن الحق لا يعرف بالنظريات ، بل بالسير فى طريقه .

وعلى هذا لم يعن بوذا بالحديث عن الاله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه اثباتا أو إنكارا وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وماوراء الطبيعة ، والقضايا الدقيقة فى الكون وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا فى هذه الأبحاث ، ويوبخهم على سؤالهم عن قضايا دقيقة مجردة ، ويأمرهم بالخوض فى أعمالهم ودواعيها ، وميولهم وعواطفهم وعواملها .

ولكن بوذا اتجه أحيانا إلى جانب الإنكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الاثبات...ومن أجل اهمال الاله أو الاتجاه إلى انكاره أحيانا اتجه براهمة عصره إلى وصمه بوصمة الإلحاد .

لكن النفس كما سبق أن قررنا ـ لا تصبر على ذلك كثيراً ، فاتجه بعض أتباع البوذية إلى القول بأن روح الله قد حلت ببوذا .

دين جديد :

إلا أن عدم اتجاه بوذا إلى التهجم على الآلهة أو إلى انكارها انكاراً مباشرا وواضحاً ، كان سبباً قوياً فى سرعة انتشار البوذية فى الهند ولعدم تعارضها مع آلهة الهنود ، وعلى هذا كان كثير من الهنود يتبعون البوذية فى أخلاقها ومع ذلك يحافظون على ولائهم لآلهتهم ، حتى اختلطت البوذية بالبرهمية ، ونتج عن هذا الاختلاط دين من صنع البشر ، يقبل كل فلسفة

وكل تفكير ويؤاخى كل الديانات والمذاهب « هو جنانا يوجا » الذى يتسع لمعتقدات الجميع ويطلقون عليه الآن « اليوجا » .

وهناك كثير من المغرضين ودعاة الهدم يحاولون احتواء الاسلام بهذا المذهب . يقول العقاد : وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية ، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية على اعتبارها عنصر الأربيين الأقدمين والمعاصرين فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء وزعموا أنها جراءة العقل الكبرى » (١) .

انتشار البوذية بعد انكماشها :

انتشرت البوذية فى حياة بوذا بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا على السواء أما طبقة الأمراء والجنود فقد وجدوا فيها تنفيسا لكراهيتهم لسلطان البرهمانيين وتسلطهم وأما الآخرون فقد وجدوا فيها تخلصا من معاناتهم من الاضطهاد والاحتقار .

ولكن البوذية بدأت تنكمش بعد وفاة بوذا ، إذ بدأت فيها ثغرات وفجوات لم يجد لها الناس اجابة - كموقع الألوهية مثلا .

إلا أنه بعد انقضاء بضعة أجيال ، تمكن تلاميذ بوذا وأتباعه من سد هذه الثغرات ، وملء هذه الفجوات إما بالاعتراف بآلهة الآخرين أو بتأليه بوذا وعبادته ، واحتلال تمثاله مكانا بين آلهة الهند المتعددة .

وبعدئذ ما لبثت هذه التعاليم أن حييت ، خصوصا بعد أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم كما يقول

---

(١) الله ص ٧٠ وارجع إلى أديان الهند الكبرى ص ١٧٠ .

ه ج ويلز(١) وهو الملك آسوكا الذى دام حكمه للهند ثمانية وعشرين عاما ، فتبنى مذهب البوذية ، واهتم بجانبها السلمى ، وأعلن أن قوة بلاده وقدرتها على الفتوح ستكون منذ ذلك الحين فتوحا فى ميادين الدين بطريقة سلمية عملية ، فحفر الآبار وزرع الأشجار وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تربى فيها الأعشاب الطبية ، وأنشأ وزارة للعناية بأهالى الهند الأصليين وأجناسها الخاضعة ، واتخذ العدة لتعليم النساء وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ، وحاول أن يحثهم على نقد المؤلفات الدينية المتكدسة لديهم نقدا أحسن وأقوى أثرا .. وانطلقت البعوث الدينية من لدن أسوكا — أعظم الملوك كافة ، كتعبير ويلز — إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية .

ولكن آسوكا لم يخلف من ورائه من يواصل جهوده ، لذا لم تكد تنقضى مئة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى مجيدة فى بلاد الهند التى عبثت بها أيدى التمزق والانحلال ، لقد كانت طائفة الكهان البرهمانية وهى أعلى طوائف المجتمع الهندى وأكثرها امتيازات ، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا ، فراحوا يقوضون على التدريج نفوذ البوذية فى البلاد ، واستردت الإلهة القديمة سلطانها ، هى والعقائد الهندوكية التى لاعد لها ، وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تعقيدا وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية أحداهما إلى جوار الأخرى ، أخذت البوذية تضمحل ببطء ، وأخذت البرهمانية تحل محلها متخذة عددا كبيرا من الصور والأشكال ، بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيدا عن

(١) راجع أديان الهند الكبرى ص ١٣٧ وما بعدها . وموجز تاريخ العالم ص ١٢٠ وما بعدها ، والأديان والمذاهب الشرقية ص٥٧ وما بعدها ، والله للعقاد ص ٦٦ وما بعدها وقصة الدراما الهندية — محمد فكري ص ٦ وما بعدها .

سلطان الطوائف حتى اجتذبت إليها بلاد الصين ، وسيام ، وبورما ، واليابان ، وهي بلاد لا تبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم (١) .

خلاصة القول :

عبثت يد البشر كثيرا بهذه الصور التي سميت أديانا سواء كانت برهمية أو جينية أو بوذية ، وكانت نتيجة هذا العبث معاناة الإنسان من ظلم الإنسان باسم الطبقات والطبقية ، أو باسم تعاليم الآلهة المتعددة التي صنعها الإنسان بوحي من ضعفه وعبقريته وغرائزه وأهوائه ، فكان البشر يميلون إلى الآله الذي يرضي غرائزهم أو يشبع أهواءهم .

وقد حاول أذكياء البشر أن يخلصوا الإنسان من آلامه ، فرفضوا جميع الآلهة « كالجينية » ، فكانت النتيجة أسوأ وأكثر ايلاما ، أو اعترفوا بها جميعا دون أن يكون لهم تأثير أو تدخل في حياة الناس « كالجنانايوجا » فبقيت العقول تتساءل وتبحث عن الحقيقة الكبرى ، وسر الالتزام .

ولا يزال الإنسان قلقا حائرا خاصة ذلك الإنسان المثقف الذي يلحظ بسهوله تناقض البوذية مع نفسها وعجزها عن الاجابة على معظم تساؤلات العقل الناضج .

وتحاول الدول الكبرى أن تستغل هذه الحيرة ، وأن تجتذب الإنسان المتردد في هذا العالم الواسع ، فالمسيحيون يبذلون وسعهم مدعين أن المسيحية قادرة على إزالة حيرة الإنسان وآلامه ، والشيوعيون يدعون نفس الدعوى ، ويحاولون نفس المحاولات ، إلا أن المسيحيين يغدقون الكثير على مراكز

---

(١) راجع أديان الهند الكبرى ص ١٣٧ وما بعدها ، وموجز تاريخ العالم ص ١٣٠ وما بعدها ، والأديان والمذاهب الشرقية ص ٥٧ وما بعدها ، والله للعقاد ص ٦٦ وما بعدها ، وقصه الدوراما الهندية ، محمد فكري ص٦ وما بعدها .

التبشير بالمسيحية ، والغلبة للأقوى وللاكثر قدرة على العطاء فى هذا العصر . لكن الغيب لايزال يحمل المجهولات والعجائب .. لأن الاسلام الذى يحمل الاجابات العلمية على كل التساؤلات التى تصدر عن العقل الانسانى فى كل زمان لايعجزه عن الحركة غير حكوماته التى اختارت الدنيا لنفسها، ولاتأبه لأفراد شعوبها وشعوب العالم ، فعجزت هذه الحكومات عن تحقيق التقدم والثراء للشعوب الاسلامية ، وهما عماد الحركة الفردية والاجتماعية ، وإلى أن يتحقق هذا يبقى الإنسان نهبا للصراعات المادية وللزيف المؤيد بالأساليب العلمية ، وللاكراه العقلى المصحوب بالعطاء المادى والمعنوى ، من جانب المبشرين رسل الدول الثرية المتقدمة .

* * *

الفصل السادس

نقـد نظرية التطـور ضـوفى

معتقدات قدماء العرب

انحراف العرب عن دين إبراهيم ــ عبادة الاصنام والاوثان ــ
تعدد المعتقدات العربية ــ تعدد الاصنام واختلاف أسمائها باختلاف القبائل

تمهيـــد :

وجدت المعتقدات العربية على نحو يشبه معتقدات قدماء الهنود ومعتقدات قدماء المصريين من حيث ظهور المعبودات الكثيرة تارة حتى كان لكل قبيلة معبودها الخاص ، وقلة المعبودات تارة أخرى حتى عرف الإله الواحد الذى يتقرب إليه العربى فى كل البلاد العربيـة وإن اختلفت مظاهر هـذا التقرب .

كما التقت عبادة الأصنام مع عبادة مظاهر الطبيعة ، مع الاعتراف بالخالق فى وقت واحد ، ووجد من العرب منكروا الخالق والبعث والاعادة وإرسال الرسل مع من يقر بالخالق وابتداء الخلق والابداع . . إلخ . فى بيئة واحدة ، الامر الذى ينقض فكرة تطور الاديان تبعا للتطور الفكرى والحضارى أو الثقافى من أساسها ، فيظهر بذلك فساد هـذه الفكرة ويتأكد لنا : —

١ — أن التوحيد والإيمان بالخالق والبعث والحساب وغير ذلك مما يتصل بالعقيدة الصحيحة الواردة من طريق الوحى الصحيح أمر عرفه الإنسان منذ وجد على ظهر البسيطة مثلا فى آدم أبى البشرية وأول الانبياء الذين تلقوا هذا الوحى .

٢ — أن العبادات المنحرفة كانت رجعة فكرية لا تنتظر الرجعة الحضارية ولا تقترن بثقافة معينة ، ولا ترتبط ببيئة خاصة .

٣ — أن المعتقدات التى يصنعها الإنسان أو يتدخل فى صنعها لا تنتهى بنفسها إلى التنزيه الكامل للإله الحق وما يأمر به وما ينهى عنه بل لا بد من

وحى صحيح ينقى هذه المعتقدات من كل تشويه أو تحريف أو انحراف بشرى كل هذه الأمور تكشف عنها دراسة معتقدات قدماء العرب كما كشفت عنها دراسة معتقدات قدماء المصريين وقدماء الهنود وغيرهم ...

انحراف العرب عن العبادة الصحيحة :

تتميز معتقدات قدماء العرب بوضوح صورة الانحراف عن العبادة الصحيحة إلى عبادة الأوثان والحجارة وغيرها من مظاهر الوثنية .

ذلك الوضوح الذى يكشف عن صورة وكيفية الانحراف والتراجع الإنسانى ، والردة الفكرية الدينية ، من غير أن يرتبط هذا التراجع وذلك الانحراف بنوع الحضارة المادية ، أو التقدم الشكلى الإنسانى .

فقد عرفت مكة من رسالة إبراهيم (ﷺ) ذلك الدين الصحيح الذى يوحد الخالق وينزهه عن كل نقص ، ويصفه بكل كمال ، ويعطيه القدرة على إرسال الرسل ، وإحياء الناس بعد الموت ، وسؤالهم عما قدموا من خير وشر ومجازاتهم على أعمالهم بالجنة أو بالنار ... إلخ ...

وكان لسكنى إسماعيل بن إبراهيم فى مكة تأكيد لبقاء هذا الدين الصحيح الصادر من وحى صحيح ، حتى ولد له ولقبيلته ما جعل مكة تضيق بهم فبدأ الصراع المادى يسيطر على أفكارهم وتصرفاتهم ، وبدأ الهوى يحكم تفسيرهم للدين ، فاستباحوا محاربة بعضهم لبعض بعد استباحتهم العداوة بعضهم لبعض وكل فريق يحاول أن يدعى لنفسه الحق دون الآخر فأخرج بعضهم بعضا ، وتوزع الخارجون فى البلاد ...

فما خرجوا إلا وهم كارهون ، وكان من تصرفهم للتعبير عن الرابطة المقدسة التى تربطهم بمكة : أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة البيت العتيق أو البيت الحرام تعظيما للحرم ، وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوا ما حملوه من حجارة وطافوا به كطوافهم بالكعبة

تيمناً منهم بها ، وصبابة بالحرم وحبأله ، وهم بعد — لايزالون — يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على ارث — أى سنة — إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره(١) .

عبادة الأصنام والأوثان :

كثيراً ما تصرف الحياة بمشاغلها ، الناس عن البحث عن سر اهتمام الآباء بهذا الشيء أو بذاك ، خصوصاً فى تلك الأيام التى كان يصعب على الانسان أن يحصل على عيشه ومقومات حياته إلا بعد جهد عضلى وذهنى يستغرق كل وقته تقريباً. فلا يجد الأبناء إلا أن يواصلوا السير على منهاج الآباء فى تقدير مايقدرون ، واتباع ما يتبعون حتى يصبح التقدير والاتباع سنة لاتعرف علتها ، وعرفاً لايدرى الأجيال له سبباً ، إلا أنهم يسيرون سيرة الآباء ، ويلتزمون بأعراف القدماء ، ولهذا قال الكفار « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ، لقد انتهى تقدير الآباء للحجارة التى حملوها عند خروجهم من مكة انتهى ذلك بالأبناء إلى أن عبدوا الاوثان ، وصاروا إلى ما صارت إليه الأمم السابقة كعبادة قوم نوح للأصنام على نفس النمط ، وكان لابد أن يبقى مع ذلك تقدير الخارجين من مكة لمكة والبيت ، فيبقى هذا فى الأبناء مع عبادتهم لتلك الاصنام التى اتخذوها ، وكانوا يتنسكون بتعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، واهداء البدن والاهلال بالحج ، والعمرة مع ادخالهم فيه ما ليس منه .

وكانت نزار تقول إذا ما أهلت .

لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك ! إلا شريك هو لك .. !

---

(١) الاصنام للكلبى ص ٦ .

تملكه وما ملك !.

فيوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيد الله الأعلى .

وكانت تلبية «عك» إذا خرجوا حجاجا قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم ، فكانا أمام الركب فيقولان : نحن غرابا عك – والأغربة فى لغة العرب تعنى السود منهم شبهوا بالاغربة فى لونهم – فتقول عك من بعدهما : عك إليك عانية ، عبادك اليمانية ، كيما نحج الثانية !

وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك ووقفت فى المواقف ، نفرت فى النفر الاول ، ولم تقم إلى آخر التشريق ،

فكان أول من غير دين إسماعيل عليه السلام – علنا – فنصب الأوثان وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمى الحامية (١) عمرو ابن ربيعة ، وهو لحى بن حارثة ابن عمرو بن عامر الازدى وهو أبو خزاعة وكان قد قاتل جرهما بنى إسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ، وتولى أمرها بعدهم ولما مرض مرضا شديدا لم يبرأ منه إلا بعد أن أتى البلقاء من الشام فاستحم بحمة كانت بها فبرىء . ووجد أهلها يعبدون الاصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا نستقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو ، سألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . (٢) فكانت بداية تعدد الاصنام فيها وتقديسها إلى أن أظهر الله الإسلام .

وليس أوضح من هذا دليلا عن أن الإنسان كان يتراجع عن العقيدة الصحيحة حين يعطى عقله حق التدخل فى تصور هذه العقيدة أو تغييرها أو تحريف كما لها .

تعدد المعتقدات العربية :

---

(١) الاصنام للكلبى ص ٦ وما بعدها .

(٢) الملل والنحل للشهرستانى ح ٢ ص ٢٤٧ .

تعدد المعتقدات العربية :

وجد من العرب من يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة وهم قليل كان منهم ورقة بن نوفل ، رزيد بن عمرو بن نفيل ، فكان ذلك دليل ما بقى من الدين الصحيح الذى جاء به إبراهيم وإسماعيل ثم وجد منهم فى نفس الوقت من ينكر الرسل ويقر بالخالق والبعث وهم الذين أخبر عنهم القرآن فقال على لسانهم « مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . . .

ومنهم من أنكر البعث مع الأقرار بالخلق وهم الذين أخبر عنهم القرآن أيضا فى قوله : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . . . »

ومنهم من زعم بأن عبادة الأصنام إنما هى مجرد وسيلة للتقرب إلى الخالق « وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

ومنهم من أنكر الخالق وأسند الخالق إلى الطبيعة فأنكر البعث والحساب فقالوا : « وما يهلكنا إلا الدهر . . إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين . . . ألخ .

ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية ، ومنهم من كان يميل إلى النصرانية ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنواء واعتقاد المنجمين فى السيارات .

حتى لايتحرك ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ، ويقول ، مطرنا بنـــوء كذا ، ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله . . . تعالى الله عن ذلك علو كبيرا .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى جـ ٢ ص ٢٣٧

تعدد الأصنام واختلاف أسمائها

ومن العرب الذين عبدوا الأصنام من اتخذ أصنام قوم نوح بأسمائها فعبدت قبيلة كلب ودا ، وعبدت هذيل « سواع » وكانوا يحجون إليه وينحرون له ، وعبدت مذحج وبعض قبائل من ؛ اليمن يغوث » وعبدت همدان « يعوق » وعبدت ذى الكلاع بأرض حمير « نسرا » .

ومن العرب من اتخذ لأصنامه أسماء أخرى ، فكانت « اللات » لثقيف بالطائف ، « والعزى » لقريش وجميع بنى كنانة وقوم من بنى سليم ، و«مناة» للأوس والخزرج وغسان ، « وهبل » أعظم الأصنام عندهم وكان على ظهر الكعبة ، وهو ذلك الصنم الذى جاء به عمرو بن لحى من البلقاء بالشام ، وأضاف إليه «أساف» ونائله وكان يذبح عليهما تجاه الكعبة ووضعهما على الصفا والمروة . . .

* * *

كل هذه الأشياء كانت بعد دعوة إبراهيم واسماعيل ، فكانت على هذا المستوى أو ذاك من التراجع والردة ، مما يدل بلا أدنى وجه للجدل على أن الانسان عرف التوحيد وتنزيه الاله الخالق قبل أن يعرف هذه الأنواع من العبادات ، وقبل أن يرتد ويتراجع إلى هذه الصور السافلة .

فلا مجال البتة لادعاء تطور العقيدة الصحيحة مع تطور العقل البشرى ، بل لامجال البتة لادعاء قدرة العقل الانسانى على الوصول إلى دين صحيح من غير أن يهديه إليه وحى صحيح .

الفصل السابع

نقد نظرية التطور

فى ضوء

معتقدات قدماء الصينيين

تمهيـــد — العبادات والشرائع عند الصينيين القدامى
تعاليم كنفشيوس

تمهيد

قدمنا من خلال معتقدات قدماء المصريين وقدماء الهنود وقدماء العرب دليلاً واضحاً ومثالا حياً ، على أن دعوى تطور المعتقدات مرتبط بتطور الحضارات والثقافات دعوى كاذبة يقوم الدليل على بطلانها، وبالتالي: فلا صحة لدعوى أن الانسان هو الذى وصل إلى توحيد الله وتنزيهه من غير وحى .

بل الدليل قائم على عكس ذلك وهو : أن الانحراف بالحقيقة إلى الضلال هو صنع الانسان ، أما التنزيه والتوحيد الحقيقى فلا يكون إلا من طريق الوحى .

وإذا كان الانسان قد فطر على التدين ، فلا يعدو ذلك تطلعه الدائم الى البحث عن الخالق المحيط الخبير بهذا الكون ، فكانت مهمة الوحى تتجه الى تعريفه بما تبحث عنه فطرته وهو الله المنزه أما تدخل الانسان فكان ينتهى الى هذه الصور المحرفة الناقصة للألوهية ولذلك كان توحيد الاله من جانب البشر لا يمثل وصولا الى الحقيقة بطريقة انسانية بحتة ، بل كان يمثل خلطا واقتباسا من وحى قديم يخالطه عجز البشر فيكون توحيدا مشوبا بالفكرة الانسانية العاجزة كإفراد الشمس بالعبودية أو بالألوهية .

فحين وصل المصريون الى التوحيد ممثلا فى أفراد الشمس أو رع بالألوهية ، كان ذلك منهم اقتباسا من وحى قديم ولذلك أضفوا على هذا الإله جميع صفات الكمال الإلهى التى يحملها الوحى ، والتى دونت فى تراث مصر التاريخى والثقافى ، وقد ثبت وجود رسل وأنبياء موحى إليهم كإبراهيم وموسى ويوسف دعوا المصريين إلى عبادة الإله الأحد الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير وحين وجد التوحيد فى بلاد الهند كان

شأنه كذلك ، وقد ثبت أيضا وجود رسالات سماوية بلغت فى هذه البلاد ، فالهند كمصر من أمم الرسالات الدينية .

أما الصين فتعد مثالا فريدا حيث يقال بأنها ليست من أمم الرسالات الدينية ، ولم تحظ فى تاريخها القديم بشىء من ذلك فكيف كانت معتقداتها ، وهل تصبح دليلا يؤيد قضيتنا أم ينقضها ؟

العبادات والشرائع عند الصينيين القدامى :

اصطلح علماء مقارنة الأديان على أن الصين على اتساع رقعتها . وكثرة شعوبها ، قد اختبرت جميع أنواع العبادات ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تحظ برسالة دينية واحدة تنشأ فيها ، فلم تخرج للعالم قيما دينية تصدر منها ، ولكنها أرضت العقل الفطرى الباحث عن الألوهية بمعتقدات وردت إليها من الخارج قديماً وحديثاً ، كعقائد البوذية والمجوسية والمسيحية والإسلام ، ولم تعط أمة عقيدتها ، باستثناء اليونان التى أخذت عنها نحلة كنفشيوش (الحكيم المشهور) .

ومن الجائز جدا كما يقول هـ . ج ، ويلز (١) أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة سمراء كما كانت مماثلة فى طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية .

ومهما يكن الأمر فإنا نجد أنه لما وافت ١٧٥٠ ق م كانت الصين مكونة فعلا من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن ، وكلها تعترف بولاء مفكك العرى ، وتدفع رسوما إقطاعية لامبراطور كاهن واحد هو : « ابن السماء الكاهن الأعظم » ، وانتهى حكم أسرة « شانج » فى

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ١٢٩

١١٢٥ ق م وخلفتها : أسرة « تشاو » الطويل ، وانحدرت إلى البلاد شعوب من الهون ، وانشأت الإمارات ، وقطع الحكام المحليون الجزية ، وأصبحوا مستقلين ، ويقول أحد ثقات الصينيين : إن البلاد كان بها فى القرن السادس ق - م خمسة أو ستة آلاف مقاطعة مستقلة تقريباً ، وهذا العصر هو الذى يسميه الصينيون فى سجلاتهم باسم « عصر الفوضى » .

ويهمنا جداً أن ندرك أن عصر الفوضى هذا كان مليئاً بكثير من النشاط الفكرى ، وبوجود كثير من مجالات الفن المحلية والعيش المرفه والمتحضر ومع ذلك لانجد للدين صورة راقية تدل على التوافق بين الرقى الفكرى والرقى الدينى ، أو بين التحضر وتطور المعتقدات الدينية .

فكل ما استطاع أن يصل إليه الإنسان الصينى فى هذا العصر أن وجد « كنفشيوس » الذى بشر بالحلم والصبر والبر بالوالدين والعطف على الأقربين والغرباء وأوصى بأن تقابل السيئة بالعدل وأن يقابل الإحسان بالإحسان ، وقد أحزنه كثيرا مايغشى الصين من فوضى وخروج على القانون ، فاختط لنفسه صورة مثل أعلى لحكومة أحسن وحياة أفضل . وأخذ يتنقل من ولاية إلى أخرى باحثا عن أمير يأخذ بنظرياته فى التشريع والتعليم وينفذها ، ولكنه ، لم يعثر قط على ذلك الأمير ، وحين عثر عليه ، أحاطت به مؤامرات رجال البلاط فقوضت سلطان كونفشيوس على الأمير ، وتغلبت فى النهاية على مشروعاته الإصلاحية .

ويتلخص مذهب كونفشيوس فى منهج عيش الرجل النبيل أو الأرستقراطى أو المثل الأعلى - أى أنه شغل بسلوك الشخص وأفعاله . فاهتم بالشئون العامة ورثى لاضطراب العالم وتعاسته ، وأراد أن يجعل الناس نبلاء - أى فضلاء - رغبة فى إيجاد عالم فاضل ،

لذلك حاول أن ينظم السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ، وأن يدبر

القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة ، وكانت صورة السيد المهذب الذى يهتم بالشئون العامة ، والذى يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى المثل الأعلى .

ومات «كنفشيوس» محطم الآمال ، وهو يقول» «لم ينهض حاكم ذكى الفؤاد ليتخذنى استاذا له ، وهاقد حانت منيتى» بيد أنه لما مات فى ٤٧٨ ق – م أقاموا له الهياكل وعبدوه على سنتهم فى عبادة أرواح الأسلاف الصالحين ، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة «رسمية» أى حكومية على عهد أسرة «هان» فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه فى المدارس ومعاهد التعليم ، وكانت هياكله فى الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة ، ولم تزل عبادته قائمة إلى أوائل القرن العشرين تخصوه فى سنة ١٩٠٦ بمراسم الإله الأكبر «شانج تى» إله السماء ، لأنه فى عرفهم «ند السماء» ومن لم يؤمن اليوم بربوبيته من الصينيين المتعلمين فله فى نفسه توقير يقرب من التأليه وقد جعلوا يوم ميلاده عيدا قوميا يحجون فيه إلى مسقط رأسه .

وإله السماء هو الإله الأكبر من آلهة معبودة أخرى من مظاهر الطبيعة أرضى بها الصينيون فطرتهم الباحثة عن الإله قديما، فالسماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة تمشت عبادتها جنبا إلى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال .

وهم يتقربون إلى «شانج تى» إله السماء بالذبائح ويبلغونه صلواتهم باشعال النار على قمم الجبال ، فيعلم الإله فحوى الرسالة التى يرفعها إليه عباده بما يودعه الكاهن فى دواخنها ، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكاهن .

وهو – أى هذا الاله الأكبر – الذى يصرف الأكوان ويدبر الامور ويرسم لكل إنسان مجرى حياته الذى لامحيد عنه ، وإنما يداول تركيب

الوجود من عنصرين ، هما عنصر السكون « ين » وعنصر الحركة « يانج » وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم ، وعنصر الحركة بالشقاء والعذاب فهما بهذه المثابة يقابلان عنصرى الخير والشر وإلهى النور والظلام فى الاديان الثنائية .

وقد امتزجت عبادة الاسلاف بعبادة عناصر الطبيعة فى القرن العاشر الميلادى حين تسمى عاهل الصين باسم ابن السماء .

وأراد الفيلسوف شوهسى فى القرن الثانى عشر أن ينشيء بوذية صينية توافق مذهب بوذا فى أمور وتخالفه فى أمور ، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح ووضع « لى » موضع « كارما » الهندية أو القانون أو القضاء والقدر والدولاب والمادة أو « ووشى » قوام العالم ظاهره وخفيه ، فالمادة تحد من القانون ، والقانون خالد لاوعى له . ولا يسمع ولا يجيب ، وإنما ينشأ الوعى أو الادراك فى الانسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد فيخرج الشرر ثم ينطفىء فيموت . وتزول الارواح كما تزول الاجساد متى « نضجت » كما تنضج الثمرة فى أجلها المعلوم ، وقد يبطىء النضج فيطول بقاء الروح فهى إذن طيف أو شبح ، كأنها الثمرة فى حالة العفن والاهمال(١) .

هذا أقصى ماوصل إليه الصينيون بفكرهم وفطرتهم ، مما يدل على ضرورة وجود الوحى والرسل والانبياء لتنقية الفكر البشرى وتصحيح إتجاه الفطرة الانسانية

ولا ريب أن دعوى إمكانيه وصول البشر إلى التوحيد بأنفسهم ومن غير وحى باطلة تماما ، وإلا لوصل الصينيون إليه كما لاريب أن دعوى تطور العقائد من التعدد إلى التمييز والترجيح ثم الوحدانية تبعا لتطور الفكر والحضارة دعوى لا أساس لها من الصحة .

---

(١) الله ـ للعقاد ٧١ - ٧٤

(فقد حدث فى الصين مثلما حدث فى الهند بالضبط أن أفسدت تعاليم معلميهم سواء كان كنفشيوس أو لاهوتسى أو غيرهما كما أفسد مذهب بوذا وتغشت الاساطير كل ذلك ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيدا وخروجاً على المألوف .

فنشطت فكرات السحر البدائية ، وتحركت الاساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ، ونجحت فى أن تسدل عليه ستارا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة ، وعتيقة بالية (١) .

فلا تفسير لهذا كله غير أن الردة والتراجع شأن واقع وغالب فى ميدان المعتقدات والشرائع ، كلما تدخلت أهواء البشر وذاتياتهم فغلبت عقولهم وإيمانهم ، وسولت لهم التبديل والتحريف وتطويع وحى السماء لرغبات الدنيا السافلة .

---

(١) موجز تاريخ العالم ويلز ص ١٢١ .

الفصل الثامن

نقد نظرية التطور

فى ضـوء

معتقدات قدماء الفرس

تمهيد : عناصر التشابه فى المعتقدات الفارسية مع غيرها - زرادشت والزرادشتية - المزدكية - المانونية .

تمهيـــد :

لعل دراسة معتقدات قدماء الفرس تضيف تأييدا جديدا لوجهة نظرنا القائمة على المنهج العلمي الصحيح - لما تنفرد به هذه المعتقدات من روابط وصلات بالمعتقدات الأخرى في مصر والهند وبابل واليونان ، فضلا عن روابطها وصلاتها بتواريخ معتقدات سابقة عليها أو لاحقة لها ، فكان نصيبها من هذه الصلات والروابط ، الأخذ والاعطاء والتأثير والتأثر .

فقدامى الفرس يرجع أصلهم إلى السلالة الهندية الجرمانية أو الجنس الآرى المهاجر وموقع بلادهم قريب من دولة « بابل » قريب من أقاليم الطورانيين قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب ، وقد تلاقت حضارة الفرس وحضارة مصر في السلم والحرب غير مرة . . وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية من جانب وبالدولة البابلية من جانب آخر ، فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين(١) .

عناصر التشابه في المعتقدات الفارسية مع غيرها :

يتضح من دراسة هذه المعتقدات اقتباسها من معتقدات الهنود والبابليين والمصريين واليونانيين وأن للجميع أصلا واحدا هو دين سماوى صحيح أصابته يد التحريف والعبث البشرى جيلا بعد جيل فتوزعت الأهواء والأغراض وقدرات العقول حسب البيئات والظروف ليصبح لكل بلد عقيدة متمايزة تأخذ وتعطى .

---

(١) راجع الله للعقاد ص ٧٧ والأديان والمذاهب الشرقية ص ٩٣ .

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند فى عبادة « مترا » إله النور وتسمية الإله باا « أسورا » أو اا « أهورا » .

وإن اختلفوا فى اطلاقه على قوى الخير والشر ، فجعله الفرس من أرباب الخير والصلاح ، وجعله الهنود من أرباب الشر والفساد .

والبابليون عرفوا عبادة « مترا » فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ورفعوه إلى المنزلة العليا بين الآلهة التى تحارب قوى الظلام .

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم ، فأخذوا منهم سنة التسبيع فى عدد الآلهة ، وجعلوا «أهورامزد » على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات .

ولم تخل الديانة المجوسية (الفارسية) من عقائد الطورانيين ، لأن « زرادشت » عاش بينهم زمنا ، وبشرهم بدينه فاضطر إلى مجاراتهم فى عبادتهم ليجاروه فى عبادته ، وأدخل أربابا لهم فى عداد الملائكة المقربين .

ويعتقد المجوس فى بعض أساطيرهم أن « زروان » أبو الالهين إله النور والظلام ، ولعل « زروان » هذا صنو لاله البابليين « نون » أو القدر الذى يتسلط على الآلهة كما يتسلط على المخلوقات .

وقد آمن المجوس (من الفرس) بالعالم الآخر كما آمن به المصريون ، كذلك بالثواب والعقاب فى الدار الآخرة . ولكنهم قالوا بقيامة الموتى ونهاية العالم وبعث الأرواح للحساب فى يوم القيامة .

ولعلهم جمعوا بذلك بين عقيدة الهند فى نهاية العالم ، وعقيدة المصريين فى محاسبة الروح ووزن أعمالها فى موقف الجزاء ... إلخ(١) .

---

(١) راجع المرجع السابق ص ٧٧ — ٧٨ .

هذا وقد استوعبت الديانة الزرادشتية صـــورة كاملة لهذا التأثير والتأثر أو الاقتباس خلال مراحل نشأتها وتطورها : كما سيجىء .

شخصية زرادشت :

تنسب الزرادشتية إلى شخصية زرادشت التى اختلف الباحثون بشأنها وانقسموا بصددها إلى ثلاث فرق .

١ ـ فريق ينكر وجوده ، ويقرر أنه شخصية أسطورية خيالية نسجت باسمها طائفة من العقائد والشرائع والعبادات والأخلاق التى كان يسير عليها الفرس ، وقد دلت الكشوف الحديثة على بطلان هذا الرأى .

٢ ـ فريق يرى أنه هو إبراهيم الخليل الذى ورد ذكره فى التوراة والقرآن وقد ساد هذا الرأى لدى كثير من أتباع الزرادشتية خاصتهم وعامتهم وليس لهذا الرأى دليل يعتد به وتتضافر الأدلة على بطلانه .

وأظهر الأدلة على ذلك بعد ما بين ميلاد إبراهيم الخليل الذى كان ظهوره فى أصح الروايات حوالى القرن السابع عشر ق ـ م وميلاد زرادشت الذي كان ظهوره فى أصح الروايات أيضا فى القرن السابع ق ـ م .

وبعد ما بين مكانى الميلاد فإبراهيم قد نشأ فى بلدة «أور» ببلاد الكلدانيين على حين نشأ زرادشت بأذربيجان إحدى مقاطعات ميديا ببلاد إيران واختلاف أصل كل منهما فإبراهيم سامى الجنس وزرادشت آرى الجنس واختلاف أماكن الإقامة والدعوة فقد رحل إبراهيم إلى مكة وبنى الكعبة وأسكن بها أهله وذريته ، بينما لا يوجد ما يدل على أن زرادشت عرف بلاد الحجاز أورحل إليها .

ويظهر أن هذا الفريق قد اختلط عليه الأمر لمماثلة ما تذكره التراجم والأساطير الفارسية عن حياة زرادشت : لما تذكره الكتب المقدسة عن حياة إبراهيم .

٣ — فريق يقرر أن زرادشت شخصية حقيقية غير إبراهيم الخليل ، وهذا هو الرأى الصحيح .

وقد اختلف هؤلاء فى تحديد جنسيته وتحديد الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما ، وأرجح الآراء فى هذا الصدد أنه إيرانى الأصل (أى آرى الجنس) وأنه ولد حوالى سنة ٦٦٠ ق . م بأذربيجان ، وأنه قد هاجر منها إلى بختر فى شرقى إيران فى مرحلة شبابه ، وأنه مات قتيلا فى بيت من بيوت النار فى بلخ حوالى سنة ٥٨٣ ق م عندما أغار عليها الطورانيون ،

وقد اعتمد أصحاب هذا الرأى على أدلة تاريخية يكاد بعضها يصل إلى درجة اليقين .

ولا يعتد أحد من العلماء الباحثين فى الوقت الحاضر بما كان يزعمه اليهود - حسب ما يروى عنهم الطبرى وابن الأثير وغيرهما من مؤرخى العرب - من أن زرادشت كان من أهل فلسطين وكان من خاصة الخدم لبعض تلاميذ أرمياء النبى ، فخانه وكذب عليه ، فأصيب بالبرص ، وفر من فلسطين ببلاد أذربيجان وشرع بها دينه[١] .

وقد حفلت التراجم والأساطير الفارسية بحكايات - حول مولده وحياته جديرة بالذكر . نلخصها فيما يلى :

حكايات حول مولده :

روت الأساطير حول مولده والفترة السابقة لمولده قصصا وحكايات كثيرة منها :

ماحدث فى عالم الفلك من أنه لما ولد أحاط بالدار نور قدسى وهاج ،

---

(١) الأسفار المقدسة د . على عبد الواحد ص ١٢٣ — ١٢٨ .

وهبط من السماء نجم عظيم ودنا من الأرض ، وأعلن النبأ السار ، وظهر فى عرض الأفق كوكب عظيم ملأ ضياؤه جميع أنحاء الفضاء .

ومنها ما حدث منه هو ذاته من ضحكة بصوت عال سمعه الحاضرون جميعا وتعجبوا منه .

ومنها ما حدث ممن حوله حينما ذهب حاكم أذربيجان لقتله عقب مولده . وكان المنجمون قد أخبروه أن نبيا سيظهر وسيلغى دين الفرس ويبطل السحر ولكن يده التى حملت الخنجر تجمدت ولم تتحرك . فأشار عليه السحرة أن يبنى بنيانا كبيرا ويملأه وقودا ويشعل فيه النار ويلقى زرادشت ، ولكن النار صارت بردا وسلاما وجاءت أمه فحملته من وسط الرماد سليما (وهذه الحادثة مما تشابه على من ظنوا أنه إبراهيم(١)) .

ومنها ما حدث من بعض الحيوانات حينما ظهر ثور قبل مولده وتكلم منبئا بقرب ظهور منقذ للعالم من سيطرة قوى الشر .

ويعتقد قدامى الفرس أن الله قد نفخ فى رحم أمه من روحه فتقمصت روح الله جسد زرادشت ، فنشأ جامعا بين اللاهوت والناسوت على نحو ما يعتقده المسيحيون فى المسيح ... إلخ .

حكايات حول حياته :

لما وصل سن زرادشت عشرون عاما ، كان يفضل العزلة والتأمل العميق فيما حوله ، حتى أحس بما يشده نحو التعرف على حقيقة الكون

---

(١) ذكر القرآن قصة إلقاء إبراهيم فى النار وجعلها بردا وسلاما فى سورة الصافات آيات ٩٧ ، ٩٨ يقول تعالى : (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) وفى سورة الأنبياء آيات ٦٨ - ٧٠ يقول تعالى : « قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » .

بخبايا الطبيعة وأسرارهما فاتبع أسلوب الرياضة الروحية وترويض النفس على الطهر والتهيؤ للصفاء الروحى . وصدقت عزيمته ، فهجر موطنه الأصلى وأخذ يجوب بلاد إيران ، متأملا ناظرا فى ملكوت الله متزودا بالتجارب والمعارف والثقافات مدة عشر سنوات .

تأمل كواكب السماء نجومها وقمرها وشمسها ملاحظا ظهورها وأفولها حتى انتهى من هذا التأمل وهذه الملاحظة إلى أن هذه الكواكب لا يمكن أن تكون آلهة ولا يصح أن تعبد ، ولا بد لها من مدبر (وهذا أيضاً مما اشتبه على من ظن زرادشت هو إبراهيم الخليل)(١) - وكل هذه أمور يمكن حدوثها من أى عاقل تدفعه فطرته إلى البحث عن خالق هذا الكون ومدبره .

تروى أسفار الديانة الزرادشتية ، أنه حينما بلغ هذه المرحلة من الصفاء والاستعداد الروحى نزل عليه الوحى من السماء .

فبينما هو واقف على شاطىء نهر ديتى بمقاطعة أذربيجان إذا به يرى كائنا مضيئا يهبط من السماء وكأنه عمود من نور ، حجمه تسعة أمثال حجم الإنسان ، يحمل فى يده عصا من لهب ، تقدم من زرادشت وأنبأه أنه كبير الملائكة أرسله الله إليه ليعرج به إلى الملأ الأعلى فيحظى بشرف المثول أمام الاله الأكبر «أهورا مزدا» وهنالك أشرقت عليه معرفة الحق ، وتكشفت

---

(١) بشأن إبراهيم عليه السلام يقول تعالى : وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون الأنعام ٧٨/٧٥ .

أسرار الكون . ورفعت عن بصره الحجب ، ووقف على ما كان يبتغى إليه وأصبح نبيا يوحى إليه بدين يبلغه للخلق وبكتاب مقدس هو « الأبستاق » المشتمل على واحد وعشرين سفرا تشمل تفصيلا لعقائد الديانة الزرادشتية وعبادتها وشرائعها وتاريخها وما اجتازته من مراحل وتاريخ نبيها زرادشت من قبل رسالته ومن بعدها . ومما يحكى عنه أيضاً أنه أوحى إليه أن يتوجه إلى بلخ ليدعو ملكها « كاشتاسب » فلم يستجب له وزج به فى السجن بضعة أيام حتى مرض الملك وعجز البياطرة عن علاجه فطلب من زرادشت أن يدعو له فاشترط لذلك إيمان الملك به هو وزوجته وولده وأن يوقف الولد لنشر الدعوة الزرادشتية ، فأجابه الملك وتحققت المعجزة . . . فتحمس الملك لهذه الدعوة ويقال إنه عمل على نشرها بالقوة .

ولم تنته حياة زرادشت إلا وقد دخل فى دينه معظم أهل إيران ، بل يقال إنه قد دخل فى هذا الدين كثير من أهل البلاد المجاورة لإيران . وخاصة بعض بلاد من الهند ، بل يقال أنه انتشر كذلك فى بعض بلاد اليونان نفسها .

أسس العقيدة الزرادشتية :

يقول الشهرستانى(١) وزعموا - أى الزرادشتيين ، أن الله عز وجل خلق من وقت ما فى الصحف الأولى والكتاب الأعلى من ملكوته خلقاً روحانيا فلما مضت ثلاثة آلاف سنة أنفذ مشيئته فى صورة من نور متلألىء على تركيب صورة الإنسان ، وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين ، وخلق الشمس والقمر ، والكواكب ، والأرض ، وبنى آدم غير متحركة ثلاثة

---

(١) الجزء الأول ص ٢١٦ وما بعدها .

آلاف سنة ، ثم جعل روح زرادشت فى شجرة أنشأها فى أعلى عليين وأحف بها سبعين من الملائكة المقربين ، وغرسها فى قمة جبل من جبال أذربيجان يعرف « باسم يذخر » ثم مازج « شبح زردشت » بلبن بقرة ، فشربه أبو زردشت فصار نطفة ، ثم مضغة فى رحم أمه ، فقصدها الشيطان وغيرها فسمعت أمه نداء من السماء فيه دلالة على برئها ، فبرئت ، ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر ، فاحتالوا على زردشت حتى وضعوه بين مدرجة البقر ، ومدرجة الخيل ، ومدرجة الذئب . فكان ينهض كل واحد منهم لحمايته من جنسه ونشأ بعد ذلك إلى أن بلغ ثلاثين فبعثه الله تعالى نبيا ورسولا إلى الخلق ، فدعا كشتاسب الملك فأجابه إلى دينه .

وكان دينه عبادة الله ، والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واجتناب الخبائث . .

وقال : النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك «يزدان» و « أهرمن» وهما مبدأ موجودات العالم : وحصلت التراكيب من امتزاجها ، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة ، والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد لاشريك له ، ولا ضد ، ولاند ، ولايجوز ان ينسب إليه وجود الظلمة كما قالت « الزروانية » فرقة من فرق المجوس — لكن الخير والشر والصلاح والفساد ، والطهارة والخبث إنما حصلت من امتزاج النور والظلمة . ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ، وهما يتقاومان ، ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة والخير الشر ، ثم يتخلص الخير إلى عالمه ، والشر ينحط إلى عالمه ، وذلك هو سبب الخلاص ، والبارى تعالى هو الذى مزجهما وخلطهما لحكمة رآها فى التراكيب ، وربما جعل النور أصلا ، وقال : وجوده وجود حقيقى وأما الظلمة فتتبع ، كالظل بالنسبة إلى الشخص ، فإنه يرى أنه موجود ، وليس بموجود حقيقة ، فأبدع النور ، وحصل الظلام تبعا ، لأن من

ضرورة الوجود التضاد ، فوجوده ضرورى ، واقع فى الخلق لا بالقصد الأول ، كما ذكرنا فى الشخص والظل .

وأورد الشهرستانى مقالة زردشت فى المبادىء نقلها الجيهانى يقول فيها « أن دين زدشت » هو الدعوة إلى دين « مارسيان » وأن معبوده أورمزد وعدد الملائكة المتوسطين فى رسالاته إليه ، وعددهم ستة ، وقد رآهم وزردشت واستفاد منهم العلوم .

وجرت مساءلات بينه وبين « أورمزد » - الإله - من غير توسط .

أولها قال زرادشت : ما الشيء الذى كان ويكون وهو الآن موجود ؟

قال « أورمزد » أنا والدين والكلام ، أما الدين فعمل أورمزد وكلامه وإيمانه ، وأما الكلام فكلامه ، والدين أفضل من الكلام ، إذ العمل أفضل من القول ، وأول من أبدع من الملائكة « بهمن » وعلمه الدين وخصه بموضع النور مكانا ، وأقنعه بذاته ذاتا ، فالمبادىء على هذا الرأى ثلاثة .

السؤال الثانى : لم لم تخلق الأشياء فى زمان غير متناه ؟ إذ قد جعلت الزمان نصفين ، نصفه متناه ، ونصفه غير متناه . فلو خلقتها فى زمان غير متناه كان لايستحيل شيء منها ، قال أورمزد : فاذا كان لايمكن أن تفنى - ثمّ - آفات الأثيم إبليس .

السؤال الثالث : قال بماذا خلقت هذا العالم ؟ قال أورمزد خلقت جميع هذا العالم من نفسى : أما أنفس الأبرار فمن شعر رأسى ، وأما السماء فمن أم رأسى . . . . وتنسب كل خلق إلى جزء من جسمه . . . . ثم يقول ولما بلغ زرادشت مبلغ الكمال بأربعين سنة ، وتمت له المخاطبات فى سبع عودات إلى « أورمزد » أكمل فيها معرفة شرائع دين الله وفرائضه وسننه أمره الله بالمسير إلى كشتاسب الملك وإظهار ذكر الله وأسمه فنفذ . . . ويقول :

ولما بلغ كشتاسب لقي منه كل ما أنباه به أورمزد من الحبس والبلاء حتى حدث أمر الفرس ... إلى أن يقول: (ومما نص عليه زردشت أن العالم قوة إلهية هي المدبرة لجميع ما في العالم المنتهية مبادئها إلى كمالاتها (١)).

وهكذا يبدو واضحا أن الديانة الزرادشتية في أصلها ديانة توحيد تدعو إلى عبادة إله واحد، وتحارب الشرك وعبادة الأصنام والكواكب وقوى الطبيعة ـ المنتشرة في بلاد الفرس آنذاك، وكانت جميع أدعيتها وصلواتها وآيات أسفارها تتجه إلى هذا الإله وحده كما يظهر ذلك مما ذكره الشهرستاني والجيهاني ومما جاء في سفر «اليستا» وفي أقدم أجزاء «الأبستاق» كتاب الزرادشتيين المقدس قول زرادشت «النجدة لهذا الإنسان، النجدة له مهما يكن أمره ليتفضل على الخالق الأكبر والحاكم الأعظم، الرب الحي ...

إني أتوسل إليك يا أهورا أن تحمي حمى الهداية، وعسى أن تتفضل علي بها. أنت يامن يبعث في النفوس التقوى التي لها من العظمة مالها، فهي النعمة المقدسة، وهي حياة العقول الطيبة الصالحة، إني أتصورك أيها المعطي الأكبر فردا جميلا حينما أشاهد أنك القوة العليا (ذات الأثر الفعال) في تطور الحياة، وحينما أرى أنك تكافيء الناس على الأعمال والأقوال.

لقد كتبت الشر عقابا على الشر، وجعلت السعادة جزاء وفاقا لمن يفعل الخير وذلك بفضلك العظيم الذي يظهر أثره حينما تتبدل الخليقة التبدل النهائي فهو موصوف بالقدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم والمخالفة للحوادث وأنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، ويعلم حقيقة ما في السموات والارض، ولايصل أحد إلى معرفة حقيقته ... بل إن أسم «أهورا مزدا» نفسه يدل معناه على ذلك ومعناه أنا وحدي خالق الكون. وهو أيضاً

---

(١) الملل والنحل ١ ص ٢١٩ — ٢٢٤

يحاسب الناس على أفعالهم ، فتقرر الديانة الزرادشتيه الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب ، والجنة والنار ، كما تقرر الإيمان بالوحي وبالملائكة . . . الخ

تطور العقيدة الزرادشتية على يد البشر :

واضح أن الديانة الزرادشتية كانت في أصلها ديانة توحيد منزه خالص . دعى إليها في وقت كانت فيه المجوسية تقول بأصلين أو مبدأين أو خالقين ، وكان الوثنيون يعبدون الكواكب والأصنام ، ولا ريب أن للزرادشتية مرجعا من الوحي (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) فما يستطيع التطور الفكري أن يصل إلى التوحيد الحقيقي المنزه بدون معونة من الوحي أو اقتباس من ديانة موحى بها ، وواضح أن ديانة إبراهيم قد سبقت الزرادشتية بحوالي عشرة قرون ، فلا مانع من أن تكون الزرادشتية مقتبسة منها أو منقولة عنها .

فلما تدخل الفكر البشري الخالص مدفوعا بطبيعة البشر العنصرية المادية الأنانية الغرزية العاجزة ، أصيبت الزرادشتية بكثير من التحريف والتبديل وأصبحت ديانة شرك يعتقد أتباعها بوجود إلهين أحدهما « أهورامزدا » ويجعلونه إلاها للخير ، والآخر « أهريمان » ويجعلونه إلها للشر ، ويرتبون على هذا الاعتقاد صراعا دائما بينهما لأن كلا منهما يرمى إلى السيطرة على العالم ويظهر أن هذا التراجع الفكري نشأ عن عدم قدرة العقل الإنساني على مجاراة الوحي في تجريد الذات الإلهية وتنزيهها ، بعد ما فقد الموجهون أو قلوا ، فقد رمزت الديانة الزرادشتية إلى قدرة الذات الإلهية برمزين ماديين محسوسين أحدهما النور ممثلا في الشمس والآخر النار .

ومن ثم كان حرص الديانة الزرادشتية على أن يوقد في كل هيكل من هياكلها شعلة من النار ، وأن تبقى مضيئة متوهجة ، يتعهدها رجال الدين

المزابذة ، والهوابذة ، فيقدمون لها وقودا من خشب الصندل وغيره من الأعشاب والمواد العطرية ، وترتل حولها الأدعية وتقام الصلوات وقد بدأ الانحراف بالمبالغة فى شأن الرمز كعادة الإنسان دائما ، حتى انتهى بتقديس النار وعبادتها لذاتها بعد أن كانت مجرد رمز لقدرة الإله .

ثم أشركوا مع النار فى التقديس بدرجة أقل من النار ـ الماء والتراب والهواء (١) وهكذا الإنسان فى كل زمان ومكان يبدأ انحرافه عن الحق بالمبالغة فى تقدير بعض الأشياء أو المظاهر ، أو الناس . ثم لا يلبث هذا التقدير أن يلبس ثياب التقديس ليحل الزيف محل الحقيقة ، والباطل محل الحق ، حتى يتدخل الوحى أو الرجوع إلى الوحى الصحيح ، لتصحيح مسار الإنسان ، وتوجيه العقل أو الفطرة المستقيمه إلى الصراط المستقيم .

وقد يبدأ هذا الانحراف وينتهى إلى نتائجه السيئة فى دور من أرقى أدوار الحضارة المـــادية لأمة من الامم . إن سمى هذا التقدم المادى البحت حضارة .

كما قد يبدأ تصحيح مسار الإنسانية فى دور من أسفل أدوار الانحطاط البشرى المادى والعقلى أيضاً وينتهى إلى نتائج عظيمة وخيرة المادة والمعنى إن صح المسار . . .

هذه هى الحقيقة يؤيدها الواقع المادى للأمم والحضارات كما رأينا وكما

---

(١) يراجع فى هذه المعتقدات كتب الله للعقاد ص ٧٧-٨٩ والاسفار المقدسة . د . على عبد الواحد ص ١٢٣ ــ ١٥٥ ، والقصة فى الأدب الفارسى د . أمين عبد المجيد ص ١٦ وما بعدها والملل للشهرستانى ج ١ ص ٢١٦ وما بعدها .

سنرى من مختلف المعتقدات الإنسانية .

المـــانوية :

ظهرت هذه العقيدة على يد « مانى بن فاتك » الحكيم ، وذلك بعد اضمحلال المسيحية ، أى، بعد ظهور دين سماوى صحيح ، تعرض للتحريف وداخلته الاهواء البشرية ، وتنازعته الاغراض الدنيوية ، فكان « مانى » أو « مانو » يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولكنه أدخل مع هذا القول تلك النزعة التى كثيرا ما تصيب عباد القديم ، فعاد إلى مجوسية الفرس القديمة وأقتبس منها القول بأن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنها أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم ...

ثم اختلفت المانوية فى مرجع الخير والشر ومدى ارتباطهما بالنور والظلام ، فقال أكثرهم : إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل فنظرت الروح فرأت النور . فبعثت الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لاسراعها إلى الشر فلما رأى ذلك ملك النور ، وجه إليها ملكا من ملائكته فى خمسة أجناس من أجناسها الخمسة . فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية . فخالط الدخان النسيم ، ـ وإنما الحياة والروح فى هذا العالم من النسيم ، والهلاك والآفات من الدخان ـ وخالط الحريق النار والنور الظلمة . والسموم الريح ، والضباب الماء ، فما فى العالم من منفعة ، وخير وبركة : فمن أجناس النور ، وما فيه من مضرة وشر وفساد ، فمن أجناس الظلمة ، فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكا من ملائكته ، فخلق العالم على هذه الهيئة ، لتتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة ، وإنما سارت الشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب ، لاستصفاء أجزاء النور من أجزاء الظلمة فالشمس تستصفى النور الذى امتزج بشياطين الحر ، والقمر يستصفى النور الذى امتزج بشياطين البرد ، والنسيم الذى فى الارض لا يزال يرتفع ، لان من شأنها

الارتفاع إلى عالمها ، وكذلك جميع أجزاء النور أبدا فى الصعود والارتفاع ،وأجزاء الظلمة أبدا فى النزول والتسفل .. حتى تتخلص الأجزاء من الأجزاء ، ويبطل الامتزاج ، وتنحل التراكيب ، ويصل كل إلى كله وعالمه ، وذلك هو القيامة والمعاد .

ومما يعين فى التخليص ، والتمييز ، ورفع أجزاء النور ،التسبيح والتقديس والكلام الطيب ، وأعمال البر ، فترتفع بذلك الأجزاء النورية فى عمود الصبح إلى فلك القمر ، ولا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى نصفه ، فيمتلىء فيصير بدرا ، ثم يؤدى إلى الشمس إلى آخر الشهر ، وتدفع الشمس إلى نور فوقها ، فيسرى ذلك فى العالم .. إلى أن يصل إلى النور الأعلى الخالص ، ولا يزال يفعل ذلك ، حتى لا يبقى من أجزاء النور شىء فى هذا العالم إلا قدر يسير منعقد ، لا تقدر الشمس والقمر على استصفائه ، فعند ذلك يرتفع الملك الذى يحمل الأرض ، ويدع الملك الذى يجذب السموات فيسقط الأعلى على الأسفل ، ثم توقد نار حتى يضطرم الاعلى والاسفل ، ولا تزال تضطرم حتى يتحلل ما فيها من النور ، وتكون مدة الاضطرام ألفا وأربعمائة وثمانيا وستين سنة » (١) إلى آخر هذه التدخلات العقلية البشرية التى تنزل العقيدة الصحيحة من عليائها إلى فلسفة لا تصلح إلا لزمانها وقد لا تصطلح معه إلا زمنا يسيرا ومع بعض العقول الساذجة الضعيفة مما يدل على صحة اتجاهنا الذى يؤكد رجعية هذه المعتقدات وتخلفها بعد نقاء الوحى وسموه .

الشريعة المانوية وأثر الوحى فيها :

فرض «مانو» أو «مانى» على أصحابه العشر فى الاموال كلها . والصلوات

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص ٢٢٧ وما بعدها ح ١ .

الاربع فى اليوم والليلة والدعاء إلى الحق ، وترك الكذب والقتل والسرقة ، والزنا ، والبخل ، والسحر ، وعبادة الاوثان ، وأن يأتى على ذى روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله ، إلى غير ذلك مما يدل على وضوح آثار الوحى الصحيح فى هذه الشريعة الامر الذى يؤكد انحرافها بعد السلامة واختلالها بعد الاستقامة . بسبب ردة العقول البشرية ، وتخلفها ، وقد جاءت من بعد ذلك رجعة أشد وردة أبعد على يد مزدك .

المزدكية :

ثم كانت المزدكية امتداد المانوية وصورة جديدة لتدخل البشرى ، وكيفية خضوع البشر لاهوائهم وأغراضهم الدنيوية ، فكان « مزدك » يقول : بالاصلين ، لكنه أدعى أن النور يعمل بالقصد والاختيار أما الظلام فيعمل بالصدفة والاتفاق ،وأن النور بهذا يكون عالماً حساسا بعكس الظلام الذى يصير جاهلا لا يدرك ولا يحس ولا يرى .

ويترتب على كل هذا أن « المزاج » يعمل هو الآخر بالصدفة والاتفاق ولا يعرف قصدا ولا أختياراً ، وكذلك النجاة والخلاص يقعان بالصدفة والاتفاق لا بالاختيار .

وكان مزدك يحرص - فى اعتقاده - على تعاون الناس واتفاقهم ، كما يحرص على تحقيق الحب والمودة فى حياتهم ، وراح يضع خطة لتحقيق ما يحرص عليه ، فوضع أوامره العامة ومنهياته فى :

١ - عدم المخالفة .

٢ - عدم المباغضة .

٣ - عدم القتال .

أما رؤياه لما يحقق ذلك فقد حدده فى أسباب مايراه يوقع المخالفة والمباغضة والمقاتلة وهى النساء والأموال ، فأحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركاء فيهما كاشتراكهم فى : الماء والهواء والكلأ والنار .

وحكى عنه أنه أمر بقتل النفس : ـأى الانتحار ـ لتخلص من الشر ومزاج الظلمة (١) .

العقيدة عند مزدك :

برؤية العبيد القاصرة ، وبعقلية البشر المستقلة العاجزة كان مزدك يعتقد أن معبوده يجلس على كرسى فى العالم العلوى ثم يصور لنفسه ولأتباعه هذه الجلسة بصورة الملك أو القيصر أو الامبراطور فى العالم السفلى ويقرب الصورة أكثر فيذكر « خسرو » بالذات .

وبين يديه أربعة أشخاص ، وكذلك إله مزدك بين يديه أربع قوى : قوة التمييز ، وقوة الفهم ، وقوة الحفظ ، وقوة العلم ، وهذا العدد هنا يدبر أمر العالم بسبعة من ورائهم ، وهذه السبعة تدور فى اثنى عشر . . . أخ .

وكل إنسان تجتمع له هذه القوى الأربع والسبع والاثنا عشر يصير ربانيا فى العالم السفلى ، ويرفع عنه التكليف . . . . أخ (٢) .

وهكذا لايزال العقل الإنسانى يسبح وراء خيالات وأوهام يبنيها على أساس أو على غير أساس حتى ينحرف عن الحقيقة أو يحرفها أو يتلفها ويفسدها .

وهكذا كان « مزدك » والمزدكية وما تفرع عنها من فرق شملته

(١) راجع الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٢٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ ج ٢

بلاد فارس ونواحيها ، وما تفرع على القول بالأصلين النور والظلمة وقدرتهما نفيا وإثباتا قصدا واختيارا أو طبعا وإضطرارا كل هذه الاجتهادات الإنسانية لاتمثل غير الدليل الحى على أن البشر أعجز من أن يصلوا إلى الحقائق الدينية الصحيحة من غير الاستناد إلى الوحى الصحيح ، مهما كانت درجة حضارتهم المادية أو تقدمهم الفكرى ، أو إنتاجهم العلمى.

وعليه فلا دليل لأحد هنا على أن الدين الصحيح من صنع إنسان أى إنسان ، كما لا دليل لأحد على أن الدين يتطور مع الحضارة المادية رقيا وانحلالا ، إلا أن يكون هـــذا الدين صناعة بشرية خالصة ، وحتى هذه الصناعة البشرية الخالصة تجدها لاتوافق فى درجة اقناعها للعقل أية صناعة بشرية أخرى كما سنرى فى معتقدات البابليين واليونانيين .

الفصل التاسع

نقد علماء مقارنة الأديان والقول بالتطور

فى ضوء معتقدات البابليين

تمهيد : تصور البابليين للألوهية — اليوم الآخر ، — علاقة الآلهة بالكون

تمهيد :

كانت أرض بابل مثالا حيا جديداً على عجز البشر عن الوصول وحدهم من غير وحى إلى الوحدانية المنزهة الحقيقية .

فعلى الرغم من توسط أرض بابل العمران الآسيوى، وانفتاحها المطلق على معتقدات شتى من بلاد الفرس والهند ومصر والشام، وبلاد أخرى مجهولة المعتقدات وعلى الرغم من أن حضارة بابل تعد من أقدم الحضارات فى التاريخ بل يذهب المبالغون من الأوربيين إلى ادعاء أن حضارة بابل أقدم الحضارات البشرية على الإطلاق .

على الرغم من كل ذلك لم يصل أصحاب هذه الحضارة إلى توحيد حقيقى من عند أنفسهم، بل لم يؤثر عنهم الإتجاه إلى أذكار التوحيد على أى شكل من الأشكال .

يقول العقاد : ـ وهى ـ أى الحضارة البابلية ـ على قدمها لم يكتب لها أن تؤدى رسالة ممتازة فى تاريخ الوحدانية . ويقول : ويستطاع الجزم بأن الرسالة البابلية فى الدين لم تتجاوز رسالة الديانة الشمسية السفلية .

فالغزوات التى تروى عن الأرباب الأقدمين هى غزوات أبطال من الأسلاف الذين برزوا بملامح الآلهة، بعد أن غابت عن الأذهان ملامحهم الإنسانية . ثم تلبست سيرتهم بظواهر الكون العليا، فسكنوا فى مساكن الأفلاك وحملت الأفلاك أسماءهم، ولا تزال تحمل بقية منها إلى اليوم .

فمروداخ إله الحرب هو كوكب المريخ وقد تغلب على تيامات ربة الأغوار المظلمة فأخذ زوجها وخلائفها الأحد عشر، وسلسهم أسارى فى مملكته السماوية، فهم المنازل الإثنى عشر التى بقيت فى علم الفلك إلى اليوم (١) .

---

(١) الله ص ٩٠ ــ ٩١

ويظهر أن مبالغة الشعب البابلى فى تقدير حكامه الذين كانوا يمثلون القادة العسكريين ويقودون البابليين إلى الانتصار فى عصور الغزو والهمجية . هذه المبالغة فى التقدير تطورت إلى تقديس ، ثم إلى تأليه .

وحتى عندما وقعت بابل تحت حكم الدولة الآشورية فى القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد ، فقد لجأ سرجون الثانى الغالب إلى تملق البابليين المغلوبين بمعاملة ربها وإلهها بعل مردوخ ، وكهنتها وتجارها أحسن معاملة .

وفى أواخر القرن السابع ق م وأوائل القرن السادس تأسست الإمبراطورية البابلية الثانية التى تخلصت من الأشوريين ، ووصلت درجة عالية من القوة والثراء تحت حكم نبوخذ نصر العظيم وامتدت سيطرته إلى بلاد « يهوذا » فحاول حكمها بطريقة سلمية لكن اليهود أعملوا الذبح فى موظفيه البابليين فمزق دولتهم كل ممزق وأمر فنهبت أورشليم . وحمل من بقى بها من الناس إلى بابل أسرى ، وكانت الأسفار الخمسة من العهد القديم التى تنسب إلى موسى عليه السلام بيد اليهود .

إلا أن البابليين لم يتأثروا بدعوة التوحيد إلى الحد الذى يجعلهم ينتصرون لها .

فعما كان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل وهو « نابونيداس » من ذوق أدبى رفيع ، إذ ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولى سرجون الأول عرش بابل خلد ذكرى هذا الواقعة بما سطر من نقوش :

إلا أن محاولاته لبث الروح المركزية فى إمبراطوريته لم تتمخض إلا عن فكرة إحضاره إلى بابل عدداً من الآلهة المحليين المختلفين ، وإقامة المعابد لتلك الآلهة بها ، بدلا من توحيد الإله وعبادته (١) .

---

(١) راجع موجز تاريخ العالم ص ٧٣ وما بعدها .

وقد اتفق الساميون والشمريون ، أصحاب الحضارة الشمرية التي ازدهرت في أرض بابل قبل انتقال الساميين إليها ، على الأرباب الكبرى البابلية كإله النور الذي يسميه الساميون « شمس » ويسميه الشمريون « آنو » أو كالزهرة ربة الحب التي يسميها الساميون عشتار ، ويسميها الشمريون ننسيانه . .

ولكن الأرباب البابلية أوفر عدداً من أن ينتظمها اتفاق بين قومين مختلفين ، لأنهم ارتفعوا بعددها إلى أربعة آلاف وقرنوا بها أندادا لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد .

ومامن علة لتبرير هذا التعدد الغريب غير استغلال العقول والأفكار والأهواء ، وعدم وجود الدعاة قادرين على إقناع هذه العقول والأفكار والأهواء بالاتحاد على إله واحد أو إلهين أو ثلاثة .

وهكذا تذهب الأفكار البشرية إذا لم تجد عليها سلطانا من البشر ولا مرجها قادرا على إقناعها . . .

فلا عجب أن برعت هذه العقول والأفكار في ميدان الحضارة المادية لما تتمتع به من حرية . وفشلت في ميدان العقائد لعدم الموجه المقنع . .

(ولهذا كانت سياسة الكون كما تخيلوها أشبه بالجمهورية بل بالمشيخة القبلية ، فكانوا يتخيلون أن الأرباب تجتمع كل سنة في يوم الاعتدال الخريفي لتنظر في أسماء مقادير السنة كلها ، وتكتبها في لوح محفوظ لايمحى قبل نهاية العام ، . وكان الملك نفسه يتلقى سلطانه على الأرض عاما بعد عام في مثل ذلك الموعد . فيمثل الكهنة رواية الخلق ، ويشهدها الملك كمفرد من الأفراد ، ويتعمدون في بعض مواقف التمثيل أن يهينوه ويستخفوا به

ليقرروا بذلك أنه فقد كل سلطان له على رعاياه . . فلا يعود إليه السلطان إلا بإذن جديد من « مردوخ » يتلقاه قبل ختام الرواية من يد حبر الأحبار) (١) .

اليوم الآخر :

هذا ولم يؤثر عنهم أيضاً فى عهد الشمريين إيمان بعالم آخر أو بيوم للحساب والجزاء ، فمن اجترأ على فعل محرم أو قصر فى الصلوات والقرابين فالآلهة تجزيه عن ذنبه بمرض يصيبه لا يشفيه منه غير كاهن المعبد بعد توبته والتكفير عن ذنبه .

وإن لم يكن جزاؤه مرضاً فهو شيء آخر كالنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، وكل مصيبة تعد تنبيها إلى ذنب اقترفه أو فريضة أهملها .

وقد تعم الذنوب فيعم العقاب ، وترسل الآلهة على الأرض طوفانا أو وباء يعم البرىء والمذنب على السواء ، ولكنها قد تنذر الناس قبل حلول العقاب وتلهم الكهان وحدهم تفسير ذلك النذير (٢) .

علاقة الآلهة بالكون وببعضهم :

تتمثل علاقة الآلهة البابلية بالكون وببعضهم البعض فيما يروونه من أخبار وغزوات لتلك الآلهة قبل خلق هذه الدنيا وفى قصة الخلق نفسها ، وفى قصة سقوط الإمبراطورية البابلية ووقوعها تحت حكم قمبيز بن قورش الفارسى .

---

(١) الله — ص ٩٢

(٢) المرجع السابق ص ٩٢

يقول العقاد : وهم يذكرون لتلك الأرباب غزوات وأخبارا قبل خلق هذه الدنيا كأنهم كائنات لاتحتاج إلى خالق .

فيروون عن « تيمات » ربة الغمر أو ربة الأغوار والظلمات أنها هزمت « أنو » إله السماء بجحافل من جيوشها .

وعاد « أنوا » فانتصر عليها ولكن بعد أن برز من الماء بطل وليد ، هو مردوخ رب الجنود وسيد الحروب الذى عمد إلى « تيمات » فشقها نصفين : صنع الأرض من أحدهما وصنع قبة الفضاء من النصف الآخر، ثم وضع أسراه فى هذه القبة ، فهم لايبرحونها إلا باذنه ، ورفع إلى السماء ماشاء من الأرباب .

أما قصة الخلق عندهم : فهى أن الدنيا كانت قسمة بين « تيمات » ربة الأغوار ، أو ربة الماء الأجاج ، أو ربة الفوضى والعماء ، أو ربة الظلمات والأغوار، وبين آيا إله الماء العذب وعنصر الخير فى الوجود ، وموقع الأرض البابلية يجعلها فى قبضة هذين الربين ويوحى إلى أهلها الإيمان بما عندهما من المخاوف والخيرات حتى هزمت تيمات وقسمها مردوخ إلى قسمين صنع الأرض من أحدهما وصنع الفضاء من القسم الثانى .

وقد كشفت الألواح التى تضمنت شروح هذه القصة بالخط المسمارى فى أواخر القرن التاسع عشر ، ونقلت إلى المتحف البريطانى بلندن حيث تحفظ الآن .

ويتم البابليون قصة خلق الإنسان بقصة أخرى هى معاقبة الإنسان على طموحه إلى الخلود واجتهاده فى اختلاس سره من الآلهة بالموت يعاقب به على ذلك إذ تأبى الآلهة أن يشاركها أحد من الخلق فى نعمة الحياة الباقية .

وتدل القصة على أنها من مأثورات قوم عريقين فى سكنى تلك البلاد ولم تنقل إليهم من بلاد أجنبية عنها ، ويرجع ذلك على التخصيص ذكر الطوفان

المفصل فى بعض القصص البابلية ، لأن الباحثين فى الآثار يعتبرون أن الطوفان قد غمر ما بين النهرين إلى الشمال . وأن الجبل الذى استقرت عليه سفينة نوح هو الجبل المعروف اليوم بجبل أرارات ولم تشتمل قصص الطوفان فى البلاد الأخرى على تفصيل كهذا التفصيل ولهذا اعتبر العقاد قصة الخلق البابلية أهم نصيب ساهمت به المأثورات البابلية فى علم المقابلة بين تواريخ الأديان (١).

أما قصة سقوط الامبراطورية البابلية ووقوعها تحت سيطرة الفرس فيقول ويلز بأن محاولة (نابونيدياس » آخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل إحضار الآلهة المحليين وإقامة المعابد لتلك الآلهة فى بابل أثارت غيرة كهنة « بعل مردوخ » الأقوياء وهو رب البابليين الأكبر ، فأخذوا يدبرون الخطط للتخلص من نابونيداس والبحث عن بديل له ، ووجدوه فى شخص « قورش » الفارسى ، حاكم الامبراطورية الميدية المجاورة ومن قبل ذلك كان اسم « قورش » قد برز حين هزم « كرويسوس » ملك ليديا الثرى فى شرق آسيا الصغرى .

وزحف قورش على بابل ودارت المعركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة سنة ٥٣٨ ق م ، فدخلها جنوده بلا قتال .

المهم أن التوراة تذكر أن ولى العهد « بيلشاصر » بن نابونيداس كان فى وليمة عندما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من نار . منا ، منا تكيل ، وفرسين meue mene le■el Uphasin وقد أولها النبى دانيال الذى استدعاه الأمير ليقرأ اللغز بأن معناها أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، وتكيل معناها وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، وفرسين معناها قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس » (٢) يقول ويلز وربما كان كهنة بعل مردوخ على

---

(١) الله ص ٩٣ — ٩٤

(٢) سفر دانيال الاصحاح الخامس

علم بأمر تلك الكتابة المسطورة على الحائط ، وقتل « بيلشاصر » فى تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيرا ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أى توقف ، (١) إلى هذا الحد كانت ضآلة الفكر العقائدى فى دولة عرفت الحضارة إلى حد لا يختلف كثيرا عن حضارة هذا العصر كما يصور ذلك هـ . جـ . ويلز ص ٧٦ - ٧٧ فى مؤلفه موجز تاريخ العالم .

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ٨٦ .

الفصل العاشر

نقد علماء مقارنة الأديان والقول بالتطور

فى ضوء

معتقدات قدماء اليونان

تمهيد : تصورهم الألوهية ـ تصور علاقة الآلهة بالكون وببعضهم ـ أساطير وقصص .

تمهيـــد :

تعد بلاد اليونان مهدا من مهود الحضارات القديمة الخصبة بأنواع العلوم والفنون والآداب وجميع فروع المعارف الأخرى التي بلغت فيها مكانة راقية تسامت الذرى ، حتى لقد ظل مؤرخو الغرب يعتقدون طويلا أن مهد المدنية الغربية كان اليونان ، إلى أن تبين لهم سبق بلاد النيل ودجلة .

إلا أن هذه البلاد لم تحظ برقى مماثل فى العقيدة ، لاعتمادهم فى هذا الشأن على العقل الإنسانى وحده والفكر المستقل عن الوحى وإنسان هذا شأنه لايمكن أن يصل إلا إلى المستوى البشرى العاجز الذى يحاول أن يرضى فطرته المتطلعة إلى الأيمان بمدبر لهذا الكون ، بأمور حسية أو خيالية ساذجه ، هى كل ما يمكن أن يصل إليها عقله المستقل ، وهى أمور قد ترضى الفطرة إلى حين . ولكنها لاتقنع العقل إلا زمنا يسيرا ، لهذا سرعان ماتتطور مثل هذه العقائد وتتغير . ولكن كل تطور وتغير يبقى ساذجا طالما بقى الوحى بعيدا عنها ، أو بمعنى أصح طالما بقى الإنسان بعيدا عن استمداد عقيدته من الوحى الإلهى الصحيح .

وهكذا كان شأن اليونانيين القدامى ، كما يبدو مما نقل عنهم فى همجيتهم ومنذ بداية تحضرهم.

تصورهم للألوهية :

فهذه « أرباب الأولمب » الذين خلدوا فى أشعار هوميروس فى الملحمتين العظيمتين : الألياذة والأوديسا . وشاعت عبادتهم بين الاغريق يقول عنهم العقاد : كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التى سبقتهم إلى الحضارة وتنظيم العبادات .

فالاله «زيوس » أكبر أرباب الأولمب هو الإله « ديوس » المعروف فى

الديانة الهندية الآرية القديمة ، واسمه متداول فى العادات الأوربية جميعا ، مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات . والربة « أرتميس » ومثلها الربة « أفروديت » أو « فينوس » هى الربة عشتار اليمانية البابلية ومنها كلمة « ستار » التى تدل على النجم فى بعض اللغات الأوربية الحديثة .

والربة « ديمتر » هى « إيزيس » المصرية كما قال هيرودوت — المؤرخ اليونانى المشهور — ، وهى واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها فى بلاد الأغريق .

وأضيف إلى هذه الأرباب « أدونيس » من « أدوناى » العبرية بمعنى السيد أو الإله . . .

كما أضيفت إليها عبادة « ديونسيس » فى أطوارها المتتابعة التى تلبست أخيرا بعبادة « مترا » فى الديانة الأورفية السرية (١) .

ثم رسم لهم خيالهم صوراً لآلهتهم الكثيرة ، عللو بها سر الكائنات وما يقع لها من أحداث .

فما سطع نجم ولا تجمعت سحابة ، ولا هبت نسمة إلا وصور لهم خيالهم وراءها إلها موكلا بها .

وقد عبروا عن كل هذا بتماثيل ورسوم أوحى بها خيالهم أيضاً .

فالموكل بالليل عندهم إله فى صورة امرأة متراخية الأعضاء يداعب النعاس جفونها ، وفى يدها مشعل مقلوب . ويكسوها رداء قد زين بالنجوم .

وكانوا يعتقدون أن كبار آلهتهم يقيمون فوق جبل « الأليمب » أو

---

(١) ص ٩٥ — ٩٦ الله .

«أولمبس» وأن كبيرهم «زيوس» له فوقه قصر وعرش، وأن من حوله أحد عشر من كبار الآلهة يدينون له بالطاعة، وينفذون أوامره ونواهيه.

وكانوا يتصورون أرباب الأولمب يقترفون ما يقترفه البشر من آثام ويجرون وراء شهواتهم الشرهة.

فمثلا قتل «زيوس» أباه «كرونوس» وضاجع بنته، وهجر سماءه ليطارد عرائس البحر ويغازل بنات الرعاة فى الفلوات، وغار من ذرية الإنسان فأضمر له الشر والهلاك، وضن عليهم بسر النار، وعاقب المارد «برومثيوس» لأنه أتى للإنسان بقبس من النار من السماء.

ولم يستطع خيالهم حتى ذاك الحين تصور الإله «زيوس» خالقا للدنيا أو خالقا للأرباب التى تحيط بعرش فى جبل الأولمب، فهو على الأكثر والد لبعضها ومنافس لأنداده منها، وتعوزه أحيانا رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد، فنصيبه بدلا منها القوة والعذر.

ثم يتصورون القدر فوق الجميع حتى زيوس نفسه يخضع لهذا القدر ويتقيد بقيوده، ويعجز عن الفكاك مما يقضيه.

وإليك صورة مفصلة بعض الشىء عن بعض الآلهة نذكرها فيما يلى:

١ - زيوس: كان زيوس حسب اعتقاد اليونانيين القدامى. ابن لكرونس Cronos أو إله الزمن ولترا Terra إلهة الارض، وكان أبوه قاسيا يخشى على سلطانه حتى من أبنائه فكان يقتل من يولد له فقررت أمه أبعاده عنه فأوكلت إلى بعض الرعاة رعايته وحمايته وتنشئته، فأخذوا يغذونه بلبان الماعز حتى شب وترعرع، ولما أصبح شابا نحى والده عن الرياسة ثم تبوأ مكانه.

لكنه لم يصل إلى هدفه هذا إلا بعد معارك وقتال مرير مع أشرار المردة

الذين كان من دأبهم رجم الآلهة بكتل الصخر الهائلة تلك الكتل التى اعتقدوا بأنها كونت عند سقوطها من السماء الجزر والجبال .

ثم تزوج زيوس بهيرا ملكة السماء ودانت له الأمور وجلس فوق عرشه ، وفى يمينه الرعد والبرق ، وعلى رأسه صولجان على هيئة النسر .

أما زوجته « هيرا » فراحت تشرف على الزيجات والولادة ، وكانوا يمثلونها بهيئة سيدة مهابة على رأسها تاج وبجوارها طاووس .

٢ — أثينا : إلهة الحكمة والعلوم والفنون وكانت مقربة إلى كبير الآلهة « زيوس » ولذا كان يستجيب لجميع مطالبها ولقد أقام لها أهالى مدينة أثينا معبداً تكريما لها وأقاموا بداخله تمثالا صنعه « فيدياس » من الذهب والعاج وهو من أبدع ما نفذته يد إنسان ويسمى هذا المعبد « البارثينون » .

٣ — هستيا : إلهة النار عندهم ، ولقد كان من وسائل التقرب إليها مداومة إشعال النار داخل معبدها ، وكانوا يرمزون لها بتمثال على هيئة امرأة وفى يدها مصباح ، وعليها رداء أبيض اللون ومن فوقه وشاح أحمر .

٤ — أبولو : وهو أحد أبناء «زيوس» وقد خصه أبوه بالضوء ويقولون إنه هو الذى يقود عربة « الشمس » وقد منحه أبوه كذلك الشباب وطول العمر ، كما جعله يهيمن على الموسيقى والفنون والشعر والطب ، وكانوا يمثلونه بشاب جميل وبيده القوس وعدداً من السهام رمزاً لأشعة الشمس .

ه — أرتيميز : وهى ابنة «زيوس» وكانت توأما لأخيها أبولو . وهى عندهم فى الأرض إلهة الغابات والصيد ، وفى السماء إلهة القمر . ويشبهونها بامرأة مكشوفة القدمين فى ثياب الصيد وفوق جبينها هلال .

٦ — ديمترا وكانوا يعتقدون أنها هى التى علمت الإنسان حرث الأرض

وبذر الحبوب وحصاد الزرع كما علمته عمل الخبز وكانوا يشبهونها بامرأة تجرى بحثا عن ابنتها « بروسربينا » وأحيانا يتمثلونها امرأة وعلى رأسها اكليل من نبات القمح .

٧ - هفيستس - وهو من أبناء « زيوس » وكان قبيح الخلقة أعرج ، ولكنه كان أعظم اجتهاداً وقد وكل إليه القيام بالكثير من الأعمال ، فهو الذى يصنع اللآلىء والحلى ، كما يصنع الأسلحة لا كابر بطل الإغريق . وهو كذلك عندهم إله الحديد والنحاس والفضة والذهب ، ويرمزون له برجل فى يمناه مطرقة وفى يسراه ملقط .

٨ - آرس (مارس) : وهو عندهم إله الحرب ، ويرمزون له برجل قوى فى لباس الحرب من درع وخوذة ورمح وترس .

٩ — أفروديت : (فينوس) إلهة الجمال والحب . وكان ابنها (كيوبيد) يساعدها فى اتمام الزيجات والولادة ، وفى كل ما كان له بالحب ، ويمثلونها دائما مبتسمة ابتسامة تكشف عن ثناياها راكبة عربة تجرها حمامتان

١٠ - ديونيس : وكان الاغريق يعتقدون أنه هو الذى علم الناس زراعة الكروم ، وقد مثلوه برجل يركب برميلا ، وفوق رأسه اكليل من أوراق العنب ، وله قرنان دلالة على القوة .

١١ — تميس : وهى عندهم إلهة العدالة والقانون والسلام ويمثلونها وهى تقبض بإحدى يديها على السيف ، وترفع بالأخرى الميزان ، وقد وضعت عصابة فوق عينيها رمزا لعدم التمييز لأحد المتخاصمين .

١٢ — أيروس (كيوبيد) كان رمز الحب ، وقد علم أبوه وقت ولادته أنه سيكون منبعث المتاعب والشقاء ، وأراد التخلص منه ، ولكن أمه « فينوس » أخفته عن أبيه فى الغابات وأرضعته بلبان الماعز ويمثلونه

بطفل جميل له جناحان ، وفى يده قوس ، وبجعبيه سهام وهو يصيب بها الناس خبط عشواء .

١٣ - جوفيتس : وهى ساقية الآلهة . ورمزوا لها بامرأة توجت رأسها بالأزهار وفى يدها قدح ، وقد زعموا أنها عندما تزوجت خلفها فى عملها « جنيامید » وكان أميرا الطلعة . فاختارته الالهة ليكون لهم ساقيا . فحمله نسر وطار إلى جبل الأوليمب .

وهكذا ما من شىء إلا نسبوه إلى إله من آلهتهم العديدة التى ذكرنا بعضها والتى قدسها اليونانيون وجعلوها آلهة وعبدوها وقدموا لها القرابين خشية بطشها ، أو تزلفا إليها ابتغاء رضاتها . وتصوروها على هذه الصورة الساذجة البلهاء التى تدل على طفولة فكرية وبدائية عقائدية ، فى وقت نمت فيه حضاراتهم العلمية والمادية والأدبية إلى مستوى راق يحسدون عليه . ويحسن أن نورد هناقصتين تكشفان مدى هبوط الفكرى العقائدى البشرى - ممثلا فى بلاد اليونان - عندما لا يلجأ إلى الوحى الإلهى الصحيح . وتبين هاتان القصتان أيضا تصور علاقة الالهة ببعضهم وبالكون .

تصور علاقة الالهة بالكون وببعضهم :

تتمثل علاقة الالهة بالكون وببعضهم فيما يرويه تاريخ قدماء الاعريق من قصص تمجد أبطالهم ، وتظهر قدرات أربابهم ، ومن بين تلك القصص قصتان نذكرهما لتوضيح هذه الصورة .

القصة الأولى : (قصة رأس ميدوزا)(١) .

بلغ « تيسيس » الخامسة عشرة من عمره ، وبدا فتيا قويا جميلا وسيما ، وغدا مولعا بركوب البحار ، وما لبث أن صار بحارا ماهرا وفى ذات يوم على أثر رحلة له إلى أحدى الجزر غلبة النعاس فرأى « الالهة » « أثينا » ، قد وقع اختيارها عليه لقتل « ميدوزا » ، وأطلعته على صورة « ميدوزا » فرآها قبيحة

الوجه وعلى رأسها بعض الأفاعى تسعى . وكانت هيأتها تبعث الرعب فى قلوب الناظرين واستيقظ « ثيسيس » من نومه ولم يجد أحدا . فعاد إلى بيته فلم يجد أمه ، وعلم أنها أخذت قسرا إلى بيت الملك لتعمل خادمة فعز عليه ذلك وهو ابن بنت أمير فى « أرجوس » تخلص منه وهو وأمه خشية منه أن يقتله كما أنبأه بذلك شيخ عجوز تنبأ بذلك كعقاب على اضمار الجد قتل أخيه ، فوضعه هو وأمه فى صندوق وألقاهما فى اليم فعثر عليهما شقيق حاكم لاحدى البلاد . فأكرمهما حتى وقع هذه الحادث لأمه ، فتوجه « ثيسيس » إلى بيت الملك ، وهم بقتله لولا أنه وجد « دكتيز » الذى أكرمه هو وأمه جالسا فاكتفى ثيسيس بأخذ أمه إلى معبد أقيم فى المدينة للآلهة « أثينا » وتركها فيه لتكون فى حمايتها .

ولكن الملك حنق على ثيسيس وأضمر له الشر حتى دعى إلى احتفال بقصر الملك ، فسأله الملك ساخراً « ماذا أعـــددت لنا من الهدايا فى هذا اليوم ؟ .

فضحك الحاضرون من الأمراء والعظماء سخرية وتحقيرا ، وقال بعضهم « وماذا فى مقدور هذا المعدم أن يقدمه إلا قليلا من الزهور » وقال آخر : أنه أعجز من أن يأتى بعمل مجيد ، فقال ثيسيس : إنى لآت بما لا تستطيعه ولا يستطيعه أحد منكم ، فقال محاوره : كأنك قادر على قتل « ميدوزا » فتحمس ثيسيس وأجاب بالإيجاب فدوت القاعة بالضحكات من جميع الأركان ، بينما صمم ثيسيس على تحقيق قوله ، فأغراه الملك وهدده بالاسنيل لعودته إلا إذا وفى موقنا بهلاكه .

وخرج ثيسيس وأدرك أنه تسرع ولا يدرى ما هو فاعـــله ، وبينما هو غارق فى أفكاره إذ رأى نورا وهاجا يخطف الأبصار ، وأمعن النظر فإذا به يرى « أثينا » تحمل الترس فى يدها وبجانبها رجل ينبعث من

عينيه ضوء كوهج الشمس ، وبيده سيف قد من جوهرة غالية ذات بريق كما كان يلبس حذاء من الذهب الخالص وله جناحان وسأل عن الرجل فقيل له إنه « هرميز » .

وقالت له : إن عهدى بك قويا شجاعا فهل أنت قادر على قطع رأس « ميدوزا ؟ » فسألها عنها عن خبرها فقالت : لقد كانت امرأة جميلة ، ولكنها ارتكبت وزرا فاستحقت عقاب الآلهة ، فسلبوها جمالها ، وجعلوها فى هيئة مخلوق دميم الخلقة ، وفوق رأسها الأفاعى تسعى ، كما جعلوا أصابع قدميها كمخالب الطيور ، ولكى يزيدوا فى نفور الناس منها ومقتهم لها ، جعلوا كل من يقع نظاره عليها يتحول صخرا .

ثم قالت خذ هذا الترس ، واذهب به ، حتى إذا اقتربت منها ، فلا تنظر إليها ، ولكن انظر إليه وحركه يمنة ويسرة ، وعندما تراها فيه ، تقدم واقطع رأسها ، ثم لفه فى قطعة من القماش حتى لايراه أحد ، وأعلمته أنها فى مكان بعيد ، والطريق إليها مملوء بالمتاعب والآلام التى لايتحملها بشر ، وعلمته كيف يتحايل على بنات الليل ذوات العين الواحدة ، حتى وصل إليها بعد أن حصل على معطف الليل كوسيلة لاحتجابه عنها ، ووصل إلى « ميدوزا » واستطاع أن يميز بينها وبين أختيها ، ثم أمسك بالسيف وضرب به عنقها منفذا تعاليم أثينا تماما ، ولكن أختى « ميدوزا » طارداه ، فأخذ يطير مبتعدا عنهما ، وسترة الليل تحجبه عن أنظارهما حتى أعياه الطيران ، فهبط ليستريح ، وإذا به وسط صحراء جرداء لانبات فيها ولاماء فظن أنه هالك لامحاله من الجوع والعطش ، ولكنه تذكر « أثينا » فناداها ، واستغاث بها ، فرأى الماء يجرى والثمار تثقل أغصان الأشجار ، فأكل وشرب ، وواصل الطيران ، حتى أبصر من عليائه امرأة قد قيدت بالأغلال ، فهبط إليها وسألها عن حالها فقالت أنا « أندروميدا » ابنة ملك هذه البلاد ، وقد أعجب بى أبى وقال : ليس بعد جمالى جمال .

وعز هذا على « ملك الأسماك » فقال : « ليس هناك أبهى ولا أجمل من زوجتى » ووجه مياه البحر نحونا فأغرقت بلادنا ، ثم أرسل إلينا « تنينا » هائلا ففتك بالناس ، واشترط على أبى أن يقدمنى قربانا لذلك التنين حتى يحسر الماء . ورفض أبى ، ولكن الناس ثاروا عليه وحملونى إلى هذا المكان رغبة فى انحسار الماء عن أرضهم .

والتفت « ثيسيس » فرأى التنين قادما ، فامتشق سيفه بسرعة وضرب أغلالها فقطعها ، ثم قال لها : ضعى يديك فوق عينيك ولا تنظرى ، واقترب التنين فكشف « ثيسيس » عن رأس « ميدوزا » المقطوع فتحول بالنظر إليها حجراً .

وحمل « ثيسيس » أندروميدا » بين ذراعيه ، وطار بها إلى قصر والدها الحزين وأمها المنتحبة فغمر السرور قلبيهما .

فعرض عليه الملك خلافته من بعده وأن يزوجه ابنته ، فشكره «ثيسيس» ثم استأذنه فى الذهاب إلى والدته وقد صحبته « أندروميدا » فى رحلته ونام ذات ليلة ورأى « اثينا » تقول له : « لا حاجة لك بعد اليوم إلى السيف ولا إلى الحذاء والرداء » ، ثم اختفت واختفت معها تلك الذخائر .

فعاد إلى والدته وطمأنها ، ثم ذهب إلى الملك الذى هدده بالقتل لأنه قد فشل فى ظنه ، فصاح ثيسيس انظر إلى رأس « ميدوزا » فنظر الملك ومن معه ، فتحولوا أحجاراً .

ودعا « ثيسيس » شقيق الملك الذى سبق أن أكرمه وآواه هو ووالدته فتوجه ملكا مكافاة له على ماصنع ، ثم سار الى بلده « أرجوس » مسقط رأسه ، ولكنه وصل بالسفينة الى «مملكة» لارسا وعلم أن جده «أكريسيس» يحضر احتفالا بيوم الألعاب ويزور ملكها ، فتخفى ثيسيس واشترك فى

المباريات وفاز فى كل مباراة اشترك فيها لدرجة لفتت أنظار الجميع ، وكان فى نيته أن يتجه إلى جده بعد نهاية المباريات ويقول له « أنا ابن دانا » أى ابن بنته دانا ولكنه أثناء مباراة رمى القرص ألقى به فارتفع وكان كالسهم، والناس يهللون وهم فى دهشة ، وإذا بالقرص يهوى فوق جدة « أكريسيس» ويصيب منه مقتلا . وتحققت نبوءة الرجل العجوز .

ويذهب «بيرسيس» إلى ارجوس ومعه امه « دانا» وزوجته « اندروميدا » وهناك يتوجه الشعب ملكا .

القصة الثانية : قصة الطوفان(١) .

مما يرويه الاغريق القدماء ماذكروه عن الطوفان ، وهو ان كبير آلهتم « زيوس » خلق « يندورا » وهى اول امراة فى الوجود من الطين ، ومنحها كثيرا من الهدايا ومن بينها صندوق اوصاها ان تعطيه لمن يتزوجها ، فاخذه « ابمثيس » وتزوجها .

وبينما كانا يتسامران ، إذ بها تعبث بالصندوق ثم تفتحه ، فتخرج منه نحلة وتلسعها ، ويثب منه كلب كبير ويعقر زوجها ، ثم تخرج الشرور ومتتابعة من غيرة وحسد وحروب وأمراض على اختلاف أنواعها ، ويعاتبها زوجها فتنحى عليه باللائمة لأنه لم يمنعها . ويتأمل الصندوق فيرى طيرا يشع منه الضوء ويخرج الطير ويغرد ثم يقول : أنا الأمل ، لقد دخلت الصندوق خلسة وسوف أدخل الآن قلوب جميع البشر .

لقد دبر « زيوس » كل هذا لينتقم من الإنسان الذى جحد به وطغى وتكبر .

---

(١) ملخصة من الكتاب السابق ص ٤٩ — ٥١

وعمت المفاسد والشر بين الناس ، فنزل « زيوس » إلى الأرض متنكرا ليرى ما أصاب الإنسان وذهب إلى حيث يقيم أبناء الملك ليكاءون وعددهم خمسون وظن أنهم سيكرمون وفادته « ولكنهم نهروه ونأوا بجانبهم عنه ظنا منهم أنه متسول حقيقي . ودفعوا بكلابهم تنبح عليه وتهم بالفتك به ، فتركهم ولجأ إلى قصر الملك يطلب طعاما ومبيتا ، فقابله الملك أسوأ مقابلة بل هم بقتله ، فما كان من « زيوس » إلا أن نظر إليه نظرة ارتعدت لها فرائصه ، وما لبث أن تحول ذئبا عاويا .

وتلبدت السماء بالسحب ، وهطلت الأمطار مدراراً فملأت السهول والوديان وفاضت البحار والمحيطات ، وغرق كل ما على الأرض ، وهبت عاصفة هوجاء فأغرقت جميع السفن إلا واحدة .

وكان باليونان وقتئذ رجل يقال له « ديوكاليون » وامرأة تدعى « بيرها » وكانا من الأتقياء المتعبدين ، فنجاهما إلا له ، وركبا السفينة التى حملتهما إلى جبل « برناسس » ولم يكن قد غمرت قمة المياه ، حتى توقف نزول الأمطار وانحسر ماء البحار عن الأرض ، فنزلا فوجدا أرضا مقفرة : فصاحا يا ويلتنا كيف يتسنى لنا العيش على هذه الحال . . ؟ وسمعا صوتا ينادى فى الفضاء سيعمر الكون مرة أخرى إن سرتما وعلى وجه كل منكما نقاب ، ثم ألقيتما بعظام أمكما من فوق الأكتاف إلى الوراء .

وفطن الرجل إلى ما طلب بعد تفكير ، وأخذا يقذفان بالأحجار وراءهما وهما لا ينظران إليها وما إن انتهينا ونظرا إلى الوراء حتى وجداها قد صارت حشودا من الرجال والنساء . وعمر الكون بعد خراب .

من هاتين القصتين يتبين فهم اليونانيين للآلهة والقدر ، فالآلهة يبدون فى صورة بشرية ، ويحيون مثل البشر ، ويمارسون ما يمارسه البشر من مأكل

ومشرب وتزاوج ولهم ماللبشر من شهوات وعواطف ونقائص وعصبيات ولا يميزهم إلا أنهم أذكى عقلا وأكثر قدرة ، ويجرى فى عروقهم سائل يكفل لهم الخلود ، وهم فى سيطرتهم على شئون البشر لايلتزمون العدل ، ولا يتقيدون بالأخلاق ، فيفرضون عليهم سلطاناً أعمى بصرف النظر عما فى أعمالهم من خير أو شر ، ويبدو أنهم يحبون القوة فى الإنسان ويحترمونها أحيانا وليس عندهم فى العالم الآخر ثواب ولا عقاب وإذا ندر ووجد شىء من ذلك فان الآلهة توزع الثواب والعقاب بغير عدل كما حدث فى الدنيا وتصوره قصة أوديب .

وهذه القصة تقوم على فكرة تحكم القضاء والقدر فى حياة الإنسان وقهره مهما حاول هذا الإنسان أن يفلت من أحكامه ، ومهما كان فاضلا فأوديب يقتل أباه ويتزوج أمه ، ورغم علمه أن القدر كتب عليه ذلك ، ورغم محاولاته الإفلات من هذه الجريمة ، فهى تتم رغماً عنه ، فالصراع هنا يتم بين الرجل الفاضل النبيل والقوى الشجاع أوديب الذى أنقذ المدينة من الوحش الرهيب ؛ والذى أنقذها مرة ثانية من اللعنة التى حلت بها بسبب جريمته ، فكان ذلك على حساب نفسه ، وبينه وبين القضاء والقدر ، وهو صراع غير متكافىء يضطر فيه أوديب أن يكفر عن جرائم لاذنب له فيها بأن يفقأ عينيه بنفسه .

ولم يزل « زيوس » كبير الآلهة فى تصور اليونانيين خاضعا للقدر هو نفسه إلى عصر (هوميروس) كما صورت ذلك الإلياذة والأوديسا .

تطور هذه المعتقدات :

لما جاء هزيود الشاعر المتدين (١) صور (زيوس) على مثال أقرب إلى

(١) ولد حوالى ٧٠٠ ق . م أى بعد هوميروس بحوالى قرن كامل من الزمان وكلاهما يعدان أول من صور عالم الآلهة عند اليونانيين .

خلائق الرحمة والإنصاف ومثال الكمال ، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم من (زيوس) ومن سائر المعبودات الأولمبية ، وهى جيا : ربة الأرض و (كاوس) رب الفضاء و (إيروس) رب التناسل والمحبة الزوجية ، وجعل (إيروس) يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأليمب وعلى رأسهم (زيوس) الملقب بأبى الأرباب . ولكن هيزيود شارك هوميروس فى إلصاق كثير من صفات النقص البشرية بالآلهة .

وقد وجدت فى القرن السادس قبل الميلاد والقرن الخامس قبل الميلاد أيضاً . محاولات لنقد هذه التصورات الدينية ، ولكنها كانت محاولات فردية لم تحول هذه البلاد عن معتقداتها كثيراً .

فنجد (أكسينوفون) أو كسينوفانس المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون ، ينعى على قومه أنهم يعبدون أرباباً على مثال أبناء الفناء (البشر) ويقول أن الحصان لو عبد إلها لتمثله فى صورة الحصان ، أن الأثيوبى لو تمثل إلها لقال أنه أسود الأهاب ويهاجم فكرة اعتقاد الناس أن الآلهة يتوالدون ، ويتناكحون ، ويرى أن الإله أرفع من هذه التشبيهات والتجسيمات .

كما نجد (ثيوجنس) المولود حوالى ٥٠٠ ق م ينقد (زيوس) أبا الآلهة نفسه بلهجة لاذعة حيث يقول : صديقى العزيز زيوس تعجبنى سياستك أيها المتحكم فى كل شيء . . . إلى أن يسائله قائلا : ولكن كيف تقضى بالمساواة فى المصير ، كيف تسوى بين الصالح والطالح .

وكان أثر الديانات الآسيوية والمصرية أظهر من كل ماتقدم إلا أنه كان ضئيلا ومع ذلك مهد لعصر الفلسفة اليونانية .

يقول ويلز : فإنا نجد فعلا فى القرن السادس ق م ، بينما كان أشعيا لايزال يتنبأ فى بابل نجد رجالا مثل (طاليس) وأنا كسيماندر الملطى ، و (هرقليتوس) من أهل أفيسوس وهم قوم ممن نسميهم اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكى الأريب فى أحوال العالم الذى نعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الحقة ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائره ؟ . . . ورافضين جميع الإجابات المعدة أو المحفوظة التى عن أعمال فكر أو تنطوى على التملص . . (١) . .

ونجد فى القرن الرابع ق م ، قوما ذوى تفكير عصرى أو يكاد ، لقد ولت طرائق الفكر البدائى الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام محلها تناول مشاكل الحياة بطريقة منظمة ونقادة ، وهنا أيضا يهمل تماما كل لجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة المعبودة ، كما تلغى جميع المحظورات والمخاوف والقيود التى ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان (٢) ومع كل هذا ظلوا بعد الفلسفة يدينون بالوثنية التى كانوا يدينون بها قبل الميلاد بعدة قرون (٣) .

وهكذا بقى الإنسان كل هذه القرون يبحث بعقله المستقل عن الوحى ليرضى فطرة التطلع الإيمانى ، فما وصل إلى مايقنع عقله ، وإن

---

(١) موجز تاريخ العالم ص ١٠٣

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

(٣) الله للعقاد ص ٩٨

أرضى فطرته إلى حين فكلما وجد ما يحرك تساؤلات جديدة راح يطلب الإجابة عليها ، وتتغير عقيدته وتتطور وتظل التساؤلات تستحدثها الأيام ، وتتطور العقائد التي هي من صنع الإنسان ، ولن يصل البشر إلى ما يرضى كل تساؤلاتهم العقليـــة ويشبع فطرتهم الباحثة عن الإله ، إلا إذا وصلوا إلى الوحي الصحيح ، واستلهموا منه العقيدة الحقة .

* * *

خاتمة

معتقدات بعض أمم الحضارات القديمة من القرآن ودلالاتها

من شروط المنهج العلمى كما سبق أن يقوم بالتجارب والملاحظات عالم بمحلى التجربة أو الملاحظة وبطريقتها ، خبير بعناصرها ، محيط بخصائصها ومميزاتها وأسرارها ، قادر على أجرائها فى الموقع والزمان اللازمين لنجاح التجربة ، وقادر أيضاً على رصد هذه التجارب ، وتسجيل نتائجها بدقة .

ولم يتوفر لأحد حتى الآن ولن يتوفر لأحد بعد الآن هذا العلم أو هذه القدرة والخبرة والإحاطة غير خالق هذا الكون ومدبره ومسيره ، وصانع قوانينه ، وواضع حساباته . وهو صاحب كتاب محسوس منظور لكل ذى عين ، هذا الكتاب ، يتبع المنهج العلمى الصحيح ، بل يضع الأساس الحق للمنهج العلمى ، ولعله الكتاب الوحيد — فى ميدان الدراسات الاجتماعية والنفسية الإنسانية العامة — الذى تتوفر له شروط المنهج العلمى . بل هو كذلك بالقطع والتأكيد ، لأنه من لدن العالم المحيط الخبير بالنفس الإنسانية ونظم الاجتماع الإنسانى فى العالم كله منذ نشأ وحتى تقوم الساعة (أو لم يكف بربك أنه على كل شهيد) (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) يقرر القرآن . وهو ذلك الكتاب الذى سجل فيه العالم الخبير تجارب الماضين ، ونتائج هذه التجارب بدقة معجزة : يقرر أن الله تتبع الإنسانية بالأنبياء والرسل فنتج عن احتكاكهم بالأمم أحداث وردود أفعال مسجلة تعطى نتائج وقواعد وقوانين نفسية واجتماعية مسجلة أيضاً .

ومن بين ماسجله هذا الكتاب ، أن المعتقدات لم تخضع لنظرية التطور العقائدى إلا إذا كانت المعتقدات من صنع البشر ، أما المعتقدات الموحى بها والتى تواصى بها الأنبياء والرسل جميعا منذ خلق أول إنسان فهى عقيدة

واحدة لم تتغير ولن تتغير ولم تتطور هى الإيمان بالله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

والإيمان بالرسل وبالملائكة ، وباليوم الاخر ، وبالوحى أو الكتب السماوية .

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما (١) .

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (٢) .

«قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله(٣) » .

كما يقرر القرآن أيضاً أن التوحيد المنزه عرفه الإنسان الأول (آدم وحواء) وعرفته البشرية على لسان جميع الرسل والانبياء .

وأنه - أى التوحيد - قد يدعى إليه أناس وأمم فى أى وقت وفى أى ظرف بصرف النظر عن التطور الفكرى أو المادى لهؤلاء الناس وهذه الأمم .

فقد تتعدد الالهة من صنع البشر وقد يتسع ميدان الشرك والكفر فى الوقت الذى تبلغ فيه حضارة أمة المادية أوجا عظيما .

---

(١) النساء ١٦٣ — ١٦٥ (٢) البقرة ٢٨٥

(٣) آل عمران ٦٤

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا . .(١)

وقد قال يوسف المصريين ـ مثلا ـ وهم فى أوج عظمتهم المادية (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) .

وذعا هود قومه إلى التوحيد فقالوا : (ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا إعتراك بعض آلهتنا بسوء (٢) .

وهم فى قمة حضارة صورها القرآن أيضاً حين قال : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) (٣) .

وفى قوله : أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين . . . (٤) .

هذا التفاوت الظاهر والكبير بين التقدم الحضارى المادى وبين الفكر العقائدى الدينى . لاتفسير له إلا انتفاء الارتباط بين أحدهما والاخر . .

وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، واستعمرهم الله فى الأرض فعمروها وبدت صورة تقدمهم فى هذه الايات (إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون الايات إلى أن قال: أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل وطلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . . . الشعراء ١٤٢ — ١٤٩ .

فليس هناك دليل واحد إذن على وجود توافق بين التقدم المادى

---

(١) غافر ٢١ — ٢٢ (٢) هود ٥٣
(٣) ٦ ، ٧ ، ٨ (٤) الشعراء ١٢٨ ومابعدها .

والتقدم العقائدى على النحو الذى يصوره أصحاب اعتقاد تطور العقيدة تبعا للتطور المادى والحضارى .

بل تقوم الأدلة على العكس : وهو إمكان تقدم الأمم ماديا وحضاريا فى الوقت الذى تتراجع فيه وتتخلف عقائديا .

وختاما أرجو أن أكون قد وفقت فى كشف الحقائق التالية .

١ — القرآن كتاب توفرت له شروط المنهج العلمى الصحيح فصارت قوانينه وقواعده فى ميادين النفس والاجتماع العامة قوانين وقواعد علمية ، وأصبح الدين لصلته بالنفس والاجتماع الإنسانى علما يمكن أن يستمد من خلال دراسة منهجية علمية . إذا ارتبط بالقرآن . .

٢ — التطور العقائدى لايخضع للتطور المادى والحضارى إلا إذا كان من صنع الإنسان ، أما الوحى فقد ينزل فى أى وقت وأى ظرف وأى حال منزها الاله الواحد عن كل نقص ؟

٣ — تفسير التطور والارتقاء العضوى لا يخضع لمنهجه ولا يملك إخضاع الانسان لهذ المنهج الا من خلال الاستنتاج من مقدمات غير صحيحة أو التخمين والخيال ، وكلها أمور لاصلة لها بالعلم ولا بالمنهج العلمى وإذا كانت قد بقيت بعض التساؤلات فإلى لقاء فى أجزاء الكتاب التالية . إن شاء الله .

د عمارة نجيب

فهرس الموضوعات

صفحة	الموضوع

تصويب الخطأ

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٦	١٠	يجب	يجيب
٦	١٤	المرتبة	المرتبطة
٨	١	قوانين	لقوانين
١٣	٢	نقص	نفس
١٦	١٢	منها نصيبها	منها قل نصيبها
١٦	٢٠	لينهى إليها	لينهى إلينا
٢٠	٢	يتجر له	يتجرد
٢٥	١٧	ديانة إسلامية	ديانة إنسانية
٢٧	١	عليا وراء	قوة عليا وراء
٣٢	٩	الحبال	الجبال
٣٢	١٨	الخصم	الخضم
٣٣	١١	خذفتهم	حذفتم
٦١	٦	أهواءهم	أهواؤهم
٦٩	٢٠	مقبو	مقبولا
٧١	الأخير	ينهته	ينهيه
٧٢	١٨	ألا تفرض	أن تفرض
٧٦	٤	هذا	هذه
٩٧	١٢	قدة	قدرة
١١٠	٤	فهذا أن	فهذا معناه أن

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١١٩	الأخير	تتحدد	تتحد
١٢١	الأخير	وفائية	وقائية
١٣١	٢	أوضع	أوضح
١٤٠	١٨	بأبه	رأيه
١٤١	١٣	وبخصلة	وبخاصة
١٤٦	١٥	الأموتيون	الأمونيين
١٥٢	٤	سيوف	ومهم سيوف
١٥٢	٧	أو الميت	والميت
١٥٦	١٠	يرجع	يرجح
١٥٧	٥	بقوة	بقرة
١٦٠	٢	بخير	بخبرة
١٦٠	١٤	الأمور العلمية	للأمور العلمية
١٦٠	١٦	عد منافع	عدة منافع
١٦٠	١٨	كل الابتهاد لإنسانية الحركة	محل الإجتهاد الإنسانى والحركة
١٦٠	الأخير	نظر الاحتمال	نظراً لاحتمال
١٦٦	الهامش	ص ٤١ ـ ٥٠	ص ٤١ ـ ٥٩ على هامش
١٦٧	٢	أنة اس	أن تقاس
١٦٨	٣	وأثر	وأرثر
١٦٠	١٦	عن منزها النقائض	منزهاً عن النقائص
١٩٩	١٠	ويعتبرون لها	ويعتبرون التعرض لها

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠٣	٦	ويروىالبيرونى	ويرى البيرونى أنه
٢٠٦	٨	ينحظر	ينخدر
٢٠٧	٤	علم	فلم
٢٠٧	٩	ما يتعارض	مالا يتعارض
٣٦٩	١٦	يكرونوس	لكرونوس
٢٧٠	١٠	اليارثبتون	البارثيتون

وهناك أخطاء أخرى لاتخفى على القارىء نلتمس لها عذراً .

مطبعة الحسين الجديدة
٢٥ شارع الدين الأفغانى خلف جامع الأزهر الشريف
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٩٧٦/٥٣٩٣

الثمن ١٢٥ ص